أنيس منصور

عبد الناصر

المفترى عليه والمفترى علينا!

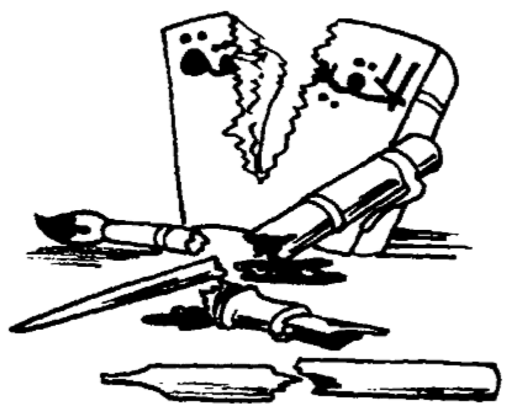
المكتب المصري الحديث

عبدالناصر

الطبعة الأولى سبتمبر ١٩٨٨
الطبعة الثانية أكتوبر ١٩٨٨
الطبعة الثالثة يوليو ١٩٩١

الناشر : المكتب المصرى الحديث
٢ شارع شريف عمارة اللواء بالقاهرة تليفون ٣٩٣٤١٢٧
٧ شارع نوبار بالاسكندرية تليفون ٤٨٢٦٦٠٢

كلمة أولى



كلمة أولى

جاءت مقالات « جمال عبد الناصر المفترى عليه والمفترى علينا » قبل الانتخابات الأخيرة لمجلس الشعب ، صدفة . وكان أثرها عنيفا . فكان على المرشحين الناصريين أن يواجهوا تساؤلات الناخبين : لماذا ؟ كيف ؟ وإذا كان هذا صحيحا فكيف ننتخبهم على مذهب عبد الناصر ؟ وكيف تسكتون ؟

ولكن السبب الحقيقى للنشر هو مرور ٢٥ عاما على قرار الرئيس جمال عبد الناصر بفصلى من عملى بسبب مقال نشرته فى « أخبار اليوم » بعنوان : حمار الشيخ عبد السلام. وهى مناسبة خاصة . والألم مثل الموت : خاص وشخصى . موتى أنا على مرأى ومسمع من الآخرين . . إنهم يشاركون من بعيد ، ولكن الفقيد هو الذى يذهب وحده . . وكذلك الألم فى قلبى وفى عقلى . . وهو شخصى وهو نسبى أيضا . فأنت تضرب كلبك أو حمارك بالشلوت . ولا يقول : آه . . وتضرب خادمك بما فى يدك . . وفى الريف يجلس الرجل إلى جوار زوجته على الترعة ويخلع البلغة ويضربها على ظهرها . ويكون ذلك نوعا من الدلال . . ويكون رد الزوجة : جرى إيه ياعليوه ؟ ليقول لها : يابت بأحبك !

وفى الريف يضرب العمدة أحد الفلاحين بالجزمة فيقول : جزمتك شرف ياعمدة !

والرومانسيون يقولون : لاتضرب المرأة بوردة ـ أى إنك إذا رميتها بوردة ، فكأنك رميتها بطوبة . . أى ضربتها أى أهنتها . .

وعشرات الألوف دخلوا السجون وخرجوا ناقصين وزنا وحجما وكرامة . ولم يتكلموا . . وبعضهم دخلوا السجون وتقلبوا على النار والبول ولحسوا الأرض ونهشتهم الكلاب . وخرجوا : شاكرين حامدين للرئيس جمال عبد الناصر أنه عذبهم . فهم يرون أنه الأخ الأكبر للنظرية الماركسية ، وأنه يطبقها بعنف . . وللأخ الأكبر على إخوته الصغار حق الضرب والتأديب والتهذيب . .

وفى هذه المناسبة الشخصية إلى حد ما ، انتهزت الفرصة لكى أعلن عن خطوط عامة لمقدمة دراسة عن عصر عبد الناصر الانسان . . الحاكم الفرد . . وعن الأثر الأجتماعى والنفسى والأدبى والفلسفى لكل ذلك . ووجدت فى هذه الدراسة الكثير من المعانى التى درستها ولكن لم أستوعبها تماما . . لم أكن أعرف بالضبط ماهو المقصود : بالهوان والذل والضياع والعبث اى اللامعنى لأى أحد ولأى شىء . . إن أكثر معانى الفلسفة الوجودية قد تفجرت فى داخلى وحولى . . وفجأة انفتحت الدنيا وانقشعت على « حوش » قرافة سياسية وإجتماعية ونفسية . كيف ؟ لا أعرف . . هل هى رؤية . . هل هى رؤيا . . كيف درست الفلسفة الوجودية وقمت بتدريسها فى الجامعة وصدر لى أول كتاب عنها سنة ١٩٥٠ وكيف احتويتها واحتوتنى ثم لم أكن أدرى معانى القلق والموت والحرية ومعانى العدم والانعدام . . كل ذلك عرفته . والفضل للرئيس جمال عبد الناصر . ووجدت أن هذه هى مشاعر الآخرين الذين يمضغون ألسنتهم وشفاههم ولايجدون ما يقولون ، ولو قالوا فأين ينشرون ، ولو نشروا فمن يقرأ ومن يسمع ومن يشير إليهم بأن هذا هو الظلم والظلام . .

ووجدت من الضرورى لأى إنسان عنده مشاعر مدخرة . . مختزنة . . محتبسة أن يقول . . وقالوا وسوف يقولون . . لسببين .

السبب الأول : إن دراويش الرئيس جمال عبد الناصر قد صوروه لاينطق عن الهوى . إن هو إلا وحى يوحى ـ قالها د . محمود فوزى . فهو المعصوم عن الخطأ . وليس فى قاموسه إلا الحكمة إذا فكر وقرر ودبر . أما إنكساراته وعثراته فخطوات على الطريق الصحيح . والخطوات أشكال وألوان . . فموسى عليه السلام ضرب بعصاه البحر ، فانشق نصفين ، وهو يخطو على الأرض اليابسة . . سبحان الله . . والمسيح عليه السلام كان يمشى على الماء . . والبراق الذى حمل الرسول صلى الله عليه وسلم كان يخطو من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى . . وعندنا فى الريف أولياء الله الصالحين ينتقلون من المنصورة إلى طنطا فى خطوة واحدة . . إنهم أهل الخطوة . . وأن ارمسترونج الذى نزل على القمر هو أيضا كان يخطو . . وخطواته قفزات بسبب إنعدام الجاذبية . . والذى يمشى على الحبل يخطو ، والذى يمشى على المسامير وعلى النار وعلى رقاب العباد . . كلها خطوات . . والرئيس كل حركاته خطوات مدروسة محسوبة . ولذلك فهو إلى الأمام دائما . فالنصر خطوة كبيرة إلى الأمام والهزيمة نكسة إلى الأمام ـ أى خطوة صغيرة . فهو منتصر دائما . حتى عندما انتصر الجيش المصرى فى سنة ١٩٧٣ كان هو الذى وضع الخطة . فكان انتصارا عسكريا ، وهزيمة سياسية . أى إنه الذى مات انتصر عسكريا ، والسادات الذى لم يمت انهزم سياسيا . فعبد الناصر إذا حضر إنتكس ، وإذا غاب انتصر . . وإذا حضر انتصر قليلا ، وإذا غاب انتصر كثيرا .

وكما أن الخطوات أطوال وسرعات . فكذلك حروبه انتصارات بدرجات متفاوته . كانت الثورة انتصارا له ولزملائه . . إنتصارا كبيرا له وصغيرا لزملائه . والعدوان الثلاثى كان انتصارا شخصيا له . . فالعدوان الثلاثى لم يستهدف جيش مصر ولاشعب مصر ، وإنما زعيم مصر . . وإيه يعنى الجيش المصرى نعمل غيره ـ كلمات الرئيس عبد الناصر . . وإيه يعنى الشعب المصرى . . ماهو على قفا من يشيل ـ كلمات الرئيس عبد الناصر . ولكن هو شخصيا المقصود بالعدوان الثلاثى ـ كلمات شيخ مشايخ الطرق الناصرية . فماذا حدث ؟ لم يحدث شىء فالرئيس ظل حيا يرزق بعد العدوان الثلاثى . . والنظام قائم على أربع . . وهزيمة ١٩٦٧ ، لم تكن هزيمة وإنما هى « وعكه » عسكرية . . عطس . . أو زكام . . سعال ديكى خفيف . . وبقى الرئيس جمال عبد الناصر . . وجاءت الجماهير تطالب بعودته .وفداك ألف جيش وجيش باريس . . وراحت الجماهير التى ساقها النظام تبوس القدم وتبدى الندم على غلطتها فى حق زعيم الغنم . . أما ممثلو الغنم فهم يرقصون ويطبلون فى مجلس الشعب . .

هذه النوعية من التراتيل الكهنوتية التى يرددها مشايخ الطرق الناصرية استفزازية لأنها إهانة للانسان وتجاهل لويلات ملايين المصريين والعرب ، وصفعات وركلات لنصف مليون جندى ، كانوا يلحسون الرمال ، ويعتصرون الماء من علب الصفيح بحثا عن قطرة ماء ، ومئات الألوف من الضحايا ذهبوا فى « نزهة عسكرية » ولم يعودوا . . لقد ماتوا بحسرتهم وعاش بغيظهم : آباء وأمهات وزوجات وأولاد وبنات . .

وعندما آفاق المدنيون والعسكريون من هول المصيبة تساءلوا : من فعلها ؟ من أرتكبها ؟ من أجرم ؟ من خان ؟ من ضرب مصر كلها ؟ لم يجدوا البطل صاحب القرار . وإنما سمعوا من يقول على لسانه : وهو ماله ؟

أمال مال مين ؟ بطولة من ؟
سمعوه يقول : لست أنا وإنما هو ؟
ومن هو ؟

المشير عبد الحكيم عامر الذى صوروه غائبا عن الوعى . . فغاب الجيش كله وضاع الطريق إلى الحدود المصرية . . وقالوا احتقارا لشأن عبد الحكيم عامر . . ليس هو بل هناك طراز من القادة من نوعية عبد الحكيم عامر . . مائة . . الف . . عشرة آلاف . . الجيش كله . . المهم إنه ليس هو الذى فعل . . وإنما هو مظلوم . . فقد إعتدى عبد الحكيم عامر على قداسته . .

ولكن ما السبب ؟

إنها « الصداقة » الرئيس وثق فى المشير إلى اقصى درجة . . أعطاه مفتاح مصر . . فأضاع مصر . . لماذا ؟ لأن الرئيس لو كان هو الذى فى يده مفتاح كل شىء ، لانتصرنا فى كل الجبهات . . ولدخلنا القدس صباحا وتل أبيب ظهرا . . وتوقف القتال ليلا : فقد انتحر اليهود فى البحر . . ولكن عبد الحكيم عامر قد خان الأمانة وفضح قداسة الزعيم فحقت عليه اللعنة حيا وميتا !

والسبب الثانى : إن هناك قضايا كثيرة لم نصل فيها إلى حل . إلى رأى . كل قضايا الحرب والاستعداد لها والدخول فيها والخروج منها . . كل قضايا الاشتراكية التعاونية والاشتراكية العلمية . . فعبد الناصر كان يريد أن يكون ماركسيا . لم يستطع . وعبد الناصر مشكوك فى إيمانه بالله واليوم الآخر . . واحتقاره الظاهر بكل ما هو عربى ولكل رئيس على دولة عربية . .

وقضايا : اليمن دخولا وخروجا ومائة ألف شهيد وعشرات البلايين من الجنيهات ذهبا . . والوحدة ثم الانفصال والهزيمة العسكرية . . ثم من كان صاحب القرار . . ثم انهيار صور البطولة وأحلام الشباب . . وإدارة طواحين الهواء فى الميكروفون وعلى الشاشة وفى الصحف وتخبط الاجتهادات . .

ثم غياب الرئيس جمال عبد الناصر فى الستينات . . كلها . . ابتداء من الوحدة حتى وفاته سنة ١٩٧٠ . .

فمنذ الوحدة مع سوريا ارتفع الرئيس جمال عبد الناصر إلى السماوات . . نفخوه من أذنيه ومن عينيه ، وليس كما ينفخ هو المعذبين فى السجون . . نفخوه حتى صار بالونا بطوليا فوق . . فرأى السوريين صراصير ورأى المصريين بارغيث السوريون أكبر لأنهم أولاد الزوجة الشقراء الذهبية الشعر الزرقاء العينين . . أولاد الجديدة . . أما نحن فأولاد القديمة !

ويوم الانفصال كان أصغر فى الحجم من شعبى سوريا ومصر . . كان أصغر من مصر . . أصغر من منشية البكرى . وكان قبل ذلك أكبر من مصر ولذلك ضم لمصر سوريا والعراق واليمن والسودان وليبيا . ولم يبق أمامه إلا القليل ليحقق أحلام الاسكندر الأكبر ، عندما نظر إلى السماء فسألوه . قال : ابحث عن مستعمرات جديدة .

أما الانفصال عن سوريا فقد أصابه بانفصال فى الشخصية . . بانفصام . . صار أكثر من واحد . . واحد يتكلم والثانى يلطم . . لقد أخترقه الانفصال . . وشجه نصفين . . فكانت الأصوات تخرج منه متداخلة . . كما تتداخل الخطوط التليفونية . . والموجات والقنوات . .

ثم جاءت الهزيمة العسكرية . وكانت النهاية . لقد تبدد الرجل . . وتشتت

وإذا كان الانفصال قد جعله أثنين يتضاربان . . فالهزيمة جعلته كثيرا . . انفرط . . تبعثر . . وكان الكلام له ومعه والكتابة إليه : تأكيدا للخيانة . . لأن صديقه قد خانه . . لأن العالم كله قد تآمر عليه . . ولكن ما الذى استطاعه العالم ؟ لاشىء . . إن الرئيس مايزال فى صحه وعافيه . ومايزال قادرا على أن يحارب وأن يهزم وأن يسحق وأن يقود العرب من نصر إلى نصر . . فمن أجل ذلك ولد ، وفى سبيل ذلك يموت . . أو لعله لايموت . . فهو قد ولد ليعيش إلى الأبد !

ولاتزال الهزيمة قائمة . . ولايزال الاحساس بها حيا . الكارثة هى الحية ، وليس الرئيس جمال عبد الناصر . والهزيمة تتوالد ، وليس هو الذى يتوالد . والكلام عنه لايمحو ظله الأسود على كل الأشياء . . ولكن تعيش المصيبة . .

ولأن المصيبة عنيفه ودامية ، وما تزال قادرة على أن تلد مصائب أخرى جديدة ، فإن انتصارات أكتوبر ١٩٧٣ لم تفلح فى القضاء عليها . . فقد جاءت هذه الانتصارات مثل حفلة زفاف عروسين فى غرفة الانعاش . . لقد كان المرض صدمة عنيفة ، وكان العلاج صدمة أعنف !

ولا أحد يستطيع أن يقول لأحد : لاتقل آه . . إذا نظر إلى ذراعه المقطوعة أو إلى ساقه أو والده الذى غاب أو إبنه الذى لم يعد . .

آه لو أعترف أحد بالهزيمة واخطائها . . آه لو قال أحد : أخطأ الرئيس خطأ فادحا . ويطلب الصفح والعفو . .

ولكن أحد لم يقل . وإنما دراويش الناصرية ـ التى لايعرف أحد ما هى بالضبط ـ يؤكدون أن ١٩٦٧ كانت النصر . . وإن الضحايا قد تشرفوا بذلك . . وعلى آبائهم وأبنائهم أن يرقصوا فرحا ـ ألم يروا نواب الشعب كيف يرقصون . . لقد أذيع ذلك فى « البرامج التعليمية » لكى يرى الشعب ويتعلم ويرتفع عن الألم السخيف ودموع الأطفال التى تذرفها الأمهات والآباء والأبناء . . وأيه يعنى مائه ألف شاب ماتوا من أجل الزعيم ، إيه يعنى ؟ إن الفئران . . الفئران تفعل ذلك كل سنه وهى تنتحر من جبال النرويج وتلقى بنفسها فى المحيط من أجل زعيمها . . كل سنة . . لاكل سبع وإنما ثمانى سنوات ؟ !

. . ولأن العسكرين لاينطقون . . يتلقون الاهانة ولايشكون .
أما العسكريون على الجانب الاسرائيلى فقد كتبوا على هواهم كل شىء فى كل اللغات . . وجعلوا جنودهم أبطالا . . وقادتهم أنصاف آلهة . . ولم يرد عليهم أحد . !

***

وسمعت ما الذى قيل فى محافل كثيرة عن هذه المقالات . . ولماذا ؟ وكيف ؟

ولماذا سكت عنها حسنى مبارك ؟ وهل هذه المقالات العنيفة كان بالاتفاق مع الرئيس مبارك . . لابد أن يكون هذا التناول العنيف لعصر عبد الناصر ، بالاتفاق مع الرئيس حسنى مبارك . . وإلا كيف جاءت قبل المعركة الانتخابية ؟ لابد أن يكون السبب فى ذلك أن الرئيس حسنى مبارك قد فضح « الطوق » الناصرى الملتف حول مؤسسة الرئاسة والحزب . . ولابد أن الرئيس قد صبر عليهم طويلا ثم كشفهم . . ولذلك كان لابد من ضربهم على رؤوسهم ليفيقوا أو ليتنبه الشعب أيضا !

والحقيقة أن الرئيس حسنى مبارك لادخل له فى كل الذى كتبت . . لاسألته ولا أطلعته على شىء قبل أن أكتب .. والرئيس مبارك صادق حين يتحدث عن حرية الصحافة . لاشك فى ذلك . لاتدخل ولايتدخل ولايحاسب أحدا عن الذى قال . حتى إذا ضاق بما كتبه فلان فإنه يقول لى ، ولابد يقول لغيرى أيضا . فلان هذا ليس منصفا . ولا هو عادل فى الذى كتب . ولكنه حر . ولن أراجعه . . وأنت لاتقل له شيئا على لسانى !

هذا أقصى ما يقوله الرئيس مبارك !

وفى يوم كنت أتناول العشاء فى بيت د . خيرى السمره عميد كلية الطب فجاءنى د . يحيى الجمل . وقال لى : الناصريون تضايقوا من الذى كتبت . وقالوا لابد أن نذهب إليه ونقتله . . ولكنى منعتهم !

ولكنهم جاءوا بسيارة محملة ومدفوع لها فلوس أصحاب الملايين أولاد عبد الناصر . وأطلقوا الرصاص على البيت . . وهددوا الحراس !

ولم أشأ أن أذكر ذلك للسيد زكى بدر وزير الداخلية . .

وفى مؤتمر صحفى للرئيس حسنى مبارك ، حضره ثلاثمائة من الاعلاميين . وقبل أن يجلس على المنصة تساءل :

أين أنيس منصور ؟

فرفعت يدى قائلا : أيوه ياريس

قال : يا أنيس . . أرجوك . . فى عرضك . . كفاية المقالات عن عبد الناصر . . إنها تسبب لى صداعا . . كفى . . فكل رئيس له أخطاؤه . . كفى !

قلت : حاضر ياريس . . ولكنى انتهيت منها . . وبدأت سلسلة أخرى .

قال الرئيس : كفاية بقى !

وجلس الرئيس وجلست . .

ثم عاد يقول : للأمانة . . أنا كلمت أنيس فى بيته مرتين . . وتناقشنا . . ولكنه لم يستجب !

***

وفى مصعد نادى التحرير التقيت بالدكتور رفعت المحجوب . فقد كنا على موعد للعشاء مع الرئيس الأمريكى كارتر بدعوة من د . أسامة الباز . وبادرنى د . المحجوب : ياأخى المقالات التى كتبتها عن عبد الناصر لها أثر سيء جدا على الناس . . كثير منهم تحول عن الحزب الوطنى إلى حزب الوفد . . وأنت السبب !

فقلت : ولماذا لاتكون أنت السبب ؟ !

وضحكنا . ثم عاد د . المحجوب واستأنف هذه المناقشة على مسمع من الأساتذة أحمد بهاء الدين وأسامة الباز ومصطفى الفقى . .

ونشرت صحيفة « الوفد » فى صفحتها الأولى نص هذا اللقاء والحوار . واضافت أن حتى فى خطاب د . رفعت المحجوب يوم افتتاح الدورة البرلمانية فقرة قصدنى بها .

واقسم لى د . المحجوب أنه لم يقصدنى مطلقا . .

وقال لى صديق فى المخابرات العامة : إنه ليس صحيحا ما قاله د . رفعت المحجوب ولاحتى الذى قاله د . يحيى الجمل . فشرائح كثيرة من الرأى العام ، أدهشتها المقالات وأذهلتها . . وأفاق كثيرون من نوم كاذب . . وانهارت الأسطورة !

***

والذين وصفوا جمال عبد الناصر بأنه يهودى الأصل ، أظنهم يقصدون أنه أدى لاسرائيل خدمة جليلة عندما أعطاهم سيناء وقناة السويس والجولان والقدس والضفة وغزة . . ولو عاش جمال عبد الناصر لطالب اليهود بحقهم فى أرض « جوشن » التى جاءت فى التوراة ـ محافظة الشرقية ؟ !

والنكتة التى تقول إن اليهود قد أقاموا لعبد الناصر تماثيل فى كل مكان ، مقصود بها أنه أدخلهم مصر من أوسع الأبواب . . فاستحق التمجيد والتعظيم !

وكان المرحوم كامل الشناوى اقترح على الصحفى الكبير محمود أبو الفتح صاحب جريدة « المصرى » التى أغلقها عبد الناصر أن يقيم تمثالا فى كل أركان جريدة المصرى للأستاذ أنطون الجميل رئيس تحرير الأهرام . . لماذا ؟

لأنه بسبب جمود الأهرام فى ذلك الوقت ، انتعشت جريدة المصرى وانطلقت صحافة مصرية حديثة !

***

وسوف تنحسر موجة السخط على الرئيس جمال عبد الناصر وفى نفس الوقت نقوم بانصاف الرئيس أنور السادات لقاء الانجازات العظيمة التى حققها لبلاده : طرد الخبراء السوفيت وتصفية مراكز قوى الناصرية والانتصار فى حرب أكتوبر

وفتح قناة السويس والأحزاب ومعاش السادات والتأمينات الاجتماعية وانسحاب اسرائيل والسلام معها والانفتاح الاقتصادى وحرية الصحافة وقطع رجل زائر الفجر . .

وفى نفس الوقت يأخذ كل زعيم حقه وحجمه . . وسوف تكون الأجيال القادمة أكثر تسامحا . . وأكثر انشغالا بمستقبلها . . ولن تعيش ماضيها خصما من حاضرها . .

ولن يمضى وقت طويل حتى ينزل الستار عن « العبث » السياسى . . والعبث التاريخى . . والعبث المسرحى أيضا ـ وذلك بأن يعود المعنى إلى الكلمات والحركات . . ويعود المعنى إلى الاشارات والرموز . . ويعود الغطاء الذهبى لكل العملات والمعاملات . .

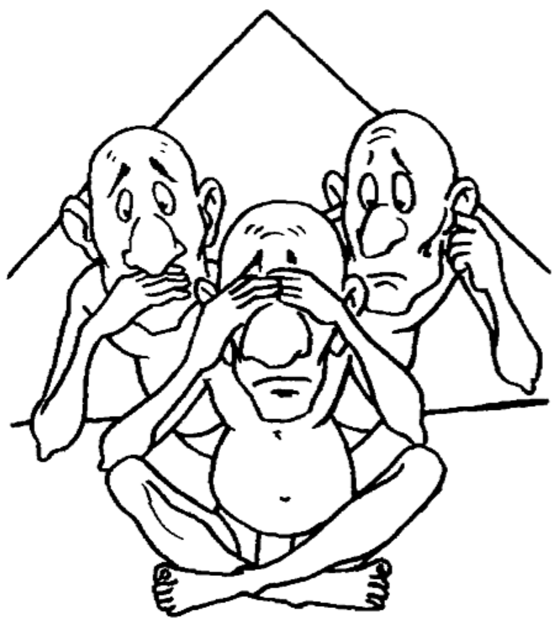
ويذهب الحكام وتبقى آثارهم على وجه مصر . . وتبقى مصر . ولن ترحم مصر ، فى أى وقت ، هؤلاء الذين رأوا وما نطقوا ، والذين قطعوا أصابعهم حتى لايمسكوا اقلامهم ويقولوا كلمة الحق . . مهما كانت أليمة . . موجعة ، لهم أو لغيرهم .

والله على ما أقول شهيد !

أنيس منصور

حدث في مثل هذا اليوم
من ٢٥ عاماً!

اخرج ولا تعد بأمر الرئيس!



اخرج ولا تعد بأمر الرئيس!

لا أزال أقول « عندنا » فى أخبار اليوم — رغم اننى تركت العمل بها من عشر سنوات رئيسا لدار المعارف ومجلة أكتوبر .. ولكن لأننى أمضيت بها ٢٤ عاما محررا وعضو مجلس ادارة ورئيسا لتحرير مجلات : الجيل وهى وآخر ساعة ، فلم تنقطع صلتى العاطفية بها والعاملين فيها .. فعندنا فى أخبار اليوم رأينا عجائب المخلوقات وغرائب العادات بعد تأميم الصحافة سنة ١٩٦١ .. رأينا الوزراء والمديرين والسكرتيرين والسعادة لهم القـدرة جميعا على عمل أى شىء لأى أحد فى أى وقت .. يكفى أن نتذكر أن احـد رجال الأمن بدرجة صول كان يستطيع أن يحذف ويضيف لأى مقال لأى كاتب ابتداء من الأستاذ محمد التابعى وانتهاء بصحفى تخرج لتوه فى الجامعة. حدث وقراره نهائى . وفى أخبار اليوم من عايش هذه الفترة السـوداء فى تاريخ الصحافة فى مصر . وجاء أخبار اليوم عن طريق المخابرات صحفيون اجانب يعلموننا كيف نحب مصر ونحتقر أنفسنا ، ونكره الصحافة ، وتهون علينا أخبار اليوم وكرامة الانسان .

لا يعرف الصحفيون الشـبان من هـو « الرقيب » — ولا يعرفون بالضبط ما هى مهمة هذا الرقيب .. وقداختلفت التعريفات لهذا الموظف سىء

السمعة ، فهو شخص غلبان يجىء غالبا من وزارة التموين ، ليضاعف دخله .. اى انها خدمة له . ويجلس فى صالة التحرير وتتكدس عنده كل مواد التحرير : اعلانات ووفيات وأخبار وموضوعات وصور ومقالات .. يقرأ ويحذف ويصحح ويقرأ ويحذف . ولا يقبل المناقشة . فاذا ناقشناه وطال النقاش هدد بمنع الصحيفة من الصدور . ويملك ذلك !

فهو « غربال » واسع الفتحات وأحيانا ضيق الفتحات .. وأحيانا غربال مسدود يرفض السماح بأى شىء .. وهى قصة طويلة ، ولابد أن تشغل من تاريخ الصحافة فصولا كثيرة ، وضحايا أكثر ..

أما علاقته بوزارة التموين — فالله أعلم — ربما كان الشبه هو ان الصحفيين باعة سريحة .. او أنه لا فرق بين الطماطم والمقالات .. وبين المناقشات والنداء الصارخ على الخيار والباذنجان. .أو أنهاهانة للصحفيين: فمن يظنون انفسهم .. فأى موظف جاهل بالقراءة والكتابة فى استطاعته أن يمسح بهم بلاط صاحبة الجلالة — الصحافة — ان كانت لها جلالة !

ويوم اجتمع الرئيس جمال عبد الناصر برؤساء تحرير الصحف . ذهبنا وجلسنا نتوارى بعضنا فى بعض كأننا مجموعة من المجرمين . وجريمتنا أننا نرفض الهوان ولكن لا نملك أن ندفعه عنا . ومن الذى يملك أو يجاهر بذلك ؟ لقد كان الهمس اعلى درجات الثورة وكان الدعاء الى الله أن تنفتح الأرض وتبتلع السيد الرئيس والذين حوله من زبانية الحكم والثورة . وسألنا الرئيس عبد الناصر ان كنا نضيق بالرقابة فهو على استعداد لأن يرفعها فورا — اى ان كنا لا نحب الرقابة فليكن نحن الرقباء . نحذف ونترك ما نريد .. اى نروح فى داهية .. وتكون الداهية من اللون والحجم الذى يعجبنا ، لأنه لا تعليمات لدينا .. ولا نعرف ماذا يريد أو ماذا لا يريد . وتعالت الأصوات : ربنا يخليك يا ريس دع الرقابة والرقيب !

واسعده أن يرى التوسل فى عيون رؤساء التحرير ، وضايقه أنهم كشفوا المقلب الذى دبره لهم .. فأعاد علينا أن كنا نريد الرقابة او لا نريدها. وكان الجواب : بل نريدها ونموت فى سبيلها !

وأذكر أن العدد الأول من مجلة « الجيل » بعد تأميم الصحافة ، كان لفتاة ارتدت « العفريته » ووقفت أمام احدى الآلات. الفتاة دميمة ، والملابس قبيحة والألوان تعيسة !

وتضايق الرئيس جمال عبد الناصر من أن يكون هذا هو المجتمع الذى اظهره التأميم والرقابة على الصحف !

وكانت مانشيتات « الأخبار » « وأخبار اليوم » عن الاختراعات الموجودة فى المركز القومى للبحوث : طوب لا يحترق .. وعسل النحل من مصاصة قصب السكر .. والحرير من الياف شجرة القطن .. والأحجار التى لها خاصية المطاط لرصف الشوارع فلا تكون ضوضاء .. وتحديد النسل عن طريق زيت الخروع .. وورق الصحف من ألياف الأرز ومصاصة القصب وعجين الورق القديم .. استخراج الألماس من صخور الفحم بكميات اقتصادية .. كل يوم عناوين من هذا الشكل .

واندهش الرئيس عبد الناصر ، كيف ان العلماء المصريين قد سكتوا عن الاعلان عن هذه الاختراعات العظيمة . وكيف ارتكبت الصحف « مؤامرة الصمت » على العبقرية المصرية .. اذن لقد كان على حق لأنه أمم الصحف، فكشف بذلك الوجه الحقيقى لمصر الذى أخفاه أولاد أمين — مصطفى وعلى — وتلامذتهما .. اذن لم يكن من حق الدولة فقط أن تؤمم الصحف وغيرها من الصناعات الوطنية ، بل كان من الواجب ان تعجل بذلك من اليوم الأول لثورة يوليو سنة ١٩٥٢ .. والصدفة فقط هى التى جعلتنى اكتشف مصدر هذه الاختراعات .. فقد كان يعمل معى فى مجلة « الجيل » الزميل صلاح درويش .. وهو الذى كان يكتب هذه الخبطات الصحفية كل يوم .

وسألته : من اين لك كل هذا ؟

فأشار الى « مشروعات » أبحاث علماء المركز القومى للبحوث .. مشروعات .. آمال .. أحلام العلماء المصريين . ولكن شيئا من كل ذلك لم يتحقق . انه ما يزال فى مرحلة الخيال العلمى ؟ !

وتوقفت أساطير العلماء المصريين ..

وتساءل الرئيس جمال عبد الناصر : ما الذى أوقف سيل الاختراعات المصرية ؟ وما الذى فعله أولاد أمين ؟

لا أعرف ما الذى قيل . فليس فى الامكان أسوأ مما كان ..

ولكن قيل انه غضب من جديد . وقال : انهم فى اخبار اليوم يريدون أن يقولوا انهم يستطيعون أن يكتشفوا الوجه الحقيقى لمصر والوجه المزيف .. وأنه لا يستطيع لهم شيئا ..

وفى ذلك الوقت كان الرئيس جمال عبد الناصر يعتز بعبارة مشهورة له وهى : ان أشتراكيتنا نابعة من ذاتنا !

اى انها اشتراكية جديدة لا هى روسية ولا هى صينية ولا هى أمريكية يوغوسلافية .. وبحثت أنا فى قاموس العلوم السياسية ودائرة معارف العلوم الاجتماعية بحثا عن حرف النون الموجود فى كلمة « اشتراكيتنا » أو فى « نابعة » أو فى « ذاتنا » فلم اجد لهذه الاشتراكية اى وجود .. ولكن ما دام الرئيس قد قال انها نابعة من ذاتنا ، فمن الواجب ان تكون كذلك .. وان تكون اخبار اليوم احدى محطات التشويش على الاشتراكية : انظر ماذا نشرت مجلة الجيل وماذا نشرت الأخبار فى صفحاتها الأولى ؟

اذن هى نابعة من ذاتنا مثل العرق والسعال واشياء أخرى ، خرجت منا ويجب أن نيسر لها الخروج الى الوجود — هذا قرار . وواجب خبراء الماركسية الذين تسلطنوا فى اخبار اليوم ان يشيعوا هذه المعانى فى الشعب — فلا افلح ولا افلحوا !

فى هذا الجو المريب الرهيب فى اخبار اليوم عشنا لا نعرف لنا راسا ولا قدما ولا طريقا ولا هدفا ، ولكن كان لدينا شعور مؤكد اننا وحدنا القادرون على ان نعمل نتبقى صحف اخبار اليوم على قيد الحياة .. اى اننا اصحاب التجربة والخبرة والموهبة .. اما هؤلاء التتار من وزراء ومديرين فمثل كل الغزاة الذين دخلوا مصر ولم يخرجوا .. فكما كانت مصر مقبرة الغزاة فأخبار اليوم ايضا .

دعانى أو استدعانى السيد على اسماعيل الامبابى ، مدير مكتب الوزير كمال رفعت المشرف على اخبار اليوم . وهذا الاستدعاء حدث مرموق، يرويه عامل الأسانسير والساعى الواقف امام مكتبى وامام مكتبه . وفرصة ليعرف العاملون فى اخبار اليوم نوع اللقاء من النظر الى وجهى ذهابا وايابا .. واكون أو يجب ان اكون ضاحكا ، لاعطى انطباعا انه لقاء ودى وان نتائجه مثمرة . وقد ناقشنا الأوضاع بكل تفاصيلها وان نتائج هذا اللقاء سوف تظهر قريبا — كما يقول وزراء الخارجية عادة — ويكون كلامهم لا معنى له . لأنه كليشيه واحد يجىء قبل وبعد اى لقاء من هذا النوع .

— تشرب ايه ؟ — سألنى فقلت متبسطا معه :

— ما تشربه أنت ؟

— لا .. مثلك لابد أن يشرب شيئا خاصا . فليس لقائى بك فى كل يوم .. اذن ما رايك فى القرفة بالجنزبيل . انها احسن شراب للبرد وانت خائف من البرد .. ولولا انك وحشتنى ما طلبت أن اراك ، وأنا مزكوم كما ترى ..

اذن هو مزكوم ، وأنا سوف أصبح مزكوما ولكن « الوحشة » والشوق اقوى من أن يقاومه . لهذه الدرجة ؟ نعم لهذه الدرجة انه هو الذى يقول . ولم أرغمه على ذلك ، ولا هو مضطر الى مجاملتى !

وتكلمنا فى كل شىء .. فى تخلف كل الصحف وتقدم صحف اخبار اليوم .. وفى لعن اجداد المحررين المنافقين الذين ينقلون انيه أخبار السخط والغضب فى صحف أخبار اليوم .. وينقلون اليه ما قاله مصطفى امين وعلى أمين وغيرهما .. وأصدقاؤنا أم كلثوم وعبد الوهاب وعبد الحليم حافظ وكمال الطويل وعثمان العبد وقاسم فرحات . وما يقوله غيرهم من الساخطين على ما أصاب أخبار اليوم .. وما أقوله انا من عبارات ساخرة من الوزير والمدير والسكرتير .

وقبل أن أبدى دهشتى أو اناقش او اعترض يكون كلام السيد على اسماعيل الامبابى : طبيعى أن تغضب لما أصاب الدار .. ولكننا لسنا بهذا السوء ولا بهذا الجهل . ثم اننا ننفذ الأوامر الصادرة الينا . لا راى لنا فى شىء .. أفعل هذا .. تمام يا افندم .. فقط .. فنحن عبد المأمور !

ولم تأت القرفة ..

ودخل محررون كثيرون وسلموا بحرارة عليه وصافحونى ايضا .. وهم يتصورون أننى رجل السلطة .. السلطة السابقة والسلطة الحالية .. قوى فى كل العصور !.

ولم تأت القرفة ، وقد مضت نصف ساعة .. وثلاثة ارباع الساعة ..

ودق الأستاذ الامبابى الجرس ليقول للساعى : لا مفر .. هات للأستاذ يانسون .. تحب اليانسون باللبن .. أو سادة .. هات يانسون سادة .. بارد حتى لا ترتفع درجة حرارته فاذا خرج اصابه الزكام .. اظن معلوماتى الطبية صحيحة .. أنا تلميذك المخلص ..

وبسرعة جاء اليانسون باردا !.

وشربت اليانسون . وشكرته ومددت يدى اصافحه . فوقف لتحيتى وقبل أن أغادر المكتب الذى كان يجلس اليه مصـــطفى أمين قال لى : على البيت .. تخرج من هنا الى البيت .. فقد صدر قرار بوقفك عن العمل .. ولا أعرف لمـــاذا ؟.

كان ذلك يوم ٢٧ ديسمبر ١٩٦١ ..

وقبل أن أخرج الى الشـــارع جاء بعض الزملاء يفسرون لى ما لم اكن اعرف :

انها صورة للرئيس جمال عبد الناصر جاءت فى مقالك وانت تتحدث عن الطاغية نيرون ..

انها صورة لحمار جاء فى المقال .. ولا علاقة للحمار وما جاء فى المقال ، ولكن لابد انك قصدت شيئا يفهمه القارىء ..

ولكن الذى يضع الصور أو الرسومات سكرتير التحرير ولست انا .. وكان الرد : ولكن لابد انك رايت المقال قبل النشر ولاحظت وجود هـــذه الرسومات التى تهمز وتلمز ووافقت على بقائها ..

ولكن لمـــاذا لم يحذفها الرقيب ؟

ويكون الجواب من الزملاء : ليس اسهل من ان يقول أنهم وضـــعوا له صورة اوزة او بطة أو نسر .. ثم وضعوا الحمار بعد ذلك !.

وليس واضحا ما الذى فعلته بعد ذلك مباشرة .

اتصلت بالأستاذ محمد حسنين هيكل فى بيته . وقلت له ما حدث . وكانت مفاجأة له .. وطلب منى أن القاه فى مكتبه بعد ذلك .

ووجدت ان مصطفى امين وعلى امين يعرفان ما حدث . ولكن ليست لديهما أسباب واضحة . ولابد أن يكون السبب شيئا كتبته أو لا داعى لان يكون هناك سبب واضح . فقد كنت اقرب الى مصطفى وعلى امين من كثير من المحررين . وأن قرار الوقف عن العمل ، جزء من سياسة ابعاد مصطفى امين وعلى امين عن اخبار اليوم وهدمها على رأس العاملين فيها .

وبعد ذلك عرفت السبب . فقد كتبت مقالا بعنـــوان « حمار الشـــيخ عبد السلام » .. وفى المقال غمز ولمز وايماءات واسقاطات واضحة ـــ فقد

كانت صورة لأعماقى الغاضبة الساخطة على الذى أصابنا جميعا.وفى الصباح الباكر وضع السيد على صبرى مدير مكتب الرئيس صورة من المقـال ومعه هذه العبارة : فى انتظار أوامركم !

وكان الرئيس عبد الناصر فى طريقه الى الجزائر ، وليس فى حاجة الى وجع دماغ . ولابد أنه كان سعيدا بهذه الرحلة فى البحر الى الجزائر .. ولابد أنه كان راضيا عن الصورة التى يراها فى المرآة : مشرق الوجه لامع العينين .. حاد الأنف يضغط على شفتيه فى كبرياء وقرف .. ولابد أن لون الكرافته « السولكا » ــ فلم يكن يعرف الا هذا الصنف من الكارفتات ــ قد أعجبته .. ولذلك اكتفى سيادته بأن أشار بيده الى على صبرى .. ومضى ينظـر الى الكرافته .. ولما لاحـظ ان عددا كبيرا من الوزراء والسكرتارية يلبسون السولكا ، فقد مد يده الى الدولاب واختار كرافته « أرجانس » ــ آخـر ما عرف الرئيس من أنواع الكرافتات الأمريكية والفرنسية ..

واكتفى السيد على صبرى بترجمة اشارة السيد الرئيس على انه : بلاش وجع دماغ .. فلم يقل : اسجنه .. أو اعتقله فى الواحات .. أو فى السجن الحربى .. أو سجن المخابرات ..

وفى يوم راس السنة الميلادية صدر قرار بفصلى مـع الأسـتاذ جلال الدين الحمامصى فى ورقة واحدة ولأسباب مختلفة ..

وفى ليلة رأس السنة ذهبت الى بيت على امين ، بالحاح شديد منه .. ومن زوجته الزميلة خيرية خيرى . وكان من رأى على امين : ولا يهمك .. فغدا يوم آخر .. وكل هذه اشياء سوف تنتهى .. ويجب ان افرح بالمشاكل والمصائب ، لأننى سوف اكتب عن ذلك .. فالرئيس عبد الناصر يستحق الشكر لأنه اختار لى موضوعات لكتب سوف أنشرها بعد ذلك .. وسوف يذهب ونبقى نحن .. صدقنى !.

وقـد قابلنى على أمين بحـرارة وعنـاق وقبـلات كان شـيئا لم يحدث . ولم أكن أصدق الذى اراه . فهو يريد رفع معنوياتى ومعنوياته هو أيضا . ولا أعرف كيف مضت تلك الليلة السوداء فى بيت على أمين فى عمارة « ليبـون » بالزمالك ..

ولم تكن سوداء .. ولكن بسرعة غريبة حل سواد الليلة عندما وجدت الأستاذ حسن جلال العروسى وكان مديرا لمكتب مؤسسة فرانكلين الأمريكية للنشر . وهو رجل لطيف ظريف مجامل . وقد نشرت فى هذه المؤسسة عددا من الكتب .. احدها بالاشتراك مع استاذنا د. طه حسين « عن الأدب الأمريكى » وكان من نصيبى أن أكتب عن المسرح الأمريكى . .وفى ذلك الوقت كلفنى طه حسين بأن اترجم احدى مسرحيات شكسبير .. كما اننى ترجمت عددا من المسرحيات الأمريكية وقدمت لها ايضا : مسرحيات زوجة كريج .. ونفدنا بجلدنا .. وذات الرداء الفضى .. وترجمت عددا من القصص القصيرة بعنوان : هذه الصغيرة وقصص اخرى .. وكنت اعمل فى نفس الوقت فى ترجمة ثلاثة كتب عن الفلسفة المعاصرة .

والصلة بيننا قوية .. وكان نائبه وأخو زوجته الأستاذ رياض اباظة ، من أعز أصدقائى .. اذن هى صلة قوية متينة .

وفى تلك الليلة والكأس فى يده وجدته سحب يده قبل ان يصافحنى قائلا : لا تؤاخذنى لا أستطيع ان أتعامل معك .. أنت تعرف .. وانا رجل اعمال .. مدير مؤسسة أمريكية ولا اريد مشاكل مع الحكومة .. فأرجو انهاء كل ما بيننـــا ... الخ .

ولم يعرف على امين ما حدث ..

وفى اليوم التالى ذهبت الى محل « البن البرازيلى » وقد اعتدت أن اتردد عليه مرتين وثلاثا كل يوم .. اشرب القهوة باللبن وامسح حذائى ، وأقف أمامه مع أصدقاء كثيرين : عبد الحميد الحديدى الذى صار رئيســـا للاذاعة . وموريس جنـــدى مدير وكالة الصحافة المتحـــدة والأديب فتحى ابو الفضل والمنتج السينمائى عدلى المولد وعدلى يواقيم صاحب سينما الجزيرة واميل لبيب من رجال الأعمال وكان وقتها يعمل فى السفارة البريطانية وحسين شوقى ابن امير الشعراء احمد شوقى وكمال الملاخ .

وقد كتبت عن محل « البن البرازيلى » هذا مئات المرات . ولو جمعت الذى كتبته عن هذا المحل وكيف كنا وماذا قلنا وكيف تولدت الأفكار فى بخار البن ، لكان كتابا فى الف صفحة . وسوف افعل ..

وكانت المفاجأة الثانية قال لى الأستاذ الحديدى : لا استطيع الآن ان اذيع لك شيئا . لا مقالا ولا قصصا .. اعذرنى !

واندهشت . فلم أكن اتعامل كثيرا مع الاذاعة ولا كنت اتهجم على الميكروفون وأرغم الاذاعة على الاستماع الى قصصى ومقالاتى . لا شىء من ذلك . ولم أفلح فى أن افهم ما الذى دفع صديقى الحديدى الى اتخاذ هذا الموقف تطوعا منه .. أنه ــ اذن ــ الخوف .. ولابد أنه سوف يخاف أن نقف معا أمام البن البرازيلى .. أو يخاف ان رآه احد معى .. اننى مختلف مع رئيس الجمهورية وليس مع وزير من الوزراء .. اذن انا ضد الدولة ، وكل من له صلة بى ، سوف يوصم بهذه التهمة !

ووجدت نفسى مشكلة لعلى أمين او تلميذا صغيرا فى مدرســة أنشأها خصيصا لى . وفى اليوم الأول قال لى : ولا يهمك !

كيف ؟ لا أعرف !

وقال : فى استطاعتك أن تشغل نفسك بأن تتعلم شيئا جديدا .

ونهضت زوجته السيدة خيرية خيرى ، وقدمت لى « آلة كاتبــة » لكى أتعلم الكتابة .

ولاحظت ان اناسا لم أكن أعرفهم طويلا ، يفضلون مقابلتى فى الشارع أو فى البن البرازيلى او النادى الثقافى بجاردن سيتى يطلبون ان نلتقى وأن نتغدى أو نتعشى معا .. ثم يعرضون أن أشترك معهم فى الترجمة او فى أعمال ادارية ، ولم يكن من الصعب أن أعرف أن على أمين هو الذى بعث بهم ..

ولم أكن قادرا ، بهذه السهولة ، على ان اتغلب على المشاعر الغريبة التى أصابتنى .. والتى شلت تفكيرى وارادتى .. فالموقف جديد على عقلى وعلى نفسى وعلى علاقاتى بالناس .. ولم اتهيأ لذلك .. ولست قادرا ان أواجه كل هذه المشاعر الجديدة ببساطة على أمين ، او عناد مصطفى أمين او حكمة محمد حسنين هيكل ، ولم ألاحظ قط ان مصطفى امين قد شــكا وبكى .. ولكن لديه شعورا غريبا بأنه قوى وانه سوف يبقى ، وأنه يستمد قوته من داخله ، لا أعرف كيف أن لديه هذه الموارد الهــائلة من القــوة والاصرار والاستمرار ..

وفى كل ليلة اذهب الى بيت مصطفى امين .. والليل طويل .. وكان مصطفى أمين أعلى الناس ضحكا ومرحا ــ لا أعرف كيف ، أما الذين يترددون كل ليلة يلعبون الكوتشينة « الكومى » فهم عبد الحليم حافظ وكمال الطــويل

وكامل الشناوى وعبد الوهاب وفاتن حمامة وغيرهم كثيرون .. كل ليلة نسهر ونتحدث ونضحك .

فاذا طلع النهار كان طويلا مملا .. فى الصباح اذهب للبن البرازيلى متأخرا حتى لا القى الأصدقاء ، فلا أحرجهم .. وعند الظهيرة اذهب الى « النادى الثقافى » فى جاردن سيتى اتناول غدائى مع زملاء آخرين ينقلون آخر فرمانات الوزير كمال رفعت ومدير مكتبه الامبابى والصول أحمد زكى .. وماذا يقول المحررون وكيف أن بعضهم يلعن مصطفى أمين وعلى أمين ويلعن اليوم الذى دخل فيه اخبار اليوم .

واسأل : فلان ؟

ـ نعم فلان .

ـ فلان ؟ !!

ـ نعم يا أخى فلان !

ـ هذا الصعلوك الذى كان يمسح حذاء مصطفى امين وعلى أمين وحذائى انا ايضا .. هذا ..

ـ نعم .. لا تصدق ؟ ! ما رأيك فى علان ؟

ـ علان ؟ !

ـ نعم علان يا أخى !

ـ يا خبر اسود .. لقد دخل اخبار اليوم بجزمة واحدة وبنطلون من عندى وقميص من عند موسى صبرى وكرافتة من عند احمد رجب . هذا ؟

ـ يقول .. اننا كلفناه بأن يتجسس لنا على الوزير كمال رفعت .. واننا دفعنا له خمسين جنيها .. واننا خصصنا له سيارة ليتابع تحركات الوزير .. هلوسة .. تخريف ..

قال ذلك فى محضر رسمى ؟ وفلانة ؟

ـ هذا القرد العجوز ؟ !

ـ نعم .

ـ ولماذا ؟ ما الذى يضطرها ان تقول ذلك .. انها لا تقدم ولا تؤخر ولن يتحسن وضعها .. لماذا ؟

ــ هل قرأت ما جاء فى « يوميات الأخبار » اليوم ؟

ــ لا . .

ــ اقــرأ . .

ــ اقرأ ماذا ؟

ــ اقرأ الشتيمة فى الأخوين مصطفى أمين وعلى أمين . .

ــ شتيمة فى « الأخبار » بقلم أحد محررى الأخبار ؟ لمــاذا ؟

ــ يا أخى اقرأ . . وعليك أن تفكر لمــاذا ؟ أنت لا تريد أن تقــرأ ولا أن تفكر . . اقرأ لكى تعرف كيف تفجرت السفالة المدخرة لمثــل هذه الظروف . . اقرأ لكى تزداد كفرا بالقراءة والكتابة والناس . !

وفى يوم وانا أقف أمام « البن البرازيلى » جاءنى صديق يونانى صاحب مكتبة وصافحنى بحرارة . وسألته بسرعة : ان كان يعرف على أمين .

ــ لا . . لمــاذا ؟

ــ مجرد سؤال . .

فقد ظننت ان على امين قد بعث به ليخفف عنى هول الصــدمة . او يعرض على أن اتردد على المكتبة لكى اضيع وقتى . .

واعتدت ان اذهب الى مكتبة فى شارع عماد الدين . وفى يوم فوجئت بوالدته تقول لى : ولمــاذا لا تسافر الى اليونان فى الصيف ؟ .

ونظرت اليها لأفهم ان كانت تعرف ماذا جرى . . واكتشفت انهــا لا تعرف . فأخبرتها . وبدا عليها الحزن الشديد . .

وبعد أيام وجدتها ، وكأنها فكرت فى هذا الموضوع طويلا . . وقالت : اذن تهرب من هذا البلد . ممكن . .

ولم اكن قد فكرت فى الهرب . . أو الخروج . . ولا أن هذا هو الحل الوحيد . . ولا ان هذه المحنة لن تمــر . .

وفى مكتب الأستاذ محمد حسنين هيكل رئيس تحرير الاهرام بالمبنى القديم للأهرام بشارع مظلوم قال لى : انت احسن ناقد ادبى فى مصر . . لمــاذا لا تعمــل مستشارا فى دار المعــارف . . بدلا من الأســتاذ عادل الغضــبان ؟ .

وكانت مفاجأة .. وكان محمد حسنين هيكل رقيقا لا يكف عن الضحك . تهوينا لمـا حدث .. وفى نفس الوقت مشيرا الى أن هذه الأزمة سوف تنتهى لا محالة . ولكن ليس الآن ..

ثم اشترط ان اتفرغ لدار المعارف وأن أترك العمل فى « أخبار اليوم » . واعتذرت ..

اذن لابد من ترك اخبار اليوم ، او ترك مصر كلها .. أو ان ابقى كما انا فى حيرة ودوخة وفى حوار دائم مع نفسى .. وعجز عن التكيف مع سهرات مصطفى امين ودروس على امين .. غير قادر على ذلك ، ولا اظن اننى سوف استمر على حالى سعيدا فى الليل ، تعيسا فى النهار .. هاربا من الناس ، ومن الأصدقاء اكثر ، حتى لا اكون سببا فى أية متاعب لهم !!

وفى احدى المرات شكوت للأستاذ محمد حسنين هيكل عن الظروف النفسية التى امر بها .. يجوز هذا الحادث ليس كبيرا ، وانه اهون جدا من السجن او التعذيب .. ولكنى اشعر انه أقسى من ذلك .. ثم رويت له كيف اننى اهرب من الأصدقاء .. وكيف أن بعضهم قد بادرنى بذلك .. واقنعنى الى ضرورة ان ابعد .. حتى لا تكون صداقتى كارثة عليهم .. وحكيت له ما دار بينى وبين عبد الحميد الحديدى وحسن جلال العروسى وآخرين من الزملاء ..

واذكر انه قال لى حكمة تعلقت طويلا فى راسى : فى مثل هذه الظروف لا يصح ان تمتحن اصدقاءك ، سوف يرسبون جميعا ، وعندما تزول هـذه الغمة ، وتبحث عن الأصدقاء فلن تجد منهم واحدا !

اعجبتنى . ولكن وجدت ان يديه فى الماء الدافىء ، وانا اموت من البرد والشك والقلق والفزع .. والقرف — من النوع الوجودى الذى كنت أدرسه للطلبة فى الجامعة وانا لا اعرف مذاقه تماما .

وكما انتهى عملى فى الصحافة ، انتهى فى نفس الوقت فى الجامعـة . لمـاذا ؟ لا اعرف !

الخواجة لامبو وحمار الشيخ عبدالسلام!



الخواجة لامبو وحمار الشيخ عبدالسلام!

كتب توفيق الحكيم فى مقدمة مسرحيته الرائعة « السلطان الحائر » :

كتبت هذه المسرحية فى خريف ١٩٥٩ عندما كنت فى باريس ، اقضى فترة أشهد فيها ما يجرى فى عالم اليوم . ووحى هذه المسرحية ذلك السؤال الذى يقف عالمنا اليوم امامه حائرا : هل حل مشكلات العالم هو فى الاحتكام الى السيف أو الى القانون ؟ فى الالتجـاء الى القوة أو الى المبدأ ؟ ان اصحاب السلطان — ممن يملكون تقرير مصير البشر — يقفون الآن وفى يمناهم القنبلة الذرية وفى يسراهم القانون .. فى جانب القواعد الصاروخية، وفى الجانب الآخر هيئة الأمم .. وهم حائرون خائفون لا يدرون ، أو هم لا يجرؤون على اتخاذ القرار الحاسم : ايهما يطرحون وأيهما يستبقون ؟ أيهما يحتاج الى شجاعة أكبر وايهما يعرضهم الى خطورة افدح .. ان هذا الموقف الحائر الخائف من مسئولية الاختيار النهائى بين السـيف والقانون ، قد جر العالم كله معه ، الى هذه الحيرة الشاملة والاضطراب العام .. وقد وضعت هذه المسرحية فى اطار شرقى قديم . وقد نشرت هذه المسرحية بالفرنسية فى باريس بعنوان : « اخترت » .

* * *

وهذه المسرحية من اجمل واعمق مسرحيات توفيق الحكيم . لأنها كذلك .. لا لأنها كانت سببا فى تشريدى جسميا عاما ونصف عام ، ونفسيا سنوات بعد ذلك .. فأنا لا ابالغ فى قيمتها واهميتها لكى أرضى غرورى فتكون المسرحية « الكارثة » شيئا جليلا ، لا شيئا عاديا .. كما ان الذى كان سببا فى « أزمتى » هو الرئيس عبد الناصر وليس شخصا تافها أو وزيرا مجهولا .. أو هو الوزير الذى كان على رأس اخبار اليوم او مدير مكتبه الذى ليس شيئا ، أو الصول الواقف على بابه وعلى رقابنا ..

وتصـــادف ان تحدثت عن هــذه المسرحية مع الصــديق د. لطفى عبد البديع ، الذى كان زميلى فى صحيفة الأهرام فيما بين ١٩٥٠ و ١٩٥٢.. فقال لى ان لها أصلا فى تاريخ مصر .. فقد حدث فعلا ان احد العلماء قد اكتشف ان مماليك مصر عبيد ، ولذلك لا يحق لهم ان يحكموا الأحرار .. ولابد من بيعهم فى السوق ، وأن يعتقهم من يشتريهم .. وهو حدث فريد فى التــاريخ .

* * *

ووجدت فى كتاب « بدائع الزهور فى وقائع الدهور » لمحمد بن احمد ابن اياس الحنفى .. وباللغة العربية الركيكة قصة قاضى القضاة وسلطان العلماء عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام .

« انه تصدى لبيع امراء الدولة . فلم يثبت عنده انهم احرار ، وانهم تحت الرق ، ولا يجوز لهم التصرف فى المملكة . فلما بلغ الأمراء ذلك حنقوا عليه . فركب نائب السلطنة حصانه ، وبيده سيف مسلول . وجاء الى بيت القاضى ، فلما دق الباب ، خرج اليه ولد العز بن عبد السلام ، فرأى نائب السلطنة واقفا على الباب وبيده سيف مسلول ورجع الى والده العز بن عبد السلام وأعلمه بذلك . فقال الشيخ : يا ولدى انا اقل من ان أقتل فى ســبيل الله .

« ثم ان العز بن عبد السلام خرج اليه فلما وقع بصره على نائب السلطنة ، سقط السيف من يده وارعدت مفاصله فنزل عن فرسه وقبل يد الشيخ . وقال له : ادع لى .

فقال العز بن عبد السلام : لن أرجع حتى ابيعكم فى السوق .

فقال نائب السلطنة : ومن يقبض ثمننا اذا بعتنا ؟

قال : أنا .

قال : وما تصنع به ؟

قال : اصرفه فى مصالح المسلمين .

فما رجع العز بن عبد السلام حتى جمع الأمراء كلهم ونادى عليهم فى السوق . فوكلوا جماعة فى مشتراهم . وباعهم بأغلى الأثمان وقبض ثمنهم ، وصرفه فى مصالح المسلمين . ثم ان القاضى العز بن عبد السلام عزل نفسه عقب ذلك . فتلطف به السلطان فى عودته الى القضاء فلم يوافق » .

ويقول ابن اياس أيضا فى صفات سلطان العلماء العز بن عبد السلام: انه أفتى بشىء ، ثم ظهر له انه اخطأ فى ما أفتى به ، فنادى فى القاهرة : من افتى له ابن عبد السلام بكذا ، فلا يعمل به ، فانه قد اخطأ فى ذلك .

وتوفيق الحكيم فى مسرحيته « السلطان الحائر » لم يذكر اسم السلطان الذى هو الملك الصالح ايوب ولا ذكر اسم القاضى الذى هو العز بن عبد السلام ولا ان هذا قد حدث فى القاهرة سنة ١٢٣٨ .. وجعل السلطان نفسه عبداً لابد من بيعه فى مزاد علنى ولذلك لم يجد توفيق الحكيم نفسه فى حاجة الى أن يذكر اية اسماء .. وانما اكتفى بفلسفة الموقف وهو الصراع الدموى التاريخى بين القوة والقانون .

ووجدت الأديب الشاعر المؤرخ اللغوى الكبير مصطفى صادق الرافعى قد تناول هذه الحادثة العجيبة فى كتابه « وحى القلم » الجزء الثالث ، قال: « وفكر الشيخ فهداه تفكيره الى أن هؤلاء الأمراء مماليك ، ويجب شرعا بيعهم كما يباع الرقيق . وبلغهم ذلك فجزعوا له وعظم الخطب عليهم . ثم احتدم الأمراء وأيقنوا انهم بازاء الشرع لا بازاء القاضى ابن عبد السلام . وافتى الشيخ انه لا يصح لهم بيع ولا شراء ولا زواج ولا طلاق ولا معاملة، وانه لا يصح لهم شىء من هذا حتى يباعوا ويحصل عتقهم بطريق شرعى ! ورفعوا الأمر الى السلطان . فأرسل اليه فلم يتحول عن رأيه وحكمه . واستشنع السلطان فعله ، وحنق عليه وانكر منه دخوله فيما لا يعنيه .

« فغضب الشيخ ولم يبال بالسلطان . وأزمع الهجرة من مصر .

فاشترى حميرا واركب اهله وولده ومشى هو خلفهم يريد الخروج الى الشام. ففزع الناس وتبعوه لا يتخلف منهم رجل ولا امرأة ولا صبى . وصار منهم العلماء والصلحاء والتجار .. كأن خـــروجه خـــروج نبى من بين المؤمنين به .. فقيل للسلطان : ان ذهب هذا الرجل ذهب ملكك !

« فارتاع السلطان فركب بنفسه ولحق بالشيخ يترضاه ويستدفع به غضب الأمة . وقد ايقن السلطان ان ابن عبد السلام ليس رجل الدينار والدرهم والعيش والجاه . ورجع الشيخ وامر أن يعقد المجلس ويجمـــع الأمراء وينادى عليهم للمساومة فى بيعهم ، وضرب لذلك اجلا بعد أن يكون الأمر قد علمه كل الناس ، ليتهيأ من يتهيأ لشراء هذا الرقيق الغالى .

« وكان من الأمراء المماليك نائب السلطنة ، فبعث الى الشيخ يلاطفه ويسترضيه ، فلم يعبأ الشيخ به ، فهاج نائب السلطنة : كيف يبيعنا هذا الشيخ وينادى علينا ، وينزلنا منزلة العبيد ويفسد محلنا بين الناس ويبتذل اقدارنا ونحن ملوك الأرض ؟

« ثم ركب النائب فى عسكره وجاء الى دار الشيخ واستل ســـيفه وطرق الباب فخرج ابنه عبد اللطيف وراى ما راى ، فانقلب الى ابيه وقال له : انج بنفسك ، انه الموت ، وانه السيف وانه وانه ..

« فما اكترث الشيخ لذلك ولا جزع ولا تغير بل قال له : يا ولدى .. ابوك أقل من أن يقتل فى سبيل الله ..

وخرج لا يعرف الحياة ولا الموت . ونظر الى نائب السلطنة وفى يده السيف ، فانطلقت أشعة عينيه فى اعصاب هذه اليد فيبست ووقع السيف منها . واخذ نائب السلطنة يبكى ويسأل الشيخ أن يدعـــو له . ثم قال : يا سيدى ما تصنع بنـــا ؟

قال الشيخ : انادى عليكم وأبيعكم .

— وفيم تصرف ثمننا ؟

— فى مصالح المسلمين .

— ومن يقبضه ؟

— انا .

« وكأن الشرع هو الذى يقول بلسان الشيخ عبد السلام .. وتم للشيخ ما أراد . ونادى على الأمراء واحدا وحدا . واشتط فى ثمنهم . لايبيع الواحد منهم حتى يبلغ الثمن آخر مايبلغ . وكان كل أمير قد أعد من شيعته جماعة يساومون ليشتروه .

« ودفع الظلم والطغيان والتكبر على الناس بهذه الكلمة التى اعلنها الشرع : أمراء للبيع .. أمراء للبيع » .

* * *

هذه هى المادة الأولية .. هذا هو القماش الذى صنع منه توفيق الحكيم ملابس انيقة للسلطان والقاضى والعبيد والمومس التى رسا عليها المزاد فاشترت السلطان وفى هذه المسرحية كل براعة وذكاء وخفة دم توفيق الحكيم وقرفه من السلطان ويأسه من ان يتحقق العدل بين الناس .. ففى استطاعة أية امرأة ذكية أو رجل أن يمسح بالسلطنة والعدل أرض النفاق .. أما المؤرخ الساذج ابن اياس فقد سجل الحدث ، دون ان يلتفت الى معانيه العميقة .. وانما أورده وتركه ليبحث عن نكت أخرى فى تاريخ سلطان العلماء .

أما مصطفى صادق الرافعى فقد ادرك الحدث واحس بالمعنى . ولكنه لم يذهب الى أبعد من بلاغة الحوار والى شجاعة سلطان العلماء ابن عبد السلام الذى هو صورة للقانون والشرع ، وكيف انه بايمانه وشجاعته استطاع أن يهز السيف وان يسقطه .. فلا خوف من السلطان وانما الخوف من الله .

هذه هى العناصر التى أبدع منها توفيق الحكيم اجمل مسرحياته وأعمقها واكثرها طموحا . قرأتها واعجبت بها . واعدت قراءتها . تركت المسرحية كثيرا لكى أصفق للمؤلف العظيم الذى يلعب بالفلسفة والدين والسلطة — بالملك وقاضى القضاة والمؤذن والجلاد والغانية التى هى أقوى وأعمق وامتع شخصيات المسرحية .. والتى رسا عليها المزاد فاشترت السلطان وأعتقته عند اذان الفجر !

* * *

وعندما اعود الى تلك الأيام ، واسترجع ما الذى بهرنى فى هذه المسرحية ، ولماذا سارعت بالكتابة عنها اجدنى كنت سعيدا اننى عندما

قرأتها وكتبت عنها .. واننى اهتديت الى الأسماء الحقيقية لأبطال المسرحية . أما المعنى الذى أراده الحكيم فهو الذى التقطته بسرعة .

ان كان يريد أن يقول ان السلطان ــ سلطان زماننا ــ حائر فانا أردت ان اقول بل هو جائر ــ بالجيم وليس بالحاء .

وان كان يريد أن يقول انه لا أمل مع هذا السلطان ، فقد كان اهتمامى عظيما بأن قاضى القضاة قد كفر بمصر وبالسلطان وبالقانون وبانه خرج من مصر هو وزوجته وأولاده .

وفى الأصل التاريخى انه لم يخرج ، وانما قبل أن يخرج استرضاه السلطان واعاده الى عرش القضاء .. ولكنى عندما كتبت عن العز بن عبد السلام ، اخترت لمقالى « حوارا » طويلا بين ابن عبد السلام وبين احد المماليك وبين ابنه أيضا .

وانتهى الحوار فى مقالى بهذه العبارة :

لقد وقف العز بن عبد السلام على حدود مصر .. هو بالنيابة عن العلماء ، والحمار بالنيابة عن الشعب !

ولا أظن أن الغضب على المقال كان بسبب اهانة العلماء فقد ضرب السنهورى بالجزمة .. ولا بوصف شعب مصر بأنهم من الحمير .. ولكن أن يكون هو رئيسا لدولة من الحمير . وهو الذى قال ان الشعب هو المعلم .. وانه تعلم كثيرا من الشعب الذى كان يضربه فلا يقول آه ، ويسحقه فلا يفتح فمه .

ولكن لابد أن يكون لدى الرئيس عبد الناصر طموح أدبى أيضا .. فانه لم يفلح فى اكمال رواية كتبها ، واجريت مسابقات لمن يكملها من بعده. فهو صاحب رواية ناقصة .

وفى الموسيقى سيمفونية ناقصة .

وفى النحت تمثال فينوس الناقص أيضا .

وفى كتابه فلسفة الثورة تحدث عن « رواية » اسمها « ست شخصيات تبحث عن مؤلف « للأديب الايطالى بيراندللو . وانه وصف نفسه وزملاءه

من الضباط الاحرار كشخصـيات تبحث عن مؤلف يصـنع لها أفكارها وحوارها يدفعها الى مسرح الأحداث ـ وترجمت فلسفة الثورة الى كل اللغات وفيها هذه الغلطة الفنية الشنيعة . « فست شخصيات تبحث عن مؤلف » ليست رواية وانما هى مسرحية .

والمرة الثالثة التى دخل فيها تاريخ الأدب ، انه ابدى اعجابه برواية توفيق الحكيم التى اسمها « عودة الروح » . وقال انه تعلم منها كما تعلم من الشعب . فالرئيس عبد الناصر له أستاذان : الحكيم والشعب .

ثم وهذه المرة ايضا عندما فصل كاتبا بسبب تعليق له على احدى مسرحيات توفيق الحكيم .

وعندما ذهب المرحوم يوسف السباعى يعرض على الرئيس عبدالناصر سنة ١٩٦٣ أسماء الفائزين بجوائز الدولة ، قبل أن يوزعهـا الرئيس علينـا سـأله :

وهل أنيس منصور هذا هو الكاتب الشيوعى ؟

فأجاب السباعى : سيادتك تقصد عبد العظيم انيس .

وضحك يوسف السباعى قائلا : انيس منصور ده الذى وقع من فوق حمار الشيخ عبد السـلام !

ويوم حصلت على جائزة الدولة ، كنا فى قاعة الاحتفالات الكبرى بجامعة القاهرة . ونودى على اسمى : انيس محمد منصور .. وكان يجلس بين الوزراء صديقى د. قدرى طوقان وزير خارجية الأردن ، وقـد دعته مصر لتمنحه جائزة الدولة التقـديرية امتنانا لخدماته القوميـة وسـعيه المتواصل لاصلاح ما بين مصر والأردن ، وعندما مررت امامه لكى أتسلم الجائزة من الرئيس عبد الناصر قال الدكتور قدرى طوقان بصوت مرتفـع اضحك الوزراء : انيس منصور يخرب بيتك انت مسلم ؟؟

وكان د. قدرى طوقان صديقا حميما . ولم يدر بيننا حوار عن دين أحد من الناس . وربما احس بأننى من دين آخر عندما التقينا فى سـنة ١٩٥٥ بالقدس . وطلبت اليه ان ارى حائط المبكى وطريق الآلام وحديقة الجسمانية وكنيستى المهد والقيامة ودير السلطان وغيرها .. ولم يكن هناك أى مبرر لأن يسألنى عن دينى او ان اسأله .

وعندما عدت الى مكانى من القاعة سألنى زميلى وصديقى رفعت المحجوب الذى فاز بجائزة الدولة ايضا . فرويت له ما اضحكه .

وسألنى الصديق الاديب امين يوسف غراب وكان جالسا امامى . ثم قال : اريد ان اطلب الكلمة لأصحح هذه الواقعة واقول انك من الاخوان المسلمين .. وانه ليس صحيحا انك تركتهم !

وفى اول وآخر اجتماع للرئيس السادات بمحررى مجلة اكتوبر فى ميت أبو الكوم رويت حكاية حمار الشيخ عبد السلام .. وان الرئيس السادات قال لى يوما : ان المقال الذى كتبته تستحق عليه الشنق !

فقلت فى هذا الاجتماع : سيدى الرئيس انك تحيرنى .. فالرجل الذى كان يشنق الناس اكتفى بفصلى ، وانت الذى لا تفصل الناس تطالب بشـــنقى !

ثم قابلت الأستاذ الحكيم . وهو رجل لطيف ظريف . لم يخف ضيقه وسعادته أيضا . ضيقه من السلطان . وسعادته بأن يكون هذا هـــو رد فعل لمسرحيته . ولابد أن الحكيم كان يفضل أن يكون رد الفعل أعنف من ذلك كأن يشنقنى الحاكم . او يصادر المسرحية ويخرب بيت الناشر ويعدم الحكيم كما أعدم سيد قطب الذى لم تشفع له شيخوخته ولا مرضه ولا تفقهه فى الدين .

قلت للأستاذ الحكيم : ما رايك ؟

قال : ومن له راى ؟

قلت : انت .

قال : رايى قلته . وانت ضحية هذا الراى !

قلت : سعيد ؟

قال : ابدا .

قلت : لعلى اردت لا شعوريا — أن اسعدك يا استاذ .

وذكرت للأستاذ الحكيم قصة الرسام الاغريقى الشهير زويكسس .. فقد رسم لوحة لعنقود من العنب وهبطت العصافير على اللوحة تنقر حبات

العنب . وكانت هذه اعظم تحية للفنان .. فقد رسم زويكسس العنب وجعله مطابقا تماما للعنب الحقيقى حتى انخدعت العصافير !

ولكن الفنان ظل يبكى حتى مات ؟ !

اما الذى أحزن الفنان على نفسه فهو أن باللوحة رجلا بيده عصـــا لتخويف العصافير . ولكن العصافير لمتخف منه . اذن فصورة هذا الرجل لم تكن قوية لدرجة اقناع العصافير .. اذن فالرسام قد نجح فى رسم العنب ، وفشل فى رسم الرجل الذى يخيف العصافير !

ولكن الحكيم لم يحزن حتى الموت .. وانما لديه مدخرات من الأمل فى النجاة .. وبعد هذه المسرحية تلخصت فلسفة الحكيم فى عبارة واحدة: انه ينظر وراءنا فى غضب ، وأمامنا فى يأس — ولا يزال !

* * *

ونشرت مجلة ادبية لبنانية مقالا بعنوان الحمار والكلب ونيرون وانيس منصور بقلم د. محيى الدين بلدى .. خلاصة المقال اننى كتبت تعليقا على مسرحية السلطان الحائر لتوفيق الحكيم . ووضعت صورة لكلب وحمار فى المقال . ولم يكن هناك معنى للكلب أو ذكر له .. كما أن الحمار الذى ورد ذكره فى المقال ، لا يحتاج الى نشر صورة (بالألوان) له .. ولا معنى للكلام عن الطاغية الرومانى نيرون .. ولكن الكاتب اراد أن يهمز ويلمز (يقصد أنيس منصور) .. فحدث له ما حدث للأدباء والشعراء على ايام نيرون الذى أحرق الجميع ومعهم مدينة روما .. ثم راح سعيدا بكل ذلك!

ولما سئل السيد كمال رفعت الوزير المشرف على صحف اخبار اليوم قال : انه ليس الذى كتبه فقط ، ولكن الذى يقوله ضد السيد الرئيس !

وفى يوم دق جرس التليفون فى « النادى الثقافى » الذى كنت اتردد او انزوى فيه وكان المتحدث صوتا اجش يقول : انا طه حسين .

وذهبت اليه فورا وكان يقيم فى فيلا « رامتان » بالهرم . وكان الشتاء باردا . وبيت طه حسين كان دافئا . كل شىء فيه ذراعـــان ناعمتـــان حانيتان .. وعندما جلست وحدى تمنيت أن انام .. فالهواء احضان ، والكتب حولى مخدات وبطاطين . انه الأمان .. رغم اننى لا أعرف ما الذى

سوف يقوله طه حسين .. ولكن صوته الهادىء القاطع وقوله : تعال فورا يا سـيدى !

لم يكن امرا ولكنه كالأمر .. واى امر هذا الذى يبدا بكلمة تعالى وينتهى بكلمة يا سيدى .. ولكن ادب الأستاذ العظيم وقلق الأب الكبير .

وظللت وحدى جالسا فى مكتب كأنما أراد طه حسين ان استشعر الهدوء والأمان . ودارت راسى تطالع الكتب على الجدران . وكان مكتب طه حسين صغيرا . وبه مقاعد قليلة . وقد اخترت مقعدا بعيدا عن الباب. وجاء سكرتيره الأستاذ فريد شحاته يقول لى : الدكتور يبحث عنك منذ الأمس .. هل لك اخت فى دمياط ؟

ــ لا ..

ــ هل لك اخ فى التأمينات ؟

ــ لا ..

ــ غريبة .. لقد قيل للدكتور انه لابد انك خارج القاهرة . ولكن يوسف السباعى هو الذى أعطاه رقم النادى الثقافى وقال انه كان يتغدى معك هناك .. وقد ضحك الدكتور كثيرا عندما اخبره يوسف السباعى بالمقلب !!

قلت : اى مقلب ؟ !

وكنت قد دعوت يوسف السباعى الى الغداء . فقد تلقيت مكالمة تليفونية من فتاة تسكن فى العمارة المواجهة للنادى الثقافى وطلبت منى خدمة انسانية : ان ترى يوسف السباعى لأنها معجبة به جدا . ولم تره فى حياتها . وانها تحتفظ برواياته تحت مخدتها .. وانها .. وانه .

ودعوت يوسف السباعى الى غداء غير عادى . طلبت من الخواجة لامبو مدير النادى الثقافى ــ هو يونانى قبرصى ان يطبخ لنا ملوخية وفتة . واستنكر الرجل هذا الطعام البلدى . ولكن امام اصرارى ، اعد الملوخية والفتة والطرشى . وقدمت له يوسف السباعى على انه رجل « أكيل » . وانه يشرب الملوخية ويلتهم الفتة ومعها زجاجات الكوكا .. وفى البلكونة جلس يوسف السباعى أمام اطباق كثيرة مليئة بالملوخية والفتة .. وقبل ان يفرغ من الطعام جاءنى لامبو يقول : تليفون .

وكانت الفتاة المعجبة بيوسف السباعى تقول : اعوذ بالله .. معقول الرجل الذى يكتب مثل هذا الكلام الرقيق ، وحش بشرى .. لن أقرأ له بعد اليوم !!

ورواها يوسف السباعى لعميد الأدب .. فأضحكه كثيراً .

وسمعت طه حسين يضحك قبل ان يقدم لى زوجته السيدة سوزان.

قال : يا سيدى اين انت .. اننى ابحث عنك منذ أيام .. اما تزال بعيد المنال ؟

ثم كانت ضحكته الساخرة .

وقال : يا سيدى العن من شئت من الناس .. ولكن لا تلعن نفسك .. اياك والقسوة على نفسك !

ولم اكن فى حاجة الى ما قاله طه حسين بعد ذلك من أمثلة فى التاريخ القديم والحديث عن ظلم السلطان والقرارات المتعجلة التى يتخذها دون أن يعرف ماذا كتب الأدباء أو قال الناس .

قال طه حسين : وكنت أفضل لو انه استدعاك وقال لك انك تستحق العقاب .. ثم وضعك فى السجن .. لو رآك .. لو استمع اليك .. لو هاجمك لو دافعت عن نفسك .. لو احترم انسانيتك .. ولكنى سمعت انه قال : هذا الـ .. الشىء .. أو هذا الأنيس منصور .. خذوه فغلوه .. ثم الجحيم صلوه .. ثم فى سلسلة طولها سبعون ذراعا فاربطوه .. ولكنه السلطان انه أسوأ من سلطان توفيق الحكيم .. ويبدو أن صديقنا الحكيم قد احتاط لكل شىء .. فجعل سلطانه ضعيفا .. وبدلا من ان يشد أزر السلطان ويجعله ظالما فيكرهه الناس ، جعله حائرا فيعطف عليه الناس .. لقد كان الحكيم أخبث منك يا سيدى فأوقعوك فى مصيدته .. وكنت الضحية اما هو فهرب فى سرحانه التقليدى يتظاهر بأنه لا يدرى بما حدث فى المسرحية او بما حدث لك .. هاها .. هاها .. هاها ..

وصافحت طه حسين وخرجت . ولحق بى فريد شحاته يقول لى : ان الدكتور لم يستطع أن يسألك ان كنت فى حاجة الى عمل .. فان كنت فى حاجة الى عمل فعنده اقتراحات كثيرة .

وكانت الدموع ابلغ من كل كلام لم اقله .. ولم اطاوع سكرتير طه حسين فاتوقف لاتفاهم أو اناقش .. ولم اجب عن سؤال آخر .. الدكتور يريد ان تطلبه غدا ضرورى . ولم افعل !

وكأننى أردت أن أحشد رأيا عاما ضد عبد الناصر .. فلقيت عددا كبيرا من الأدباء والشعراء . لم يكن عندى هدف . ولكن تركتهم هم الذين يقولون ويتوقعون ويفزعون ويلعنون كثيرا .

تحدثت الى الأستاذ العقاد فى التليفون وقلت : أريد أن أراك غدا ظهـــرا .

ومضت لحظات قبل أن يرد الأستاذ العقاد .. لعله أراد ان يستوعب هذا الذى سمع فأنا الذى حددت اللقاء غداً وظهرا دون ان اسأل الأستاذ ان كان هذا ممكنا . ولابد أن الأستاذ قد استرجع ما حدث لى ، فوافق . وانتهت المكالمة دون ان أضيف أو يضيف هو كلمة أخرى .

قلت له : ما رأيك يا أستاذ ؟

قال : يامولانا ليس غريبا .. أن يفعل ماهو اكثر من ذلك .. انه لا يأتى بجديد فى تاريخ الطغاة .

ووجدت الأستاذ العقاد مشغولا عنى ، بتأكيد وجهة نظره هو فى الحاكم الفرد .. والكراهية العميقة عند الحاكم لكل الأدباء والمفكرين ، الا اذا انحنـــوا لهم ..

فلم تكن حكايتى الا « مناسبة » تاريخية أو نموذجا لما يعرفه الأستاذ معرفة مؤكدة . فقد اضافنى الى عشرات الأحداث التى رواها فى التاريخ المصرى الحديث والاسلامى والأوروبى .. واخذ الأستاذ يتحدث من فوق راسى ومن حولى ، وكأنه يلقى محاضرة فى الجمعية التاريخية او فى أحد مدرجات كلية الآداب . وقد اسعده ما اصابنى ، لأن هذا يؤكد فلسفته فى حكم الطغاة .. ثم طلب منى ان اتصل به ــ كأنما يريد ان يعـــرف منى تفاصـــيل اخـــرى .. او كأنه طبيب يشـــاهد حـــالة مرضـــية يعرفها تماما . ولكنه لا يستبعد ان تظهر اعراض ومضـــاعفات جديدة لا يعرفها .. فهو يريد ان يطمئن على تفاقم الحالة ، وليس على المريض .

لقد كان اهتمام طه حسين بالشخص ، فهو أب .

واهتمام العقاد بالفكرة ، فهو فيلسوف .

واهتمام الحكيم بنفسه ، فهو فنان .

وكان يحرس السيارات أمام عمارة فرانسوا تاجر التى بها النادى الثقافى ومكتب الأمم المتحدة شاب أخرس اطرش . وفى كل مرة يرانى يستوقفنى ليشير بيده الى كتفه ويشير الى العمارة ثم يشير الى فمه — اى أن الجيش قد ابتلع هذه العمارة .

وكنت أداعبه واشير الى العلامات على الكتف والى جسمى ثم الى فمى — أى أن الجيش قد ابتلعنى أنا أيضا .

وفى يوم سألنى الخواجه خارالامبو — اختصارها لامبو — مدير النادى الثقافى عن الذى فصلنى بالضبط .. وشرحت له . ولكنه لم يكن فى حاجة الى ذلك . فقد سأل وعرف وقال لى بلغته بالعربية والانجليزية والفرنسية واليونانية : ان بعض الزملاء الذين أدعوهم الى الغداء معى والعشاء نبهوه الى اننى خطر على المحل وعليه هو أيضا . وقد تضايق كثيرا لذلك.

وفى يوم تحيرت كل المشاعر فى قلبى وراسى وعينى وحزنت على نفسى وتمنيت ان اتلاشى من عينيه ويديه .. رايت لامبو حزينا جدا . ورأيته يتلطف فى معاملتى .. ويضع لى مائدة كبيرة اجلس عليها وحدى . ولها مفرش ملون . وعليها باقة من الورد . وكنت أسأل : ما هذا ؟

فيقول : لك .. — ولكن التربيزة كبيرة جدا .

— لانك كبير جدا .. انت صديقى .. واحسن واعز الناس فى هذه الدنيا .. وكان يجلس معى . ويترك الناس . ويتحدث فى الحياة فى قبرص وعن أقاربه من المحاربين والمكافحين الذين ماتوا . وعاش اولادهم من بعدهم .. وعن الذى يعيش بذراع وساق واحدة .. ولكنهم يعيشون . وان منهم اصحاب ملايين . ولكن الحياة حلوة . والكفاح احلى ما فيها . والصبر هو عمودها الفقرى . والرجولة كفاح وكرامة .

وفهمت المعنى الذى يريده وكان امتنانى له عظيما .

وكنت الاحظ فى ذلك اليوم انه يؤجل تقديم الطعام . لانه يريد أن يجلس معى اكثر . وان يهون على وان يشد أزرى . فلا أهتم أنا ولا أغتم.

وفجأة وجدت المطعم خاليا من الناس . وجاءت زوجته وسلمت . ثم انصرفت . ووجدت لامبو يقول : أنت أخى ؟

ــ نعــم .

ــ وصديقى ؟

ــ نعــم .

ــ وأكلنا عيشـا وملحا سنوات طويلة .

ــ نعــم .

ــ هذا المبلغ من الجمعية اليونانية لمساعدة المقاومة الشـــعبية فى قبرص ؟!

ولا اعرف كيف صرت فى تلك اللحظة .. ولا ان كانت لى رأس أو ساقان .. لقد تبددت تماما .. ذرات أصابها تفكك تلقائى .. صرت شبحا .. ورأيت ــ ان كنت قد رأيت حقا ــ ان لامبو هو الآخر شـــبح ابيض .. أو موجة بحر واقفة على حيلها .. أو ان المطعم كله حوض سباحة ينقلب صاعدا هابطا .

وادرت راسى لأجد زوجته قد أسندت ظهرها الى الباب تمنعنى من الخــروج .

ياه .. ما هذا الذى فى بعض الناس وبين الناس ؟!

□□□

ضعف قوتى .. وقلة حيلتى

وهوانى على الناس !



ضعف قوتي .. وقلة حيلتي وهواني على الناس!

املأ حوضـــا بالمـــاء . ثم انظر اليه وهو يتدفق فى البالوعة — كذلك كانت حياتى فى مئات الأيام من سنتى ٦٢ و ١٩٦٣ ..

الدنيا كلها تنسحب : لونا وصوتا وحجما ومعنى .. فكل شيء يتراجع ويتلاشى .. كأن عينى بلا حدقات ، كان يدى بلا أصابع ، كان أذنى بلا طبلة . كل شيء بلا طعم .

فجأة أصبحت القاهرة مدينة للموتى .. للأشباح .. للظلال ..

هل قامت قيامتى .. هل نفخ فى الصور من أجلى ..

هل انا وحدى المقصود بقوله تعالى : « وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد » — فأنا التى وضعت حملها وأنا السكارى الذين ليسوا سكارى ولكنه العـــذاب الشـــديد ..

أنا الذى اترنح بلا خمر ، وأنا الذى اجهضت بلا حمل ..

اذكر اننى عندما ذهبت الى مصانع « هوكس وسيدلى » حيث يصنعون كبسولة الفضاء فى لندن ادخلونى غرفة تبلغ فيها درجة الصوت صفرا ..

ولم اكد ادخلها حتى فقدت توازنى ، وكدت اقع .. لأن توازن الجسم يعتمد على الأذن ، والأذن تعتمد على عكاز اسمه الموجات الصوتية .

وكان الشاعر كامل الشناوى عبقريا عندما روى لنا انه دخل أحـــد المقاهى ، فلم يكد يراه الناس حتى سكتت الأصوات ، فخيل اليـــه ان العمارة ســـوف تقـــع !

وليس ذلك الا انعدام الصوت فقط فما بالك بانعدام كل الحواس ؟ ! فهل أصبحت أنا جزيرة وسط محيط من اللامعنى .. من اللاحكمة .. من اللامنطق .. ؟

لا أعرف كيف أصف لك ماذا حدث ؟ ولا أعرف كيف أجد اللفظ المناسب. ولا أعرف من الذى أصابه ما أصابنى لكى أستعير بعض كلماته أو تشبيهاته . لابد أن أحدا أصابه شيء من مثل هذا الضياع وأسوأ ، ولكن اين هو العقـــل الذى يلتقط المعانى ويعتقل الأحداث ويسلسلها ويسعفنى لكى أعبر ؟ لا أجد .. لم أجد .. لم أحاول .. فكما أن الدنيا حولى قد انحسرت .. فكذلك سيطرتى على عقلى وجسمى .. لقد حدث انهيـــار دستورى فى داخلى .. لا سلطة ولا ادارة ولا قانون .

وكنت أندهش كثيرا عنـــدما قرأت رواية « الغثيـــان » لفيلســـوف الوجودية سارتر وكيف أن البطل ينظر الى يديه والى أصابعه .. يحاول أن يفهم .. معه حق .. صحيح ما معنى هذه اليد ، التى لا تمسك شيئا ، ولا تصلح لأى شيء .. ما معنى القدمين .. وما معنى المعنى ؟ لا شيء .

كانت سنة ١٩٦٢ هى سنة « العبث » أى انعـــدام المنطق والمعنى والفائدة فى المسرح وفى الدنيا كلها ، ولست أنا الا منوذجا لذلك .. ان بعض الأيدى الشيطانية قد جردتنى من ملابسى ودفعت بى الى مستعمرة العراة ــ العراة من المعنى ومن الهدف ومن الانسانية ومن الكرامة ومن الأمل فى النجـــاة .

فعلى مسارح باريس ولندن ونيويورك يظهر الممثلون فى مسرحيـــات العبث .. وفى القاهرة ظهرت مسرحية توفيق الحكيم « يا طالع الشجرة » . وقد اتخذت المسرحية اسمها من أغنية شعبية تقول :

يا طالع الشـــجرة

هات لى معاك بقـــرة

تحلب وتســـقينى

بالمعلقة الصـــينى !

تأمل معنى الذى يطلع الشجرة فيجد فوقها بقرة . معقول ؟ ليس معقولا . ولكن من قال ان المعقول هو المنطق الوحيد . ففى الدنيا أشـياء كثيرة ليست معقولة . ولا مفهومة . أين المعقول فى اشـارة من أصبع حـــاكم مطلق ، فاذا بى فى الشـارع أو بعشرات الألوف فى السـجن أو ضحايا الحرب . حركة من أصبع يده . وكان من الممكن أن تكون من أصبع قدمه ، لو عاد حافيا كما كان !

بل ما معنى الكون كله ؟ ما معنى الحياة ؟ ما معنى الموت ؟ ما معنى أن يكون الانسان طيبا أو أن يكون شريرا ؟ ! لا معنى . نحن الذين اخترعنا السؤال ، واخترعنا الف الف اجابة . ونصدقها جميعا ونرغم الآخـــرين على ذلك ! .

وفى سنة ١٩٦٢ مات همنجواى وفولكنر وصديقى أديب الشباب هرمان هســـه ..

وماتت مارلين مونرو وبكيت عليها . مع أن كل الذى يربطنى بهـــا اعجابى بها واشفاقى عليها ونظرة الى جمالها ولمسة من يدها واحتقـــار لزوجها الأديب أرثر ميللر الذى ذبحها وشرحها وراح يوزع لحمها طـــازجا على الصحف والمجلات مقابل أجر معلوم ! أى منطق فى هذه العـــلاقة ؟ أين أنا وأين هى ؟ وما دخلى .. ولكن حزنى عليها كان عميقا واهتمامى بهـــا كان مائتى كتاب والف صورة وأملى فى أن احكى حكايتها وأترافع عنهـــا فى محكمة اقمتها فى داخلى : فكنت القاضى ووكيل النيابة ومحامى الدفـــاع والمحلفين والرأى العام . ومن أجلها بنيت مصنعا للمناديل أوزعهـــا على الناس يجففون دموعهم ودموعى ، تمهيدا لجنازة فخمة .. أمشى فى مقدمتها، وأتلفت ورائى كأننى أنا فقيدة الفن والجمال والبراءة ! .

فأى منطق فى ذلك ؟ ! .

حاولت فى فراغى أن أجد مثيلا لمـــا كنت فيه .. لم تفلح ذاكرتى التى

نصبتها مصيدة للأفكار الواردة والشاردة ، فلم أجد كثيرا من الأشـــباح والأبطال الوهميين فى الأدب والمسرح .

تذكرت بطل قصة « اللعبة الملكية » للأديب استيفان تسفايج .. كان فى احد السجون . منعوا عنه الكتب والورق والقلم . فأستلقى على ظهره يستعرض على السقف كل ما حفظ من الشعر .. وكل مباريات الشطرنج .. يلعبها مع نفسه ويتغلب على خصمه الذى هو نفسه فى النهاية .. ويترجم الشعر الذى يحفظه الى اللغات الكثيرة التى يعرفها .. ثم يتلوه مقلوبا .. فالليالى طويلة واليأس أطول .. ولكنه يحاول التغـلب على الوضـــع اللامعقــول ..

وحاولت شيئا من ذلك ولم أكن فى قدرة هذا البطل ولا كان عنــدى مثل هذا الأمل . بل لقد كان الأمل نوعا من الترف قد أممته الثــورة المصرية قبـــل الصحافة بزمان ! .

تصورت نفسى ابو زيد السروجى بطل « مقامات » الحريرى الذى كان يتلاعب بالالفاظ .. والذى اختار الكلمات التى يمكن ان تقرأها من أولهـــا ومن آخرها مثل كلمات : توت .. خوخ .. باب .

ومثل هذه العبارة ايضا دام علا العماد .. أو سر فلا كبا بك الفرس .. او قلع مركب ببكر معلق أو : مودته تدوم لكل هول .

وهل كل مودته تدوم ؟

ولكن كنت فى حاجة الى قدرة على التركيز .. الى ورقة وقلم .. الى منطق .. الى أصابع ليدى ، ورموش لعينى ، والى صمغ ودبابيس لأوراقى .. وفشلت كثيرا .

تذكرت الفرق بين التماثيل الاغريقية والتماثيل الرومانية .. لقــد كانت للتمايثل الرومانية عيون واسعة ــ بلا حدقات .. أما التماثيل الاغريقية فقد وضعوا لها حدقات ، فكانت قادرة على التركيز .. قادرة على معرفة ابعاد الأشياء ــ وفى ذلك الوقت كنت رومانى العينين .

فالمطلوب هو ان أبحث عن حدقة لعينى .. لكى أرى .. لكى يستغرقنى شىء . لكى استرد العلاقات بين الأشياء والناس .. لكى اجعل للدنيا حولى معنى .. لكى استرد الدنيـــا .

تذكرت ما قاله فيلسوف الحضارة أشبجلر : ان اعظم شيء ساعد الانسان على تطوير حياته : أصابعه .. فهناك فرق بين أصابع الانسان وأصابع القرد والحيوانات الأخرى .. ان أصابع الانسان يمكن ثنيها .. وبسبب ذلك استطاع الانسان أن يصنع أدوات حياته : الفاس والسكين والمحراث والعجلات .. أى « تكنولوجية » الحضارة .. فالانسان هو الحيوان صانع الأدوات التى يعيش ويموت بها أيضا .

فاذا لم استرد أصابعى وأمسك الأشياء وارتبها وأنظمها ، فسوف ابقى بعيدا عن الانسانية — أعرف ذلك ولكن كيف ؟ .

لا حل لهذا الضياع الطويل الا اذا كانت لى زاوية انظر منها الى الدنيا .. الى الناس .. يجب أن أعيد تدريب العين على الرؤية والأذن على السمع والأصابع على اقتناص الأشياء كيف ؟ ومن اين ؟

والجواب : الآن ومن أى مكان !

وتذكرت الأديب الانجليزى هـ . ج . ويلز الذى بدأ حياته عاملا فى أحد محلات الأحذية . وكان المحل تحت الأرض . وكان ينظر من نافذة المحل الى الشارع فوقه ، فلا يرى الا أحذية الناس .. ومن النظر الى الأحذية ولونها ولمعانها وحجمها كان يعرف طبقات المجتمع ومهنة هؤلاء المشاة على سطح الأرض .. وعن طريق الجزم ودراستها استطاع ان يهتدى الى طريقة لتخفيض سعر الجزم فى بريطانيا وذلك بزيادة عدد الأغنام فى استراليا وتصدير كميات كبيرة منها .. وبذلك يزيد العرض على الطلب ، فتنخفض اسعار الأحذية ، ثم يشترى الناس أحذية أفضل لا تكون لها الأصوات المزعجة ، ولا تثير ترابا ولا طينا فى عيون وأنوف الذين تحت الأرض ! .

وتذكرت رواية « الجحيم » للأديب الفرنسى باربيس .. فبطل هذه الرواية صنع فتحة فى الجدار ، وعن طريق هذه الفتحة يرى ويسمع ما يجرى فى الغرفة المجاورة . وكل واحد منا قد اتخذ لنفسه مثل هذه النافذة الصغيرة يطل منها على العالم الخارجى .. وتكون هذه النافذة الصغيرة بالقرب من الأرض او تكون بالقرب من السقف ، وتطل على غرفة نوم . او على ورشة وعلى عيادة طبيب .. أو مريض .. فلابد من نافذة .. لابد من مجال أو برواز نضع فيه صورة الدنيا على الجانب الآخر .. فالحلاق ينظر الى قفاك ، والجزمجى الى حذائك ، والترزى الى بنطلونك .. وأنت

تنظر الى كل ما ليس مغطى من جسم المرأة : ذراعيها وساقيها .. والمرأة تنظر الى كل ما هو مغطى من جسمك : بدلتك وجزمتك .

والفيلسوف الأغريقى ديوجين اختار أن يعيش فى داخل برميل زبالة .. لأن الدنيا كلها زبالة .. وقد مارس ما تبقى من حريته فى اختيار شكل البرميل الذى يعيش فيه ، وانتقى الزبالة . وعندما زاره الاسكندر الأكبر سـأله ان كان يريد شيئا قال له الفيلسوف : فقط أن تبعد قليلا لأنك تحجب عنى الشمس !

ولكنى لا اخترت البرميل ولا اخترت الزبالة ، والاسكندر على ايامى لم يحجب عنى الشمس وانما فقأ عينى حتى لا أراها وجردنى من الاحساس بها أيضـا !

فى ذلك الوقت اهتديت الى نظرية فلسفية سجلتها . ولكن لم أتعمقها بعـد .. ووضعتها فى كتاب لى بعنوان « وداعا أيها الملل » . أما المعنى فهو : المسافات بين النـاس .

فالانسان الحر هو القادر على أن تكون بينه وبين الناس مسافة .. شبر .. مليون شبر .. يقترب .. يبتعـد .. أما الذين يعيشـون فى مسافات جامدة ثابتة ، فهم السجناء .. اما الأحرار فهم الذين يصـنعون مسافاتهم .. يخرجون .. يدخلون .. يسافرون .. على الأقـدام .. أو بالطائرة .. فالدنيا واسعة .. الدنيا منديل .. يمكن طيه ونشره .

ولكنى لم اشعر بهذه الحرية .. صحيح الشوارع مفتوحة .. وفى استطاعتى أن اذهب الى أى مكان .. ولكن لم يعد للزمن اى معنى .. فلست مضطرا أن أصحو مبكرا .. ولا أن اذهب الى مكتبى .. فلا مكتب ولا عمل .. اذن انا حر .. واستطيع أن انزع الساعة من يدى .. فلا معنى لحركة عقاربها .. فلا عمل .. أى لا زمان ولا مكان .. حر تماما .. ولكن الحرية شعور .. فأنا لا اشعر بذلك .. أو بشىء .

وتذكرت قصة للأديب السويسرى ماكس فريش اسمها « ليكن اسمى جانتبين » والبطل يتظاهر بأنه اعمى ، لكى يرى أكثر .. وانه أطرش لكى يسمع أكثر .. اذن هو اكثر حرية من كل الناس .

فالذى لا عمل له حر ، والذى لا مواعيد عنده : حر ..

ولم اجدنى كذلك ..

وفى مسرحية « زيارة السيدة العجوز » للأديب السويسرى ديرنمات رأينا رجلا واحدا يعرف انه سوف يموت .. وان أهل المدينة يحفرون له قبره .. فكان اكثر الناس حرية ، ففى استطاعته أن يفعل أى شىء ، وان يشتم ويلعن كل الناس .. انه سوف يموت .. فما جدوى الأدب والذوق والأخلاق والكرامة .. انه سوف يموت .. فهو الوحيد الذى يعرف هذه النهاية .. نهاية كل شىء . فلا أمل ولا طمع فى شىء . ولن يلومه احد لو فعل اى شىء — انه رجل ميت ! .

وفى مسرحية « الشهاب » لديرنمات ايضا نجد البطل اديبا مريضا فى احد المستشفيات فقد كشف عليه الطبيب وقال : أنه ميت .

وجاءه القسيس وقرأ عليه آيات من الانجيل . وفجأة قفز الرجل من الفراش . انه لم يمت . ورجاه الطبيب أن يبقى ميتا وكذلك القسيس لأن فى عودته للحياة فضيحة لهما . ولكنه اختفى ليقرأ ما كتبته عنه الصحف وما قاله النقاد والأصدقاء والأعداء — اذن من يتظاهر بالموت ، سوف يرى ويعرف اكثر ، ويعيش على حريته أطول واعمق .

والشاعر القديم يقول :

تعارجت لا رغبة فى العرج ولكن لاقرع باب الفرج
واحمل حبلى على غاربى واسلك مسلك من قد مرج
فان لامنى القوم قلت أعذروا فليس على اعرج من حرج !

فلا احد يلوم الأعرج والأطرش والأعمى — انهم اكثر حرية من بقية الناس . فكلما فقد الانسان عضوا ، رفع عنه الناس عذرا .. فاذا فقد الأعضاء كلها ، فلا لوم عليه .. انه تحرر من كل لوم !

وفى مسرحية « السلطان الحائر » لتوفيق الحكيم هذا الحوار بين السلطان والغانية . وهو يسخر من اشتغالها بالفن — اى بالدعارة — وهى تدافع عن نفسها :

الغانية : ثرائى ورثته عن زوجى .. وانى لأنفق احيانا على هذه الليالى ، اكثر مما اكسب !

السلطان : لمــــاذا ؟ لوجه الله تعالى ؟ !

الغانية : لوجه الفن .. لأننى من هواته .

السلطان : (ساخرا) الفن الرفيع دون شك ؟ !

الغانية : أنت لا تصدق ولا تأخذ قولى على سبيل الجد .. فليكن ! ظن بى السوء ما شئت .. فليس من عادتى الدفاع عن نفسى ضد ظنــــون الآخرين .. فأنا فى أعين الناس امرأة سيئة السيرة .. وقد انتهى بى الأمر بقبول هذا الحكم .. وقد وجدت فى ذلك راحة لى — لم يعد من مصــلحتى تصحيح رأى الناس ، فعندما يجتاز انسان حدود السوء ، فانه يصــبح حرا .. وانا فى حاجة الى حريتى .. وبعد وفاة زوجى استأنفت دعــوتى لضيوف زوجى .. كنت أستقبلهم بادىء الأمر وانا محتجبة خلف أستار الحرير .. لكن عندما أخذ أهل الحى فى اللغط حولى واطلاق الشائعات عنى لمرأى الرجال الداخلين كل ليلة بيت امرأة لا زوج لها ، لم أجد معنى للمضى فى الاحتجاب خلف الأستار . وقلت : ما دام حكم الناس قد أدانني ، فلأجعل من نفسى قاضيا على تصرفاتى » .

أى لن تكون أسوأ مما هى . ولذلك انتهى كل شىء : الناس يرونهـــا أسوأ المخلوقات واحطها واحقرها ، فلتفعل ما بدا لها .. انها حرة من كل قيــد ! وأحسن تسمية لهذه المسرحية هى : المومس الفاضلة !

وكان فيلسوف الوجودية سارتر يقول : ان الشعب الفرنسى لم يشعر بحريته الكاملة الا فى ظل الاحتلال الألمـــانى !

فالألمـــان قد سحبوا القـــانون والمنطق والــكرامة والشرف من كل الناس .. جردوهم من كل ما هو انسانى أخلاقى حضارى .. ولذلك ففى استطاعة أى انسان أن يفعل ما بدا له .

تماما كما تنعدم الجاذبية الأرضية ، فتتطاير كل الأشياء والنـــاس والحيوان .. تماما كما تتطاير الدبابيس والصمغ من الأوراق . فتنفــرط كل الكتب .. أو كما تنعدم المعانى من كل الألفاظ فيكون برج بابل .. وتكون كل اللغات مجرد ضوضاء . أصوات بلا حروف وحروف بلا كلمات وكلمـــات بلا عبارات .. بلا معنى .

* * *

احسست كأننى احمل بطاقتى الشخصية : فيها صورتى ووظيفتى وابحث عن شيخ حارة ليدلنى على نفسى ! فقد فقدت ذاكرتى ، أنقـــدنى الرئيس عبد الناصر ذاكرتى باشارة من أصبع يده .

ذهبت الى د. طه حسين وكان الموضوع هو مسرحية « يا طـــالع الشجرة » لتوفيق الحكيم . وضحك طه حسين كثيرا وهو يقارن بين العبث عند الحكيم وعند الشعراء الفرنسيين فاليرى ولوتريومون وبودلير الذى كان يتعاطى المخدرات .

شىء عجيب حقا . فالرجل الضرير « يرى » الدنيا اوضح واجمل . ويجد المنطق فى كل شىء .. والرجل البصير لم يعد يريد أن يرى ، انه يطالب بأن نقتلع عيوننا ، وننزع عقولنا ، وأن نهيم على وجوهنا ما دامت القـــوة باغية طاغية هكذا .

وأسعدنى أن طه حسين قد نسى ، أو أراد أن يجعلنى انسى .. ثم أنه تحدث معى وسمعته يقول : انت تستطيع أن تكتب ذلك . وانا على يقين من انك أحسن من يفعل ذلك يا سيدى .. فدراستك المتعمقة للفلسفة الوجودية ، تؤهلك لذلك .. أكتب يا سيدى وسوف تجدنى قارئا محبا لك ! .

طه حسين قارىء لى ومحب أيضا ؟ !

واسعدنى انه نسى أننى فى الشارع .. وضايقنى انه نسى ذلك .. واننى هكذا عبرت حياته وآلمتها لحظة .. كأننى شكة دبوس .. فأين الذى قال لى فى التليفون .. وأين الذى حكاه ورواه من الشعر القديم والحديث ؟

ولم أناقش بينى وبين نفسى مدى قسوة هذا الحكم على طه حسين .. وكنت أتمنى أن أناقش ذلك .. ولكنها فكرة دارت حولى ، ثم اختفت .

وفى الصباح ، وفى النادى الثقافى ، سمعت صوت سكرتير طه حسين الأستاذ فريد شحاته يقول : كلم الدكتور .

قلت : نعم يا أستاذ .

قال طه حسين : يا سيدى .. نسيت أن اقول لك انه من الطبيعى ان يتلعثم الطفل .. وأن تتساقط منه الحروف .. والا يحسن تركيب الجمل .

فهو طفل وهذا يدفعنا الى الضحك .. ولكن ان يجىء رجل عاقل ويقلد الأطفال ثم يريدنا أن نعجب به .. فأن نعجب به : لا يا سيدى . ان نعجب له : نعم يا سيدى .. فأخونا توفيق الحكيم يريدنا ان نعجب به . انهم فى فرنسا جربوا كل شىء فى المسرح وعلى المسرح وفى اللغة حتى ضاقوا بكل ذلك .. ولكننا لم نجرب ما جربوا ، ولا عرفنا ما عرفوا .. والعقل السليم هو القادر على التعبير والوضوح .. أما هذا « العبث » ، فأكثر النـــاس قدرة عليه نزلاء المستشفيات العقلية يا سيدى .. ها ها .. ها ها » .

مع احترامى العظيم لطه حسين لم أكن ارى رأيه فأنا متفق تماما مع توفيق الحكيم ومع أدباء العبث ! بيكت ويونسكو وأداموف وبنتر وأرابال وأدباء الغضب : ويلسون واسبورن وديلانى وكيرواك وجنزبرج .

* * *

ورحت ابحث عن أصدقائى الماركسيين الذين عندهم حل لكل مشكلة ، ومشكلة لكل حل .. فوجدت بعضهم قد اتجه الى الدراسة الأزهرية .. واناس تركوا مصر الى اسرائيل والى روســـيا والى أمريكا والى الزواج والمخدرات والنســـيان !!

وفى شارع محمد على ذهبت ابحث عن صديق قديم . وكانت لنا آمال وأحلام .

انا اقول : حريتى اهم من الرغيف !

وهو يقول : الرغيف هو الحرية .

ذهبت اليه . وبسرعة جاءت زوجته الايطالية وابنتاه ووالدته البولندية قال : الى اين وصلت ؟

قلت : لم اتحرك .. أو لعلى اتحرك فى دائرة مفرغة من الاوكسجين ومن الناس ومن الأمل .. لا اول لها ولا آخر .. او اولها هو اخرها .

فضحك قائلا : هل تذكر فيلم « القبقاب »لألبرتو مورافيا .. لقد رأيناه معا .. تذكر ؟.

قلت : اذكره ..

قال : هل تتذكر العبارة التى هزتك وأغضبتك ؟.

قلت : نعم .

وتضايقت . ولم أجد ضرورة لأن أبقى . ودون أن أصافحه هو وأسرته نزلت الى الشارع وغمرتنى الضوضاء والناس .. فقد كنت مثل « قطعة صمت » فى زوبعة .. ففى هذا الفيلم كانت الممثلة جينا لولو بريجيدا زوجة لمدرس مشغول عنها تماما . فقررت أن تشغل جسمها فأصبحت مومسا .

وفى أول يوم نزلت الى الشـــارع طاردها لورد انجليزى بسيارته الرولزرويس .. فنظرت الى السيارة واقتربت فوجدته كبيرا فى السن . ثم ركبت الى جواره . ولاحظ أنها قرفانة من شكله ومن نفسها فقال لها عبارته المؤلمة بلهجة انجليزية : سوف تعتادين على ذلك !!

اذن سوف اعتاد على ذلك .. ونسيت أن صديقى الماركسى كان من المعجبين بجمال عبد الناصر ، وأنه كان يتوقع أن تتحقق الاشتراكية العلمية على يديه .. وأن القهر والظلم والسجن والاذلال هى شروط اللعبة السياسية وليست الا وسائل لتحقيق المساواة العنيفة بين الناس .. وما دام أكثر الناس قد سقطوا فى الوحل ، فلا مكان لأصحاب الملابس البيضاء .. فالطين والهوان لكل الناس ـــ اقسى أنواع العدل الاجتماعى .. وكذلك كسر ظهور الناس وأعناقهم ليخروا ساجدين أمام الفرعون !

وكان من عادتى فى ذلك الوقت أن أذهب الى « حديقة الاســـماك » فى الزمالك .. وأن التقى ببعض الأصدقاء من بينهم حسن فؤاد الفنان الموهوب ، وكان احب الشيوعيين والطفهم .. وكنا نتمرغ على اعشاب الحديقة ونضحك ـــ هو الذى يضحك وأنا أجامله فقط . كان يقول لى : اجازة يا أخى .. املأ بطنك بأى طعام .. وتعلم السباحة .. واعرف الف فتاة .. افعل كل الذى حرمت نفسك منه .

ثم ذكرنى بما كنا نفعله على ظهـــر السفن الايطالية هو والفنان عبد السلام الشريف . كنا ندخل فى مناقشة عبثية وبصوت مرتفع فيندهش الناس لمـــا نقول ويتركون مقاعدهم خوفا منا فنجلس عليها ، أو يتركون لنا مائدة الطعام بكل ما عليها . فكان الحوار بيننا هكذا :

عبد السلام الشريف : تفتكر أن الوقت قد حان لاغتياله الليلة .. المسدس موجود .. ولكن ما الذى نفعله بزوجته وأطفاله .

حسن فؤاد : انت تعرف .. اجمل طعام فى الريف هو اكل الأطفال نأكل الطفل من خديه .. ثم أصابعه ..

الشريف : هذه قسوة بل نخنق الأطفال ونلقى بهم الليلة فى البحر .. الليـــلة ..

أنا : لقد القيت الأطفال فعلا .. ولكنها مشكلة الأب المخنوق والزوجة المحروقة ، ماذا نفعل بهما ؟.

أما وجوه الناس فقد تولاها الفزع والرعب .. فينسحبون فى هدوء بعيدا .. ويتركون لنا مقاعدهم وطعامهم وشرابهم — هذه هى فوائد الهزل والعبث الذى كنا نمارسه كل يوم على ظهر السفن فى الخمسينات ؟!

فهو يطالبنى أن أقوم بدور « البهلوان المخيف » .. أو الشهيد المحروم من ممارسة حقه كانسان مثقف — لا أنا قادر على القراءة ولا الكتابة ولا القيام بأى عمل .. فاذا هاجمت أو شتمت أو لعنت أو حقدت أو كفرت فلا لوم ولا مؤاخذة .. لقد اعطانى الرئيس عبد الناصر هذا الحق . والمثل يقول : « المخوزق » يشتم السلطان .. فكيف أضيع هذه الفرصة ؟!

* * *

وكلما مضى الوقت تأكدت أن طه حسين لم يكن على حق فى نقده العنيف لتوفيق الحكيم .. فكل شىء عبث .. ولكن طه حسين لا يجده كذلك . أما نحن فنجد فى كل شىء وفى كل أحد .. فلا معنى لمـــا يقال .. فالحـــرية كذب ، والـــكرامة وهم ، وكل ما وعد به جمال عبد الناصر وصـــدقناه خرافـــة .. فليس صـــحيحا أنه أول مصرى يحـــكم مصـــر بعد المماليك والأتراك .. وانمـــا هو فرعون جديـــد فادح الثمن ، باهظ التـــكاليف ، خانق الأنفاس ، جلاد الحرية .. وهو بحق « موحد الأديان » فقد جعل الناس جميعا يكفرون !

وكما يحدث فى مسرحيات العبث . أن تجد المسرح خاليا من الممثلين .. وأن نجد المقاعد خالية من المتفرجين . كانت الشوارع والبيوت والنوافذ والصحف والكتب .. فراغا فى فراغ فى صمت فى وهم فى ضياع .

ثم وجدتنى مثل ابطال مسرحية « فى انتظار جودو » للكاتب الايرلندى صمويل بيكيت ، اروع وأبشع مسرحية قرأها أو شاهدها الانسان فى العصر الحديث .. فهى التى اشـــاعت اليأس والملل والخـــرافة .. فبطـــلا

المسرحية رجلان : فلاديمير واستراجون .. ولهما أسماء أخرى .. والحوار ممل . والانتظار لشيء غامض سوف يجيء ، لشخص أو موقف .. أو بطل .. أو معجزة .. ولكن احدا لا يجيء .

وعندما عرضت هذه المسرحية فى سجن سان كونتين فى كاليفورنيـا صفق لها السجناء طويلا وقوفا .. لأنها تصف مشاعرهم بالضبط .. فهم سجناء خرافيون — حياتهم خليط من الواقع الأليم ، والأمل الذى هو اكثر ايلاما .. وكل يوم يتجدد عندهم الأمل فى المعجزة .. فى الخرافة .. فى أن يقع زلزال يهدم السجن ويحطم الأغلال ليكونوا احرارا .

* * *

ولا انسى كيف زرت أحد سجون بافاريا مع اللواء حسنى نجيب الذى كان محافظا والدكتور مراد كامل أستاذ اللغات الشرقية وكانت الزنزانة غرفة مفروشة .. وعرفنا أن السجن معناه أن يفقد الانسان حريته .. لا تجويعه ولا اذلاله ولا اهدار كرامته .

ويوم ذهب السيد اسماعيل حسين مدير مكتب أخبار اليوم بالاسكندرية الى ألمـــانيا فى رفقة أثنين من أشقاء الرئيس جمال عبد الناصر ، عاد يروى لنا ما قاله الأخوان عن ضرورة ضرب المصريين الكلاب بالكرباج .. ثم اختفى اسماعيل حسين فى سجن القلعة تسعة شهور — ثم مات بعد ذلك بتسعة أيام ؟!

والسجن اهون كثيرا جدا من الشوارع الواسعة ، وكأنها شوارع مسدودة ما دام لا أول لها ولا آخر .. ولا بداية ولا نهاية ولا هدف من السير فيها !.

ويوم كنت فى مدينة صنعاء وجدت أحد عساكر المرور ينظم حركة السيارات والسلاسل فى رجليه !

سألت . قالوا : انه محكوم عليه بالسجن مع الأشغال الشاقة !!

فهو سجين مرتين : فى السلاسل وفى العار !

واحسست بالسلاسل حولى ، ولكن الذى وضـــع السلاسل واطلقنى فى الشوارع ، لم يشعر بالعار والخزى — ولا استطاع احد من الأدباء أن يفتح فمه !

وادهشنى ما وصلت اليه حـــالتى : فقـــدان الذاكرة .. هل نسيت كاليجولا ونيرون وغيرهما من الطغاة ؟ كيف نسيت مهرجان الشعر الذى كان يقيمه الامبراطور كاليجولا .. فيقف الشعراء صفا واحدا . ويلقى كل واحد قصيدة .. أو نصفها أو مطلعها ، فاذا سمع صفارة الامبراطور راح يقفز على ساق واحدة ثم يلقى بنفسه فى الهاوية .

وكان الامبراطور دقيقا منظما فى القضاء على الشـــعراء فهـــو يغتالهم حسب الطول والوزن أو الحروف الأبجدية فى أسمائهم أو أسماء زوجاتهم أو أمهاتهم او حسب القافية أو مطلع القصيدة ! .

كيف يكون الطاغية هكذا منظما فى قسوته ، دقيقا فى ظلمه ، أنيقـــــا فى اغتياله للفن ! ثم كيف كان كاليجولا يتباهى بأن الظلم لم يعرف نظاما قبل ذلك ؟

والرئيس جمال عبد الناصر يوم صرخ فى ميدان المنشية سنة ١٩٥٤ يقول للشعب المصرى : انا الذى علمتكم العزة أنا الذى علمتكم الكرامة ، لم يكن مبتكرا ولا متبرعا وانما كان يسير على الطريق المعروف لكل الطغاة: كاليجولا ونيرون وستالين وهتلر !

ولست أدرى ما الذى دفع بشاعرنا حافظ ابراهيم أن يستشعر مثل هذه المعانى فينظم أبياته الشهيرة الموجعة :

لقـــد كان فينـــا الظـــلم فوضى
فهذبت حواشيه فبات ظلما منظما
تمن علينا اليوم أن أخصب الثرى
وان أصـــبح المصرى حرا منعما
أعد عهد اسماعيل جلدا وسخرة
فانى رأيت المـــن انـــكى وآلمـــا
عملتم على عز الجمـــاد وذلنـــا
فأرخصتمو طينا واغليتمو دما !

* * *

وفى ذلك الوقت أحسست أن نشيدى القومى هو أغنية عبد الحـــليم حـــافظ : راح .. راح ..

وليس معنى الاغنية ولكن هذه الكلمة والصوت الذبيح لعبد الحـــليم حافظ .. راح .. رحت .. وكنت اتردد على مطعم لبنانى فى وسط المدينة . وفى كل مرة أجد فيروز تردد أغنية واحدة .. صدفة .. ولكنها لا تخلو من المعنى والحكمة . وكنت اندهش كيف أن كلاما جميلا وغناء اجمل واداء أروع، ليس له معنى .. ولا اجدنى الشخص المقصود .. وكنت أبتلع المعانى مع الطعام . ولا اعرف ان كان السعال الذى ينتابنى سببه ان الكلام وقف فى حلقى .. أو ان الدنيا كلها ..

تقول فيروز :

دار الليالى أيام الصـــفا دارها

ويحى عشيرة هنا : زوارها ودارها

داو الجفا بالجفا .. أهل المودة انتهوا

والناس يا ناس ان دار الزمن دارها

ولا نسيت طوال شهور الضياع والعبث والهوان ما قاله الرســـول عليه السلام يوم اخرجه اهله واضطهدوه وراحوا يدقون قدميه بالحجارة فيسيل دمها : اللهم اليك اشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على النـــاس ..

* * *

ومن حمار الشيخ عبد السلام الى حمير أخرى كان من الضرورى أن ادير حولها وبينها عقلى حتى لا يتصلب .. حتى لا ينكسر فيسقط من فوق كتفى !

□□□

ثم انشغلت بحمير أخرى!!



ثم انشغلت بحمير أخرى !!

فوجىء الرئيس جمال عبد الناصر عند عودته من روسيا ، بأن أدباء مصر يتهمون توفيق الحكيم بسرقة حمار بعد وفاة صاحبه بسنتين . والحمار اسبانى . وكان مملوكا لأديب فاز بجائزة نوبل فى الأدب سنة ١٩٥٦ . اسم الحمار بلاتيرو . واسم صاحبه رامون خمينيز .

وسأل الرئيس عبد الناصر عن حقيقة ما حدث فقيل له أن أدباء مصر لم يدعوا شيئا لتوفيق الحكيم الا أعادوه لأصحابه . فهو قد اقتبس كل شىء عن أدباء آخرين ..

ونشرت مجلة « الجيل » انه حتى سكان عمارة توفيق الحكيم فى أول شارع الجيش لا يعرفون توفيق الحكيم ، ولم يقرأ سكانها كتابا واحدا له . فليس صحيحا أنه معروف عند كل الناس .

حتى البيريه الذى كان يرتديه توفيق الحكيم أعلن الأستاذ العقـــاد أنه مقتبس منه هو . وانه اول من وضع البيريه على دماغه . وليس توفيق الحكيم ولا د. حسين فوزى .

وفى السبعينات اتهم كاتب فلسطينى الرئيس السادات بأنه سرق عصاه من توفيق الحكيم . فاتصل بى د. أشرف غربال ، وكان يومها متحدثا رسميا وطلب منى أن أكتب عن العصا التى يحملها السادات .. وأنها غصن زيتون . وان هذا الغصن له قصة تاريخية .. وان هذه العصا تذكر السادات بشجرة الزيتون رمز السلام على أرض السلام — أى على الأرض التى تفتقد السلام !

وفجأة أعلن طه حسين أن « بخل » توفيق الحكيم ليس الا حيلة لجأ اليها توفيق الحكيم للدعاية .. وليكون حديث الناس . والحقيقة أنه رجل كـريم !

واسم توفيق الحكيم هو : حسين توفيق الحكيم !

أما واقعة الحمار فهى أن للأستاذ توفيق الحكيم سلسلة طويلة من المقالات بعنوان : حمارى قال لى .. ثم جمع هذه المقالات فى كتاب بعنوان « حمار الحكيم » ولما ضاق الأستاذ الحكيم بحماره ، ولم يعد يسعفه بالأفكار والمعلومات راح يكتب مقالات بعنوان « قالت لى العصا » .

وفجأة اختار الأدباء شخصية يذبحونها وصرحا يهدمونه . فكان توفيق الحكيم . وقالوا أن « حمار » الحكيم مسروق من الأديب الأسبانى رامون خمينيز وقد ألف كتابا سنة ١٩١٤ بعنوان « بلاتيرو وأنا » .. وبلاتيرو بالأسبانية معناه ذو اللون الفضى . وترجم الأستاذ العقاد هذا الكتاب ونشرته مؤسسة فرانكلين !

وقبل الهجوم العنيف على توفيق الحكيم نشرت « أخبار اليوم » سلسلة من المقالات العنيفة بعنوان « فن حرامية » للأستاذ التابعى هجوما على الموسيقار محمد عبد الوهاب . استعان الأستاذ التابعى بمعلوماته وما سمع من الموسيقيين الفاشلين الحاقدين ، ولم يتركوا لمحمد عبد الوهاب لحنا واحدا من عنده ، فهو قد اقتبس بعنف كل الحانه الجميلة .. وكأن الناس محتاجون الى واحد « يفشون غلهم السياسى » فيه ، فكان محمد عبد الوهاب — ولا ذنب له . وكان توفيق الحكيم ، ولا جريمة له !

وفى ذلك الوقت كان صديقى كمال الملاخ فى أمريكا . وترك لى مهمة الاشراف على صفحة له عنوانها « من غير عنوان » .. وتصادف أن كانت

الصفحة تحتاج الى عمود . فكتبت العمود مهاجما الأستاذ التابعى مدافعا عن محمد عبد الوهاب . بأن محمد عبد الوهاب رجل متحضر .. رجل مثقف .. مثل كبار الأدباء الذين يقراون ويتأثرون أسلوبا وفكرة . وتشاء الصدفة أن يقرأ الأستاذ على أمين هذا الذى كتبت فطلب من المرحوم على حمدى الجمال ، نائب رئيس التحرير ، أصل هذا المقال . وكانت المفاجأة أنه ليس كمال الملاخ الذى كتب المقال . وحدث بعد ذلك ما يعرفه ابناء « اخبار اليوم » القدامى من انفعال على أمين واقفا وجالسا ، يدق المكتب بيديه والأرض بقدميه .. وقدمت استقالتى !

وفجأة توقفت الحملة على توفيق الحكيم بأمر من الرئيس جمال عبد الناصر . وكانت حجته أنه عندما كان فى روسيا وجدهم ينسبون كل انجازات الانسانية الى علماء سوفيت . فسمعهم يقولون أنهم الذين اخترعوا الراديو قبل ماركونى ، والتليفون قبل جراهام بل ، والصواريخ قبل فون براون ، واكتشفوا الميكروب قبل باستير ، والبنسلين قبل فلمنج .

وكان من رايه : اذا كان الروس يفعلون ذلك بعلمائهم — اى ينسبون اليهم ما ليس لهم ، فكيف نجرد أديبنا الكبير من كل الذى له !

اذا لقد زاد عدد الحمير واحدا : حمار الشيخ عبد السلام وحمار الحكيم وحمار خمينيز !

وتوفيق الحكيم اختار الحمار ليجرى حوارا معه أو على لسانه او بقلمه لان الحمار حيوان طيب صبور ، ولأنه الحد الأدنى للفهم الحيوانى — والحكيم يشير بذلك الى الفلاح المصرى الغلبان وهو يستخدم الحمار وسيلة للسخرية . فكثيرا ما فهم الحمار ما لم يفهمه الناس ، ويكون منطقه أقوى — أى أن الناس أكثر « حمورية » من الحمار !

اذن كل مصائب الأدباء تجىء من وراء الحمير !

واذكر أننى جلست مع د. طه حسين اداعبه واقول له أننى كنت اقلد طريقته فى الأداء والالقاء . وكان ذلك فى المدرج ٧٨ المشهور بكلية الآداب . وأصر طه حسين على أن أقلده .. وشجعنى ظرفه ولطفه وحرصه على أن اضحك أنا ايضا فقلت : اذا كنت راكبا حمارا ، فأنت راكب والحمار مركوب . ولما كان المركوب هو الذى يلبس فى القدم ، ولما كان الحمار لا يلبس فى القدم ، فلا انت راكب ولا الحمار مركوب .. الخ .

وكان طه حسين يضحك عاليا متراجعا فى مقعده . ويطلب منى أن أكرر ذلك مرات لكى يزداد ضحكا !

وجاءنى الأستاذ فريد شحاته سكرتير طه حسين يقول لى : ولكن الدكتور غضب بعد ذلك !

ولم أصدقه . ولكن لم أستبعد . وعدت لطه حسين لكى أتأكد بنفسى، فكان الرجل هو الأستاذ العظيم والأب الرحيم .

ولما سألت الأستاذ العقاد قال : يا مولانا ليس السيد توفيق الحكيم هو الذى يحب الدعابة ، ولكن الشيخ طه يموت فى الدعابة . وهو يحقد على أخينا توفيق ، لأنه يتفوق عليه فى ذلك !

ولكن هذه قضية أخرى !

وسألت نفسى : ماذا لو انشغلت بدراسة الحمير فى التاريخ .. ماذا لو ترافعت فى قضية المتهم فيها حمار .. وجعلت عنوان الدراسة : الحمار المفترى عليه .. أو الحمار المفترى .

(١)

ان علماء كثيرين قد تخصصوا فى الذبابة والنحلة والدودة والميكروب . ثم اننى من المعجبين بالعالم النمساوى لورنتس الذى تخصص فى الأوزة . وتعلم لغتها . وانتقل من الأوزة الى الانسان وظاهرة العنف والعدوان عند الأغلبية ضد الأقلية السوداء واليهودية فى التاريخ .

وأنا أيضا من المعجبين بالعالم البريطانى دزموند موريس الذى تخصص فى القرد وانتقل من القرد الى الانسان فى براعة ومتعة وذكاء .. ودرس هو أيضا : الخوف عند القرود . وعلاقة الخوف بالاسراف الجنسى . فالذين يتفرجون على القرود فى الجبلاية ويجدون الذكور تعتلى الأناث ، عشرات الأناث والذكور ، كل ذلك بسبب الخوف . والانسان الخائف يسرف فى الجنس والمخدرات .

وادهشنى أن يكون هذا كل اهتمامى فى ذلك الوقت .

ووجدت أن دراسة الحمير هى نوع من انشغال العقل بشىء ما . فلا هى قراءة جيدة ولا هى كتابة ، وانما هى « تسخين » للعقل .. كما يفعل اللاعبون الاحتياط على خطوط الملاعب .

ولا فرق بين الحصان والحمار . فالحمـــار ليس الا ترجمـــة ركيكة للحصان .. فليكن !

(٢)

جاء فى كتاب « تاريخ الرسل والملوك » للطبرى :

ان نوحا عليه السلام اركب فى السفينة أولاده الثلاثة : سام وحـــام ويافث .. وستة أناس آخرين . وتخلف ابنه « يام » وكان كافرا . وآخر ما ركب السفينة : الحمـــار .

فلما أدخل الحمار ودخل صدره تعلق أبليس بذيله ، فلم يستطع أن يتحرك . فقال له نوح : ادخـــل .

فحاول الحمار ولم يستطع .

فقال له نوح : ادخل وان كان الشيطان معك .

وهنا ترك الشيطان الحمار . ودخل الحمار والشيطان قبله .

فقال له نوح : ما الذى أدخلك يا عدو الله ؟

قال الشيطان : ألم تقل ادخل ولو كان الشيطان معك !

* * *

فالشر قد جاء الى الدنيا متعلقا فى ذيل حمار !

(٣)

وقد جاء ذكر الحمار فى التوراة ، فى أماكن عديدة .

أما سفر العدد (٢٢ — ٢٣) فى التوراة فقد حكى لنـــا قصة الحمار الذى راى الملائكة ، ولم يرها بلعام . فقد ركب بلعام حمـــاره وفجـــأة توقف الحمار . وانحرف عن الطريق . وراح صـــاحبه يضربه بشـــدة . واصطدم الحمار فى أحد الجدران . وراح بلعام يضربه . وراى الحمـــار ملاك الرب ، فأفسح له مكانا فى الطريق ولم يفهم بلعام . وازداد غضبه . فنطق الحمار يقول له : ما هى غلطتى حتى تضربنى هكذا ؟

فقال بلعام : لأنك احتقرت شـــأنى . ولو كان معى سيف لقطعت رقبتـــك !

وفجاة كشف الرب عن عينى بلعام فراى الملاك أمامه وقد استل سيفه، فسجد له . وقال بلعام للملاك : أنا اخطأت . فلم اكن اعلم انك واقف فى الطـــريق !

***

وحمار بلعام هو أشهر الحمير التى جاءت فى التوراة . وانبيـــاء بنى اسرائيل يركبون الحمير لا الخيول فهى رمز للتواضع والفقر أيضـــا . وقد جاء فى « التلمود » أن من يرى فى نومه حمارا ، يجب أن يفكر فى انقـــاذ شعبه .. فالحمار رمز للشعب المقهور ، ورمز لوسيلة المواصلات — عنـــد الأنبياء — أكثر الناس تواضعا !

وفى العصور الوسطى ظهرت لوحة لحمار يصعد السلالم .

وفى التلمود : اذا صعد الحمار سلما ، اصبح المجنون عاقلا . فهذا هو المستحيل .

(٤)

وفى القرآن الكريم : « مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملـــوها كمثل الحمار يحمل أسفارا » .

وفيه أيضا « ان انكر الأصوات لصوت الحمير » .

وجاء فى القرآن الكريم ذكر حيوانات وحشرات أخرى : العنكبوت والنحل والنمل والكلب والهدهد والغراب والذئب والفيل والبغال والبعوض والمـــاعز والأغنام والبقرة والحوت والنون (الحوت) .

(٥)

اما كتاب « الحيوان » — خمسة أجزاء — من تأليف الجاحظ المفكر العربى الكبير فهو من أمتع الكتب التى يقراها الباحث والأديب او المشرد

عقليا ونفسيا . ففيه الكثير من المفردات العلمية والأوصاف الدقيقة والخرافات ايضـــا .

* * *

فبعض الحيوانات يمكن أن يستأنسها الانســـان . وبعضها يمكن أن يؤدبها . والحمار يمكن تاديبه اذا كان اهليا ، اما اذا كان وحشيا فيستحيل ذلك .

اما الذئب فيستحيل تأديبه . وقد حاول رجل بدوى أن يعلم ذئبا رضيعا كيف يكون كلبا ويحرس الأغنام . ثم فوجىء بأن الذئب الذى يرعى مع الأغنام والكلاب قد أكل واحدة منها . يقول الشاعر :

بقرت شويهتى وفجعت قلبى
وانت لشـــاتنا ولـــــد ربيب
غذيت بدرها وربيت فينـــــا
فمن أنبـــاك أن أبـــاك ذيب
اذا كان الطباع طبـــاع سوء
فـــــلا ادب يفيـــد ولا أديب

* * *

قال أحمد بن عبد العزيز : ان الحمار ما ينام .

فقيل له : وما ذاك !

قال : لأنى اجد صياحه ليس صياح شىء انتبه ، ولا هو صياح من يريد ان ينام بعد انقضاء صياحه !

اى ان صوته مسموع اذا نهق ، واذا لم ينهق !

ويقال فى الأمثال : جحش وحده !

اى انه انسان عنيـــد .

وفى الأمثال العربية القديمة : اخزى الله الحمـــــار : مالا لا يزكى ولا يذكى !

اى أن الحمار لا تجب فيه الزكاة ، ثم ان أحدا لا يذبحـــــه ويأكل لحمـــه !

* * *

يقول الجاحظ : من الحيوان ما يكون لكل جماعة منها رئيس أو أمير . ومنها مالا يكون . فأما الحيوان الذى لا يجد بدا ولا مصلحة لشأنه الا فى اتخاذ رئيس ورقيب فهو مثل ما يصنع الناس ومثل ما نتخذ النمــــل . فأما الابل والحمير فان الرياسة لأكثرها فحولة .. لأن الرئيس هو الذى يوردها ويصدرها ، وتنهض بنهوضه ، وتقع بوقوعه .

* * *

« واذا أصيب الحمار بجرح ألقى بنفسه على الأرض وامتنع عن القيام ولو ضربناه بالعصا .. فلا ينهض ولا يبرح مكانه » .

* * *

يروى الجاحظ حوارا بينه وبين أحد العلماء الذى يتعصب للكلب ويراه أذكى من الحمار ، لأن الكلب يتعلم من التجربة فالذى أوجعه مرة يبعـــد عنه ، والذى أعجبه يذهب اليه .

قال الجاحظ : وكذلك الحمار . اذا رفعت عليه السوط .. فقد تعلم الحمار أن السوط اذا ارتفع لابد أن ينحط على عنقه واذا انحط على عنقـــه أصابه الألم .. والكلب ليس أفضل من الحمار ، مع أننا نصف الحمـــار بالجهـــل !

* * *

والعداوة تقليدية بين الحمار والغراب . يقول الشاعر :

عاديتنا . لازلت فى تبـــاب

عـــداوة الحمار للغراب !

والتباب معناها الهـــلاك ..

* * *

ويروى الجاحظ قصة « عصفور الشوك » والحمار .. فالحمـــار اذا مر بالشوك وكان جريحا ثم نهق فان النهيق يزعج عصفور الشوك ويجعـــل بيضه يتساقط على الأرض ، فتخرج الفراخ من عشها وتنهال بمنـــاقيرها على جرح الحمار .. وكثيرا ما قتلت الحمير !

قال موسى عليه السلام للنبى الخضر عليه السلام : أى الدواب أحب اليك وأيها ابغض ؟

قال الخضر : أحب الفرس والحمار والبعير لأنها من مراكب الأنبياء .

اما البعير فكان يركبها الأنبياء : هود وصالح وشعيب ، عليهم السلام.

وعيسى عليه السلام قد ركب الحمار .

وفى « دائرة المعارف اليهودية » — ٢٣ جزءا — بالانجليزية : فقد وجدوا تمثالا لحمار فى الهيكل القديم عند هدمه فظن الناس أن اليهود يعبدون الحمير .

والذين قالوا ذلك استندوا الى قصة فى التوراة أن الحمير وهى تبحث عن الماء ، قد نبهت موسى وقومه الى وجود عيون من الماء فى الصحراء . فكانت عبادتها امتنانا لها !

وقال المؤرخ بلوتارك : ان اليهود يقدسون الحمار . ولذلك لا يأكلون الأرانب ، لأن لحمها يشبه لحم الحمار !

(٦)

وفى « دائرة معارف الحيوانات الوحشية » — سبعة أجزاء — بالايطالية :

الحمار يعيش فى شمال أفريقيا وجنوب آسيا . والجحش الفارسى استأنسه السومريون منذ ثلاثة آلاف سنة . واستأنسه الأفارقة فى نفس الوقت . وقد استوردوا الحمار من مصر .. وكل الحمير التى عاشت فى آسيا ، قد استوردت من مصر .

ولم يرد ذكر الحمار فى الالياذة للشاعر هوميروس . وانما جاء ذكر البغل . والرومان قد نقلوا البغال الى بريطانيا عندما احتلوها .

والعالم البريطانى الكبير داروين ذكر ان هناك أربعة أنواع من الحمير فى سوريا وحدها :

١ — هناك حمار رشيق صغير الحجم تركبه سيدات الطبقة الغنية .

٢ — وهناك الحمار العربى .

٣ — وهناك الحمار الثقيل الضخم الذى يجر المحراث .

٤ — والحمار الدمشـــقى أبيض اللون رمادى طـــويل ، وله أذنان طـــويلتان .

وأكبر حمار فى العالم هو « حمار بواتو » الفرنسى طوله ١٦ شـــبرا رمادى وأسود . وهو فى حجم الحصان الذى يجر العربات . ورأسه كبيرة . وسيقانه متينة مليئة . ومؤخرته عريضة وكتفاه أيضا .

والحمير تعيش من ٢٠ الى ٢٤ سنة .

وقد انتشر الاستحمام بلبن الحمار فى اليونان وفى فلسطين ايضـــا . فبلقيس ملكة اليمن كانت تستحم فى لبن الحمارة . لأنه يجعل البشرة ناعمة ويجدد شبابها .

وكذلك كليوباترا ملكة مصر .

وفى القرن السادس عشر كانوا يشربون لبن الحمير عند الاصـــابة بالتسمم .. فهذا اللبن يجعل الانسان يخرج ما فى معدته .

وكان هناك اعتقاد أن من لدغه عقرب فعليه أن ينظر فى أذن الحمار ، ففى ذلك شفاء له !

(٧)

وفى « قاموس الحضارة القديمة » — جزءان — بالفرنسية : ان من يقوم بزيارة لمصر ، لابد أن يندهش لكثرة الحمير فى شوارعها والذباب . وعند زيارته للمناطق الأثرية سوف يتأكد له ذلك تماما !

وكل فلاح فى مصر ، ومن ألوف السنين ، عنده حمار .

وفى المخطوطات الفرعونية القديمة يكتبون الألفاظ النابية باللون الأحمر، وكذلك كلمة : حمار . لأنهم يرونها لفظا نابيا . وشتيمة بشعة .

وفى نقش قديم نجد صورة لحمار وعلى ظهره كرسى يجلس عليه تمثال النيل .. وكل الشعوب القديمة التى قدست الحيوان ، تتفق مع الشعوب الحديثة فى احتقارها للحمار .

وكان الفراعنة ينظرون للحمار على انه شرير .. أو أنه روح الشر .. وكانوا يحطمون صورته .. أو يحرقونها رمزا للقضاء على الشر .

والذين قتلوا ازوريس كانت لهم رءوس الحمير !

ولا يرسمون الحمار دون أن يغمدوا خنجرا فى كتف هذا الحيوان المسكين .

وكان المصريون يصفون الغزاة بأنهم حمير !

وكانوا يصفون الفرس بأنهم حمير !

ولذلك كان الملك الفارسى ارتكسركس الثالث يغيظ المصريين بأن يذبح العجل ابيس ويبالغ فى الحفاوة بالحمير !

(٨)

وفى « دائرة المعارف الاسلامية » : يستطيع الحمار ان يهتدى الى سلوك الطريق التى مشى فيها ولو مرة واحدة . وهو حاد السمع قليل المرض .

اذا نهق الحمار يكون قد رأى عفريتا واذا صاح الديك يكون قد رأى ملاكا !

واذا ربط حجر فى ذيل حمار ، فانه يكف عن النهيق !

واذا رأى الحمار اسدا وقف مكانه ، أو اندفع وهجم عليه — وفى الحالتين سوف يهلك !

واذا لدغت العقرب رجلا نصحوه أن يركب الحمار بالمقلوب !

(٩)

وجاء فى « الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة » لعلى باشا مبارك :

انه فى سنة ١٠٩٩ انتشر الطاعون فى مصر والغلاء والعناء والفناء والظلم .. وهجم الفلاحون وأولادهم على القاهرة وهم يتضورون من الجوع ويأكلون ما يتساقط من قشر البطيخ وورق الشجر .

يقول على مبارك : ولم يعد الزبال يجد شيئا يكنسه . حتى أكلوا الخيول والحمير الميتة .. فاذا خرج حمار الى الطريق تزاحموا عليه وقطعوه وأكلوا لحمه نيئا من شدة الجوع !

(١٠)

وجاء فى كتاب « الطعام : هبة أزوريس » فى جزئين — بالانجليزية للدكتور بول غليونجى الذى توفى فى أواخر ١٩٨٦ ، ولم يكتب عنه أحد سطرا بعد وفاته أخيرا ، وكان من أكبر علماء المصريات وأول من كشف عن العمليات الجراحية الدقيقة عند الفراعنة . وآخر ما فعله أن بعث ببعض كتبه لكى أهديها نيابة عنه الى مكتبة المنصورة حيث ولد وتربى فخورا عظيم الامتنان يرحمه الله ...

وآخر ما فعله د. غليونجى أن بعث ببعض من كتبه لكى أهديها نيابة عنه الى مكتبة المنصورة حيث ولد وتربى فخورا عظيم الامتنان . يرحمه الله .

أقول جاء فى هذا الكتاب : ان الأسرة الأولى فى مصر الفرعونية عرفت الحمار .

ولم يرد نص واحد يقول أن المصريين قد ركبوا الحمار !

ولا أى دليل على أنهم أكلوا لحمه .. وانما أكلت الحمير جيوش قمبيز عندما قامت بحملتها الفاشلة على الحبشة .

والحمار حيوان شرير .. الا مرة واحدة جاء ذكره فى « كتاب الموتى ». ففى هذا الكتاب نرى أحد الموتى يطارد ثعبانا لأنه كان يريد أن ينهش حمارا !

وكان المصريون يكرهون صوت الطبول . لأنهم لا يحبون الضوضاء ، ولأن الطبول تشبه صوت الحمير !

وكان المصريون يقلدون صوت الحمير فى الطقوس الدينية ، ليذهب الشر بعيدا .

والمصريون كانوا يستخدمون شعر الحمير فى طقوس السحر والاضرار بالغير . فيربطون أسماء أعدائهم فى شعر ذيل الحمار .. أو يحرقون شعر الحمار مع ذكر أسماء أعدائهم — لكى يصيبها شر مؤكد !

(١١)

وفى العصور الوسطى انتشرت فكرة « حمار بوريدان » .

وقصة هذا الحمار تحدثنا عن انه حتى الحمار عنده ارادة ، وعنده قدرة على الاختيار أو عجز عن ذلك .

وجون بوريدان مفكر عاش فى القرن الرابع عشر . وقد ضرب مثلا لذلك :

اننا لو وضعنا عند طرفى احد الكبارى : حزمة برسيم ودلوا من الماء ، ووضعنا الحمار بينهما ، فانه يظل يتردد بين البرسيم وبين الماء .. مهتزا يمينا وشمالا حتى يموت .

والمعنى : ان الحمار له ارادة ، وله قدرة على الاختيار ، ولكنه عاجز عن الحسم ، ولذلك يموت جوعان عطشان !

والانسان وحده هو القادر على أن يختار ويحسم !

والشاعر الايطالى دانتى الليجيرى قد ذكر حمار بوريدان هذا فى الكتاب الخامس من « الفردوس » .

(١٢)

وجاء فى كتاب « جينس — للأرقام القياسية » — بالانجليزية : انه فى سنة ١٩٣٤ كان الحمار يباع فى جنوب أفريقيا بقرش واحد !

(١٣)

عندنا فى مصر حمار يسمى « الحصاوى » .. والصحيح أن يسمى « الحساوى » نسبة الى « الحسا » فى السعودية .

(١٤)

وقد أدى الخلاف بين اسكندرانى وواحد انجليزى على حمار . هـذا الخلاف الدموى بين الرجلين قد أعطى الانجليز عذرا لدخول الاسكندرية .. ثم احتلال مصر — وهى حادثة — معروفة فى كل كتب التاريخ !

(١٥)

وفى مسرحية « مصرع كليوباترا » لأمير الشعراء أحمد شوقى نقـاش فلسفى بين الكاهن أنشو والفيلسوف زينون .. الكاهن يحتقـر الـكتب والفلسفة .. ويرى أن الجاهل والعالم أمام الموت سواء .. بل لا فرق بين أن ينفق الحمار ويموت الانسان أو ينفق الانسان ويموت الحمار :

انشـو :

اذا كانت الكتب فى شرعكم
نظير الجواهر كفء النضـار
فانى الغنى بدر القـواقع
حين يرصع تبر العقـار
وما الكتب قوتى ولا منزلى
فما أنا سوس ولا أنا فار !

الملـكة :

حكيم لعمرى على جهـله
ظريف الحديث لطيف الحـوار

زينـون :

ولكنها حكمـة السائمات
وفلسفة غير بنت اختبـار
وكلتاهما لا تقوى الشعور
بحب البقاء وخوف الدمار

انشـو :

رويدك مولاى بعض السباب
فليس السباب سبيل الكبار
هب الليل طـال فقطعتـه
بدرس وأصبحت تفنى النهار
واقبلت بالكتب تطـوى الطوال
وتنشر فى اثرهن القصـار
وزدت على الأرض علم السماء
كبار كواكبها والصـغار
اذا ما نفقت ومات الحمـار
أبينك فرق وبين الحمار ؟!
طبعـا لا فرق !

منتهى القرف واليأس من القراءة والكتابة فيكون الانسان سوسا يأكل الحبر أو فأرا يأكل الورق ، أو حمارا على ظهره كل ذلك .. دون أن يصبح انسـانا .

فالثورات جعلت الحمار انسانا ، والطغاة أعادوا الانسان حمارا !

(١٦)

وخجلت من أن اذهب الى أطباء الفكر وكهنة التاريخ : العقاد وطه حسين والمهندس الشرباصى والشيخ الباقورى . ولكن لم أستطع الا أن اذهب للأستاذ العقاد : قل لى يا أستاذ ؟ .

ـــ نعم يا مولانا ..

ـــ قل لى ماذا ترى .. وماذا يجب ان أرى ..

ـــ لا مفر يا مولانا .. الا ان تنشغل حتى تذهب هذه الغمة !

ولم اقل له أننى انشغلت بدراسة عن الحمير ـــ حمير أعماها العنف وحمير اعماها البطش .

ـــ بماذا يا أستاذ ؟ بقراءة العبقريات التى كتبتها .. بقراءة الكتب الصوفية والزهد فى الحياة .. باختصار الطريق الى العالم الآخر ، مادام الأمل أصبح ترفا فى هذا العالم .. بماذا ياأستاذ ؟.. أننى لم ادرس من الفلسفة الا ماينفخ فىعظمة الانسان وقدرته على الاختيار..وحريتهالتى أحس انها كالهرم على كتفى .. كنت احسها .. الآن احس انها حذاء ضيق .. حذاء به مسامير .. حذاء بلا نعل .. ونعلى هو التراب والزلط فىالشارع.. حذائى فى رأسى يا أستاذ طوق من حديد .. من شوك .. تاج من الخزى لأننى غير قادر على شىء .. بماذا يا أستاذ ؟ بالتـــردد على المســـاجد والكنائس .. أكنس الأرض على الذى فى بالى .. أنكش شعرى وادعى عليه دعوة ولبة فى ساعة مغربية !

والذى قاله الأستاذ العقاد كالذى قاله الأســـتاذ لطفى الســـيد : كالذى قاله الأستاذ حسن البنـــا عندما خطب فى جمعية الاخوان المسلمين بامبابة ـــ وكلامهم جميعا اسعد واحدة من أذنى عندما دخلها ، واسعد الثانية اكثر عندما خرج منها !

***

واستعدت ما قاله العقاد عندما فصل من عمله فعاد الى اسوان : وصلت الى اسوان كالساهر الذى طوى الليل بغير راحة ، ثم ركن بجنبه لحظة الى طرف الفراش .

« كنت أجور على جسدى ولا اعرف لهذا الجور حدودا اتراجع دونها.

« تجمعت المتاعب دفعة واحدة وبدا لى كأننى مريض بكل داء .وتملكتنى فكرة الموت العاجل ، فأدهشنى انى لم اجد فى قرارة وجدانى فزعا من هذه الفكرة ، وكدت اقول لنفسى اننى اطلبها .

« وكانت صدمة يأسى أشد من صدمة مرضى ..

« واشد ما أصابنى من هذا اليأس انه كان يأسا من جميع الآمال . ولم يكن يأسا من أمل واحد . كان يأسا من معنى الحياة ، ومن كل غاية فى الحيـــاة .

« .. هو الموت اذن ، كما استقر فى خلدى بلا اثر ولا خبر .. وهو الموت اذن ، أمضى اليه صفر اليدين من مجد الأدب ومن مجد الدنيا ! » .

نعم يا أستاذ ــ صدقت !

(١٧)

وكان عندنا فى ريف الدقهلية ظاهرة « التجريس » ومعناها : الفضيحة ونقول : يادى الجرسة ..

فكان اذا سرق احد يجعلونه يركب حمارا بالمقلوب .. ويزفونه وذلك بدق الأجراس حتى يلتفت اليه الناس وتعم فضيحته وعقابه أيضا !

وأول مرة رايت فيها التجريس ، عندما ضبطوا مدرسا للرسم فى مدرسة المنصورة الثانوية . وقالوا انهم وجدوا عنده فتاة عارية يرسمها .. موديل .. كما يفعل الطلبة فى جميع كليات الفنون الجميلة فى العالم .

ولم يركبوه حمارا . وانما صبغوا خديه باللون الأبيض والأحمر ــ وبعض الناس كان يدق الحلل بالملاعق وبعضهم كان يحمل جرسا .

وكان ذلك تعديلا فى التجريس ، لافتقادهم الى الحمـــار .. مع أن الحمار كان موجــودا : ذلك الذى اصدر قرارا باغيــا طاغيا على هــذا الفنان المسكين !

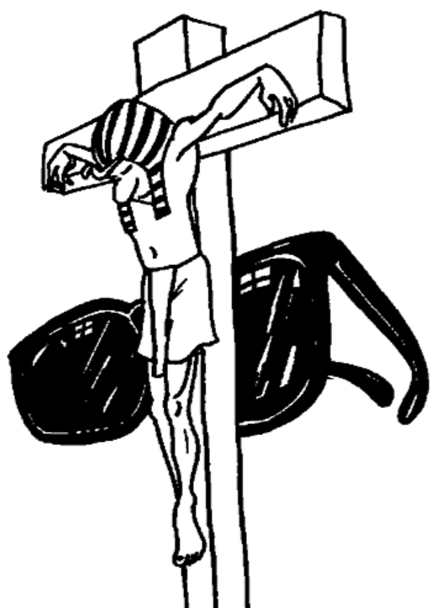
(١٨)

ولم اجد موضوعا آخر انشغل به .. فلم يعد امامى الا الهرب من مصر . وذهبت الى بور سعيد أركب الموج الى المجهول !

□□□

الحركة الواحدة والعشرون

للرئيس عبد الناصر!



الحركة الواحدة والعشرون للرئيس عبد الناصر!

كما تقول أم كلثوم : غلبت اصالح فى روحى !

ولكنى لم أستطع . فالعلاقة بين عقلى وبينى غريبة .. لم اعد أعرف كيف يمكن التفاهم معه .. كيف أعرف منه ، عنـــه .. مرة أجده مثل صقر دموى المنقار ، ومرة أجده يمامة وادعة الأصابع .. أحيانا القى له برموش عينى ، وأحيانا أرمى له الحبوب والسنارة معا .. ما الذى يريد ؟ فلسفة ؟! لا يريد .. ولا أدب ولا فن ولا تاريخ ولا شطرنج فقط هذا الهذيان . لماذا ؟ انه فى حالة عصيان مدنى ..

انه مثل الكوكو الذى يخرج من ساعة الحائط .. كو .. كو .. مرة مرتين وثلاثا ثم يدخل .. وانظر الى ساعتى فأجد أن الكوكو له توقيت آخر .

ولكن ما الذى اريده من عقلى .. لا شىء الا ان اوقفه مرة والى الأبد .. انه مثل « طائر الشوك » الاسترالى .. ذلك الذى عندما يموت فانه يظل يطير ويحلق بعيدا حتى يجد شجرة للشوك .. ويختار من شوكها واحـــدة عمودية .. ويظل الطائر يلقى بنفسه على هذه الشوكة .. ثم يفســـح لها مجالا من ريشه الذى ينتزعه بمنقاره حتى يتعرى تماما .. ومرة واحدة وبكل

ما تبقى لديه من صحوة الموت ، يلقى بنفسه على الشوكة التى تنفذ فى قلبه ومعها يصرخ أجمل الحانه .. وينزف دما ويموت — ارفع مستويات الموت !

قال لى على أمين : اشغل نفسك بشىء ما .. اى شىء !

وعلى امين ليس مثلى . انه يحدد الاشـــياء ويسميها هكذا : أمامك شهران تتعلم فيهما الكتابة على الماكينة .. وشهران آخران لتكتب اسرع .. وشهران لتكتب باللمس .. وشهران لتكتب دون نظر الى اصابعك .. وبعد ذلك سوف تجد انك اختصرت من وقتك ووقت عمال المطبعة وأخبار اليوم ٨٠٪ .. ولو فعل كل الكتاب والمحررين لأمكننا اصدار ثلاث مجلات .. حاول .. اسمع كلام على أمين !

ولكن اذا توافر كل هذا الوقت فما الذى افعله به .. ثم من الذى يريد ان يكون عنده وقت .. وما معناه ؟ عندى انا أو عند عقلى الذى لا اعرف أين هو من رأسى .. وأين انا منه .. ولـــكن على أمين عنـــده هو واخوه مصطفى أمين هـــذه القدرة العجيبة على امتصاص الصـــواعق .. عندهم سوست تمتص المطبات وتجعلها دغدغة خفيفة . كيف ؟

وانشغلت . ورحت أسأل : عندما اصدر الرئيس جمال عبد الناصر القرار بفصلى او حبسى .. كيف اشار بيده .. وهل هو عادة كذلك .. واذا كان يريد ادخالى السجن ، فكيف كان يفعل ذلك ؟ ثم من الذى ترجم هذه الاشارة من ذراعه أو من يده أو أصبع منها على انه الضـــياع فى الشارع وليست الاقامة فى البيت وليس الواحات أو القلعة او السجن الحربى ؟

ووجدتها بداية غامضة . وكان من الضرورى أن أحددها .. فالعقل لا يستطيع أن يمشى الا فوق علامات .. مسافات منتظمة .. من الأرض ومن عقارب الساعة . فلتكن شاغلى الجديد .

ولم اعرف كيف ادرس ذلك عند كل الحكام فى كل العصور .. انني فى حاجة الى عقلى لكى يدلنى . وهو لا يفعل . فأنا فى حاجة الى عقل آخر لكى اهز عقلى وأديره وأطلقه وانطلق وراءه .

كان زميلى فى الدراسة وبلدياتى : محمد المصرى يعمل فى الشـــئون العربية برياسة الجمهورية وبعد ذلك فى مكتب سامى شرف السكرتير الخاص للرئيس للمعلومات أو للشئون العربية او لكل الشـــئون . قلت له : كيف يصدر الرئيس قرارا تافها ويخرب بيت اى انسان ..

— لا افهم !

— كيف اصدر الرئيس قرارا بفصلى بعد الذى نقله اليه على صبرى. كان واقفا ؟ جالسا ؟ نائما ؟ واضعا ساقا على ساق ؟ راضيا عن نفسه ، متعاليا على كل الناس ؟ كيف اكد القرار بحركة من ذراعه ؟ يده .. اصبع واحدة .. اثنتين .. مع لمسة لأنفه أو لذقنه او لاذنه ؟ أو واضعا يده فى جيبه .. كيف ؟ من الذى يدلنى على ذلك .

وضحك . واضاف قصصا حقيقية لا استطيع روايتها . وهذه القصص نقلها عن الرئيس نفسه . عن الذى فعله الرئيس فى الليالى السابقة على الثورة .. وعلى غضبه على محمد نجيب .. وليلة العدوان الثلاثى .. وانه فى ذلك مثل كل الناس . وهو — اى الرئيس — لانه لم يقرأ فى علم النفس يندهش لحالته هذه .. وانه سمع من على صبرى جانبا من كل هذا .. ولولا هذه الصلة العميقة بينه وبين على صبرى ما روى له هذه الحكايات العجيبة.

ولم أعرف من محمد المصرى كيف كان الرئيس — بالضبط — يحرك ذراعيه .. فقال كلاما سمعناه عن هتلر : ان الناس حول الرئيس لا يقدرون على النظر الى عينيه .. فاذا فعلوا عجزوا عن رؤية هيئته كلها !

وفى ذلك الوقت كان لى صديق ايطالى اسمه : فردى . يقيم فى بولاق .. يعرف المستقبل اذا وضع بينك وبينه كرة من الزجاج .. ينظر اليها وينظر اليك ويقول لك : نحن مشغولون بالسفر .. لن نسافر هذا العام .

وهو يقول : نحن .. يقصد انه وانت معا . فهو يتكلم بلسانك .

قلت له : يا فردى عندك كلام تقوله ؟

قال : عندى .. انت مغفل !

مفاجأة ان ينفذ بهذه السرعة الى أعماقى . قلت : لماذا ؟

— لانك تتصور ان هذه هى نهاية الدنيا ..

وانك انتهيت . وانك الآن عند حافة الكرة الأرضية . وانك تبحث عن اى انسان ، اى شىء ، يدفعك الى الهاوية وتموت .. ثم تلعن المجرم الذى قضى عليك .. مع انك انت الذى تستدرج الناس الى ان يفعلوا بك ذلك .. أو تستدرج نفسك الى هلاكك ..

ـــ لا افهم !

ـــ بل تفهم . ولكنك لا تريد .. لماذا لا تقف على رجليك .. وعلى يديك .. وتصلب طولك .. كل هذه بركات من عند الله .

وتذكرت أن فردى مكسح .. وأن يديه ترتعشان .. وانه اذا وقف انكسر .. واخجلنى ذلك ونهضت . ولكنه أشار أن اجلس قائلا : انا زاهد فى الدنيا . انت تعلم .. انا راهب أحمد الله .. واعيش على البيرة والفاكهة والصلوات وما أكسبه أعطيه للفقراء .. ولم اتعلم الا النظر فى قلوب وعقول الناس ، والباقى بركة من الله .. ولم أفقد الأمل .. وانت اضعت كل الأمل من أول .. آه ..

لقد حاول ان يحرك احـــدى ساقيه ليقـــول : من أول شلوت !

ثم اقترب ليقول : لأى شىء جئت ؟

قلت : اريد ان اعرف منك كيف كان الســـيد المسيح يحـــرك يديه واصابعه عندما يتحدث الى اتباعه ؟

ـــ كيف ؟ لا أعرف .. دعنى ابحث .. ولكن لماذا ؟

ـــ خطر لى أن أدرس وأن أحلل ون اشغل نفسى بشىء لا ينفع !

ـــ انا أدلك على شىء ينفع .. اننى أرى انك سوف تعود الى عملك.. ثم سوف تنتقل الى مكان آخر .. سوف تعود ..

ـــ متى ؟

ـــ بعد سنة ..

ـــ سنة ؟!

ـــ المهم انك سوف تعود .. هـــذا عظيم .. وأن ذلك بعد سنة .. هذا عظيم .. فهل من الصعب عليك ان تستعيد رجولتك وأن تتذكر ما وهبك الله من الصحة والموهبة .. لو كنت انا المسيح لصلبتك الآن وغرست المسامير فى كل مكان الا رأسك .. لكى تتعذب بعقلك لمـــا أصاب جسمك !

شتيمه ؟ اهانة ؟ حب ؟ احتقار ؟ عار ؟ خرجت ولم أعد !

قابلت صديقى محمد المصرى قال : عندى مفاجأة لك !

ـــ ماهى ؟

ـــ كيف تكون مفاجأة اذا أطلعتك عليها .

وسرنا فى ســوق التوفيقية .. فى شارع جــلال .. عمارة قديمة والسلالم مثل اسنان عجوز اسرف فى التدخين ومصاب بالسكر ، وفوق الســطوح وجدنا عددا كبيرا من الســيدات .. وقال محمد المصرى : الست فيفى موجــودة ؟

وخرجت لنا ســيدة نحيفة انها السيدة فيفى كركور الأرمنية قارئة الفنجان . وســمعتها تهمس فى اذنه وتقول : لم يحضر مسيو محمد .. لا هو ولا زوجته .. بعد جنابك بنصف ساعة .. تفضل .. تفضل حضرتك .

وجلسنا وجاءت القهوة فاترة ربما لكى نشربها بسرعة حتى لا نضايق العشرين ســيدة فى انتظار دورهن . ثم تقدمتنا ودخلت غرفة . وأمسكت فنجانه هو . فأشار أن تقرأ لى فنجانى . ونظرت فى الفنجان وقالت : ولا يهمك يامسيو .. كله ســوف يكون أحسن .. اوه .. انت زعلان كثير جدا .. ماما زعــلان أكثر كثير ..

وكنت على يقين من أن أمى لا تعرف ماذا حــدث .. ولكن تأكدت ان ما قالته السيدة فيفى صحيح تماما فزاد حزنى على نفسى وعليها . هل محمد المصرى ، كرجل مخابرات ، يتابع نشاط بعض الناس عن طريق قارئة الفنجان ؟ ممكن . فأكثر اللاتى والذين يعملون فى الكف والفنجان والأرواح يتقاضون مرتباتهم من المباحث والمخابرات — فى كل الدنيا !

وضايقنى أن يكون صديقى محمد المصرى كذلك — ولكن هــذا اكل عيشه . وهذا عمل وطنى — انه واحد من الذين يدافعون عن الأمن القومى .

قلت لمحمد المصرى : عندى سؤال ؟

قال : وانا عندى جواب .

ووقفنا على السلم نعترض الطالعين والنازلين . وهو يشرح لى كيف يتحرك الرئيس عبد الناصر وهو واقف .. وهو جالس وهو نصف نائم فى السرير .. وأن أكثر حركاته برأسه وكتفيه وبذراعه كاملة — كأن ذراعه بلا كتف وكأن كفه بلا اصابع — هذا آخر ما اهتدى اليه من سؤال عدد كبير من الذين حوله .

وتعلقت من اذنى كثيرا وطويلا وعميقا كلمات الأخ فردى ..

وفى يوم جاءنى ساعى مكتبى ومعه خطابات ورسائل . وفتحتها ووجدت ابراهيم سعده ، وكان طالبا فى سويسرا ومحررا فى مجلة « الجيل » مازال

يواصل كتابة قصص الناجحين من ابناء مصر فى أوروبا .. وكان من عادته ان يكتب مقالاته على الماكينة ، مع ان خطه العادى جميل جـدا . وكانت عباراته حارة ملتهبـة . انه يتحدث عن الناجحين ويريد أن تنتقل حرارة العبارة الى قلوب الشباب فيذيبوا الحديد ولأول مرة احسست انه يحدث واحدا ورائى .. ليس أنا فليس عندى استعداد ان أسمع قصص النجاح، ولا أعرف كيف كانت ولا كيف تكون .. وتمنيت لو أعدت اليه مقالاته كلها مع هذه العبارة .. انشرها فى سويسرا ..فقد استولى الرئيس عبدالناصر على رصـيد الناس من الأمل ، ومدخراتهم من الشجاعة !

وجاءنى صـديق أديب من بور سعيد « ف .. » وقال انه يعرف على صبرى عائليا . وأنه سأل وتحقق من أن الرئيس عبد الناصر : عندما يكون غاضبا فان يده تسـبق لسانه .. أما ألفاظه فلا يصدقها عقل .. وأما حركة أصابعه فحدث عنها ولا حرج .. وأهم حركات أصابعه انه يحرك أصبعه الوسطى الى اعلى والى أسفل .. وحتى لا يكون اى سوء فهم . فانه يؤكد كل حركة بكلمة .. وليس من الضرورى أن يقدم تفسيرا لذلك .. فليس هو الـذى يفسر أو يبرر .. انه يأمر فقط !

اذن هى أصبعه الوسطى ..

وكان الأمبراطور الطاغية كاليجولا اذا قرر اعدام أحد أمسك اذنه اليمنى بيده اليسرى واستدار ليصدر حكما دون أن يرى المحكوم عليه .. وقبل أن يعود الى وضعه السابق تكون الضحية كومة على الأرض ..

وكان نابليون يفضل ان يصدر أحكامه واقفا حتى فى مجلس الوزراء.. أى يظل جالسا طول المناقشة وسماع وجهات النظر فاذا جاءت لحظة القرار انتفض واقفا ليكون اطـول واعلى وأسمى من الجميع ثم يستند بذراعيه على المنضـدة ويحنى راسـه الى الامـام ويكون القرار .. فاذا انحنت الرءوس أمامه . انتصب واعتدل واستقام ورفع يـده اليمنى وقد ضم اصابعه جميعا دليلا على القـوة والحسم والحـزم فاذا حاول أحد من مستشاريه أن يستوضح . هنا تتباعد أصابع يـده كأنها كانت نائمة فى كفه ثم راحت تصـحو واحـدة واحدة .. وتنيب عنها أصبعه الوسطى فيعترض الامبراطور على أى اجتهاد أو محاولة لذلك !

وكان من النصائح التى قالها العرافون للنسـاء حـول نابليون :

لا تطلبن منه شـيئا الا اذا كان جالسا حين يكون هادئا مستسلما أما اذا وقف : فلا كلمة ولا رغبة .. ولا حتى قبلة .. فانه يكون مثل بندقية تم حشوها وأصبعه على الزناد !

تقول ماريا فلافسكا عشـيقة نابليون البولندية : أكون فى حضنه .. فيكون للكلام أى مدلول سياسى .. فجأة أجـد أصـبعه الوسطى قد انغرست فى لحمى .. ولا تخف وطأة هـذه الأصبع الا بعد أن يشرح وجهة نظره .. ولاحظت أنه يفعل ذلك فى يقظته أيضا !

قلت للأخ فردى : تعرف حيـاة القديس فرانشيسكو .. قديس الرحمة والمحبة .

ـــ طبعا . أنا فرانشيسكانى كما تعلم . يعجبك ؟

ـــ جدا وقـد زرت مدينة اسيزى التى عاش ومات فيهـا ورأيت الكنيسة .. ووقفت طويلا أمام الجـدران التى عليها كل الحيوانات التى أحبها .. وليس على الجدران انسان واحد ..

ـــ ماذا تريد ؟

ـــ سوف أقـول لك حالا .. لقـد رأيت يد القديس مرفوعة الى السماء .. يدا واحـدة .. وكانت بلا أصابع .

ـــ أنت ماتزال تبحث عن أصابع الملوك والرؤساء .. اننى لا أذكر اننى رأيت هـذه اللوحة .. ولكن دعنى افتش عنها .. هات هذا الكتاب .. (وأشار الى أحد الرفوف) سوف تجد كل اللوحات التى رأيتها فى الكنيسة ..

قلت : هـذه اللوحة . هـذه بالـذات .. انظر الى ذراع القديس .. الى كفه .. بلا أصابع ..

قال : طبعا بلا أصابع .. فلا يصح أن تشير بأصابعك للرب .. فقط أن تجعل يدك كفا وعاء .. طبقا .. منديلا .. تهبط عليها بركة الرب .. فالأصابع والاشارة بها انما تكون للناس وبين الناس .. صحيح أن كل لوحات وتماثيل السـيد المسيح فيهـا ذراعان وكفان وأصابع .. ولكن ليس من بينها واحدة يشير بها الى الانسان .

— وما رأيك فى هـذه اللوحة .. ان القديس يشير الى السماء وقد ظهرت فى كفه أصابع ..

— نعم .. بعد أن نزلت البركة عليه .. وبعد أن انتقلت الى الناس .. عادت كفه وبها أصابع بشرية !

وهززت راسى أحاول أن ادفع هـذه المعانى الى راسى .. ولكنها انحاشت .. ووقفت طيورا تنقر قفصا . ولم تدخل !

وفى مكتبة « الكتاب الفرنسى » الـذى تملـكه الآنسة ايفيت فرزلى صاحبة الفضل الكبير على مئات المثقفين المصريين بتوفيرها الكتب وروحها المرحة ، وسـعة صدرها ، التقيت به .. انه واحد مجهول . ولكنه قدم نفسه هكذا : أنت لا تعرفنى . ولكنى اعرفك واعرف عنك .. واريدك ان تعرفنى .. جرب !

— ما الذى أجربه ؟

— ما سوف أقوله لك .. أنا مدرس للغتين الفرنسية والألمـانية فى باريس .. ولى اهتمـامات فلسـفية .. ولـكن اهتمـامى الأكبر هو « الطاروط » .

ولم أكن قد سمعت هـذه الكلمة من قبل . ولا أعرف ما هى . وفى فندق سميراميس جلسنا فى غرفته .. انه السيد موريس مورجنتال . أما « الطاروط » فهو نوع من الكوتشينة فى حجم الكف .. ١٧ ورقة أو ١٩ ورقة . وهو يقرأ الطالع بعد قراءة الكف والفنجان ويقلب أوراق الطاروط .. قال لى : عرفت من ايفيت فرزلى ماذا جرى لك .. ولكن الأوراق تقول أن الرئيس عبد الناصر لا يعرفك .. ولا يضـمر لك شرا من أى نوع .. ولو اتسع وقته ما أصـدر هـذا القرار .. ولـكن أنت تعلم انه ليس عند الرؤساء وقت كثير لأشياء كثيرة واكثر خطورة وأهمية .. لا تؤاخذنى.. وقرارات الرؤسـاء تجىء نتيجة للعرض الحسـن أو السىء لمبرراتها .. وكان من الممكن ان تروح فى ستين داهية لو أن الـذى قرأ مقالك ذهب الى الرئيس وقال له : لم اقرأ اسوأ ولا ألعن ولا أخبث ولا .. ولا .. ولكن يبدو أن الـذى عرض مقالك فعل شيئا اهـون من ذلك كثيرا .. لعله اراد ان يحط من شأنك وشأن كل ما تكتبه انت ومصطفى امين وعلى امين وربما كل الكتاب العرب ، فكان رد الفعل هينا لينا هكذا .

وقبل أن افكر قال : انا أعرف على صبرى ..

ولذلك فهو يدافع عنه وعن القرار ؟!

قلت : انت لاتريد منى ان اقــول آه يجوز ان هذا قــرار تافه عند السيد الرئيس ، ولكن هــذا التافه قد عصف بى .. أطاح بى .. فككنى .. اذابنى .. خلطنى بالهواء والتراب .. اعاد تفنيط حياتى .. ثم مسح الأرقام والصور من كوتشينة مستقبلى .. هل هــذا هين ؟

وروى لى قصصا بشعة من حياته .. وكيف أنه وأباه وأمه واخوته قد نجوا بمعجزة من افران الغاز النازية .. ورغم كل ما حدث ، وكل اثر فى النفس ، فعنده أمل .. وهو الآن أحسن الف مرة مما كان عليه فى الأربعينات ونهاية الحــرب .

ونسيت هــذا الرجل ..

ولكن بعد ذلك بسنوات ذهبت لزيارة عبد الحليم حافظ فى مستشفاه فى باريس وكنت عائدا من المغرب . وروى عبد الحليم حافظ انه معبليغ حمدى قابلا حاخاما يهوديا فى باريس. هذا الحاخام—موريس مورجنتال—قد اكد لهما ان « أم أمين » حرم الموسيقار محمد الموجى — قد وضــعت له « عملا » فى ملابســه .. وفى سريره . ولذلك يجب أن يكشف هــذا « العمل » ويحرقه .. واتصل عبد الحليمحافظ بأخته السيدة علية شبانة وطلب اليها أن تغير ملايات الفراش .. وأن تحرق «العمل» الذى سوف تجده حتما. وكتبت انا هــذه القصة فى « آخر ساعة » . ولم يستطع عبد الحليم ولا بليغ حمدى ان يعلقا عليها .. فلم اسمعها وحدى ولكن كان معى المصور المشــهور فاروق ابراهيم .

وكنت قد عرفت من موريس مورجنتال ايضا : أن الطالع يمكن قراءته على الأصابع .. وأن كل مواليد برج يستخدمون اصبعا معينة عن الكلام . وسألته عن برج الرئيس عبد الناصر .. فأكد لى انه يستخدم اصبعه الوسطى — بالضــبط !

* * *

وتذكرت لوحات الفنان العظيم ميكلونجلو التى رسمها فى « سقف » كنيسة القديس بطرس بالفاتيكان فيما بين ١٤٧١ و ١٤٨٤ فظل معلقا من السقف حتى تصلبت عروق رقبته وبرزت غدته الدرقية .. وفى هذه التحفة حكى لنا قصة خلق الكون .. انفصال النور عن الظلام .. وخلق الشمس والقمر .. وانفصال المياه عن الأرض .. ثم خلق آدم .. وحواء .. والخطيئة .. والخروج من الجنة .. وطوفان نوح .. ونوح عندما صنع النبيذ واسرف فى شربه ..

ثم أكمل هذه التحفة الرائعة منذ أكثر من ٤٧٥ عاما (١٥١٢ — ١٩٨٨) ويوم احتفل الفاتيكان برفع الستائر عن هذا العمل الجليل ، نسوا دعوة الفنان ليشهد انبهار الناس بهذه المعجزة الفنية .

فما الذى تذكرت .. تذكرت .. اللوحة التى يصور فيها ميكلونجلو كيف خلق الله آدم .. أو كيف أحيا الله آدم بعد أن خلقه تمثالا من اللحم والعظم والدم .. وفى اللوحة تجد الله — سبحانه — على شكل رجل كبير السن كثير الحيوية والنور يرتدى ثوبا ورديا وقد مد ذراعه القوية . ومن كفه امتدت أصبع .. هذه الأصبع لمست اصبعا مستسلمة لآدم .. بل كان آدم كله فى حالة انتظار للحياة والنور والعقل .. وكانت الأصبع الرابعة السبابة .. ومن اصبع الله — سبحانه — الى اصبع آدم انتقلت الروح .. لمسة الحياة .. رعشة الوجود .. ومضة الحكمة .. الأمر بأن يكون فكان .

وفى أذنى ما قاله على أمين : اشغل نفسك بأى شىء !

ووجدت كتبا كثيرة تشغلنى : ما كتبه الأساتذة أميروزو وارجيلى وبابنهاور وشيكوريل عن « الجسم كأداة للتعبير » وهايز وسليجمان وفايس وفوجلين وآخرون .. واحصيت حركات الأصابع فكانت ثلاثين .. اخترت منها عشرين لعلى أجد منها حركة السيد الرئيس :

١ — أن تقبل اطراف اصابعك .. أو كأنك تفعل ذلك . وهذه الحركة دليل على الامتنان . ولا أظن الرئيس عبد الناصر قد فعل ذلك ! ولا اظننى !

وهى مختصرة للقبلات . وبعض القبائل البدائية لا تعرف تقبيل الأصابع ولا حتى تقبيل الفم وانما تقبل الأنف واحيانا الأكتاف كما تفعل دول الخليج والسودان .

والقبلة هى صورة متطورة للتغذية عن طريق الفم عند الحيوانات .. اى التغذية من فم الى فم .

وكذلك الرضاعة عند الصغار ..

وهناك قبلات للخد واليد والركبة وطرف الثوب والقدمين .. والأرض أمام القدمين .. والجزمة . وكلما هبطت القبلـــة كان ذلك دليـــلا على الضعف والـــذل .

وهنـــاك التقبيـــل فى الهـــواء لأن الشىء الذى يجب تقبيله بعيـــد أو مرتفع أو هو حرام .. ولذلك نجد أننا نقبل اليد ونلقى بالقبلة من بعيد .. وكان ذلك مألوفا عند الاغريق والرومان من ألف سنة .. وكان الاغريق يفعلون ذلك عند الخروج من المعابد .

والملك كان يلقى للشعب بقبلاته فى الهواء .

٢ ـــ لف أصبعين حول بعضهما البعض .. وهـــذا دليل على انك موافق .. او دليل على التفاف الأمـــور بعضها حـــول بعض .. اى هناك مشكلة « لعبكة » ويقال فى بعض الدول الأوربية : أن التفاف الأصبعين يشير الى محاولة رسم صليب .. تصلب الأصبعين للوقاية من الأرواح الشريرة..

أو انه هو الحظ وذلك عن طريق ربط الأصابع والأشياء بعضها ببعض .

٣ ـــ الأصبع فـــوق الأنف : دليلا على السخرية « على الأنفة » .

٤ ـــ ضم الأصابع معا : وهـــذا يدل على التساؤل .. ويقال ايضا : انها دليل على القوة والتماسك .. او جمع الشتات .. او هى دعوة الى الهدوء .. أو التأنى ..

٥ ـــ الضغط بالأصبع خلف الخد : وفى بعض الدول الأوروبية يرون فى ذلك دليلا على التفوق ..

٦ ـــ سحب جفن العين الى اسفل : دليلا على انك فى غاية اليقظة وانك لست نائما على أذنيك .. وانما انت مفتوح العينين لكل ما حـــدث وسوف يحدث أو هى دعوة الى ذلك .. أو كأنك تقول : اننى لم أسمع هذه القصة وانما رأيتها بعينى هـــذه ..

٧ ــ رفع الكف الى اعلى مع ثنى الذراع ــ وليس لها دلالة واضحة عندنا . ولكن فى الدول الأوروبية لها دلالة جنسية .

٨ ــ مد الكف والكشف عنها قليــلا .. هــذه الحركة الأوروبية الواسعة الانتشار ليست معروفة عندنا معناها الخــروج من الأزمة .. الخروج كالشعرة من العجين .

٩ ــ استدارة الأصابع على شكل دائرة .. خاتم .. أو حرف (o) فى التعبير (o.k) .. أى موافق .. أو معناها : ســوف تــرى .. أو مضبوط .. أو : أنا أعجبك !

١٠ ــ جعل الأصابع على شكل قرنين : وواضح أنها اهانة جنسية !

١١ ــ جعل الأصــابع على شــكل قرنين أفقيين ــ ولهــا نفس المعنى السابق !

١٢ ــ ضم الأصابع مع اخراج واحــد من بينهــا : ولها فى أوربا دلالة جنسية !

١٣ ــ ارجاع الرأس الى الــوراء ، ولا يهم مــكان اليدين وحركة الأصابع .. ومعنى هــذه الحركة : الرفض .. أو اللامبالاة .. أو الاعتراض أو التعالى .. فنحن عندما نرفض فاننا عادة نهز رؤوسنا وندفعها الى الوراء مع ضم الشفتين .

ومن أجمل الدراسات لهذه الحركة بالذات ما كتبه العالم الكبير داروين فى كتابه « التعبيرات العاطفية للانسان والحيوان » الــذى صــدر سنة ١٨٢٧ . فقد لاحظ داروين أن أشكال الرفض موجودة غريزيا عند الطفل ، فهو عندما يرفض ثدى أمه أو الطعام فانه يبعد فمه ثم رأسه كله الى الوراء ــ بعيدا عن الثدى أو عن الملعقة .

ونحن لكى نحمى رؤوسنا بعيدا عن الخطر ، فاننا نبعدها .. أو نميل بها الى الوراء .

١٤ ــ لمس الذقن بالأصابع : وهى من عادات الرئيس عبد الناصر ونهرو وهتلر وموسولينى واتاتورك والراقصة بديعة مصابنى وريا أخت سكينة .. ومعنى هــذه الحركة : عــدم الاهتمــام .. اللامبــالاة .. الرفض .. عدم التصديق .. او معناها : ان لحيتى طالت وأنا أستمع الى حكايتك .. فهى حكاية مملة ــ والرؤساء عندهم ملل !

١٥ ــ مسك الخدين : ومعناها أن فلانا هــذا مريض .. شاحب ..

وكان الجمال عند الاغريق فى الوجه البيضاوى .. وهــذه الحركة اشارة الى هــذا المعنى .

١٦ ــ رفع أصبع الابهام بمــا يــدل على الموافقة .. انك على الطريق الصحيح .. أو انك أحسنت .. أوكى ..

والشبان الآن يرفعون هــذه الأصبع يعترضون السيارات ويطلبون اليها ان توصلهم الى أى مكان .. وعند الرومان كان الأمبراطور يستخدم هذه العلامة ، أمرا بتنفيذ العقوبة : خنقا .. شنقا .. حرقا .. أو اطلاق الوحوش على الضحية !

ولا اظن الرئيس عبد الناصر قد فعل ذلك .. ولا حتى عندما أمر باعتقال الوف الاخــوان المسلمين والاخوان الشيوعيين .

١٧ ــ الضغط بالأصابع على الأسنان برفق دليلا على الاهانة وعلى الاحتقار .. وأن الشخص الــذى تتحدث عنه لا شىء .. لا يمكن أن يدخل الفم .. بل هو أحقر من ذلك ..

وكان الأمبراطور فريد ريش باربا روسا (ذو اللحية الحمراء) هو أول من ابتدع هــذا التعبير وله قصة بشــعة . فقد كان يرغم الأسرى على أن يستخرجوا بشفاههم التفاحة التى اودعت فى مؤخرة أحد البغال ــ ولم نعرف هــذه الوفرة فى التفاح !

فهذا الانسان المشار اليه ــ اذن ــ ذليل حقير !

١٨ ــ الضغط بالأصــابع على جانب من الأنف معناه : موافق .. استطيع أن اشم ذلك .. ويقال معناها : احترس ..

أو أن لى انفا شديد الحساسية واننى اشم شيئا مخيفا فى الهواء !

الحركة العشرون : على شــكل الحرف اللاتينى (V) هذه العلامة قد نشرها تشرشل أثناء الحرب العالمية الثانية رمزا للنصر . ولكن تشرشل ليس أول من ابتدعها .. وانما ابتدعها محام بلجيكى اسمه فيكتور لافلاى فى يــوم ١٤ يناير ســنة ١٩٤١ . وكان يرسم هذا الحرف (V) على الجدران لكى يغيظ الألمــان .

وقد اتخذت الاذاعة البريطانية وكذلك اذاعة « صوت اسرائيل » حرف (V) للدلالة عليها مستخدمة اشارات مورس : نقطة نقطة نقطة وشرطة .

ثم استخدم الألمـــان هـــذا الحرف أيضا ، ولكن جاء ذلك متأخرا عن تشرشل الـــذى نشره فى العالم !

وكان الرئيس جمال عبد الناصر لم يصب بعد بمرض « بيرجر » .. جاءت الاصابة بعد نكسة سنة ١٩٦٧ . وكنت أول من كتب عن هذا المرض فى « أخبار اليوم » بعد خمسة أيام من وفاته يوم ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ . ومن اعراض هـــذا المرض انه يؤدى الى « تخثر » فى شعيرات الساق مما يجعل الرئيس عبد الناصر عاجزا عن الحركة . وقد اصيب الرئيس عبد الناصر بالسكر بعد النكسة مباشرة فـكان السكر والاسراف فى التدخين والتوتر المستمر وتعاطى المنبهات والمنومات سببا فى اصابته بمرض « بيرجر » الذى تجده فى القواميس الطبية تحت عنوان : مرض اليهود . فهو منتشر بين اليهود فى بورصة نيويورك ولنفس الأســـباب .. وقـــد سافر الرئيس عبد الناصر سنة ١٩٦٨ الى العلاج فى سخالطوبو بروسيا ولا يهم ما الذى اعطاه الأطباء . ولكن المهم « طريقة » العلاج .. ولم تـــكن الطريقة متطورة .. ولذلك ساءت حالة الرئيس عبد الناصر مما أدى الى وفاته — ويرى الزعيم الصينى شوان لاى أن الروس قتلوه !

ومن أعراض هـــذا المرض ايضا أن صاحبه بسبب عجزه عن تحريك الساقين فانه يبالغ فى حركة الذراعين .. لأنه يخشى أن يصيبهما ما أصاب ساقيه . ولذلك يسرف فى تحريك الذراعين واليدين والأصابع . بل انه حريص على أن يفتح يديه ويمد أصابعه فى كل مناسبة حتى يصعب عليه أن يمسك شـــيئا بيديه ، تماما كما أن مخه أيضا يعجز عن « عقل » الأشياء اى ربطها والامساك بها !

ولذلك كان من السابق لأوانه أن أبحث ان كان الرئيس قد استخدم حركة غير هـــذه الحركات العشرين .. أو استخدمها كلها فى وقت واحد ، كما نرى فى افـــلام هتلر التسجيلية . وتكون هـــذه هى الحركة الواحدة والعشرين . !!

وكان هـــذا المقال عن مرض الرئيس بداية لسلسلة ظهرت فى كتاب بعنوان : (وكانت الصحة هى الثمن) . ولم يكد المقال يظهر حتى استدعانى

السيد حسين الشافعى نائب رئيس الجمهورية . وذهبت الى بيتــه فى الدقى . وهو رجل مؤمن طيب القلب . وقــد حذرنى من نتائج هذا المقال : وقال لى : ان على صبرى يعتقد انك تغمز وتلمز وأنه هو المقصود . ولذلك أنصحك أن توضح فى مقالك التالى انك لا تقصد ذلك .

وفعلت دون اشارة الى ما قاله السيد حسين الشافعى .

بعدها بأيام اردت ان اتأكد من ملاحظاتى على تعبير الرئيس عبد الناصر بيديه عند اصــدار القرار ، فجلست أتفرج على مسلسلة تليفزيونية فى التليفزيون البريطانى لمحمد حسنين هيكل عن الرئيس جمال عبد الناصر . المسلسلة طولها ثلاث ساعات . تحدث فيها عن كل شىء فى حياة الرئيس وقراراته تساعده أفــلام تسجيلية للرئيس فى نشــاطه العــام وحياته الخاصة . مثلا وهو يلعب الكرة مع أطفاله بالبنطلون والبلوفر والشبشب بينما والــده عبد الناصر حسين بالطربوش جالس تحت الشجرة . رايت الرئيس يتحرك ككل . نصفه العلوى بنيان خرسانى متين وساقاه نحيلتان . ويتحدث الى الاطفال بكل جسمه . وبكل ذراعيه . وفى لقاءاته السياسية والجماهيرية ، لم اتمكن من ملاحقة يديه وأصابعه .. والجديد الــذى عرفته بعد ثلاث ساعات مسلية أن الرئيس فى احــدى رحلاته كان نائما فى القطار ثم أيقظوه يقولون ان الجماهير تنتظره على المحطات .

ونهض الرئيس امتنانا للجماهير . وضحك محمد حسنين هيكل كثيرا جدا : فقد وقف الرئيس لتحية الجماهير بلا بنطلون ؟!

وأغمضت عينى وراء دموع الضحك ففاتنى أن أرى كيف كانت ذراعا الرئيس وأصابعه ونسيت ان أستعيد هــذا المشهد !

□□□

.. ولكن الرئيس يريد
أن يضحك ؟!



.. ولكن الرئيس يريد أن يضحك ؟!

بدلا من أن أكلم نفسى كنت حريصا على أن التقى مع صديقى الفنــان حسن فؤاد فى مدينة الملاهى بامبابة .. هيصة .. ونحن الاثنان نتكلم وسط الضوضاء والزحام . كلامنا زعيق والعبارات ناقصة .. ونحن لا نتوقف عن الكلام دون اقناع ــ لا هو أقنعنى ولا انا . ولكننا نتشابك بالأيدى والأفكار.

اقول له : تفتكر لماذا المجىء الى الملاهى ؟ .

هو : ابدا .. ان هؤلاء الأرجوزات عمال مثلنا .. عمال دمهم خفيف.. ونحن عمال دمهم ثقيل .

انا : بل لأننا نحن أراجوزات مثلهم .. فكل مكان هو ســيرك يديره الرجل القوى .. ونحن لسنا اكثر من بهلوانات مربوطة بخيوط من اصابع الحاكم الفرد .. يلهو ويلعب كيف يشاء وفى لحظة .. واحدة اقصد فى نزوة واحدة يلقى بك وكل الذى تعلمت وكل الذى انفقته اهلك عليك وكل آمالك وآمالهم فى الزبالة .. لا منطق .. ولكنه أراد فكان له ما اراد .. ونذهب نحن الى كتب الفلسفة نبحث عن الكلمة المناسبة لما اقترفه السيد الرئيس عبد الناصر فنجد كلمات : القدر .. المصير .. نقطة التحول .. وكلهـا

كلمات كبيرة ضخمة ، لا معنى لها .. وانما المعنى الحقيقى : نزوة الرجل القوى .: والسيرك هو المكان المناسب الذى يجعلنا ندارى خجلنا فى الضحك .. فبدلا من ان نستشعر العار ، فاننا نكذب على انفسنا ونضحك على الاراجوزات ، مع انهم صورة لنا .. ونحن نضحك عليهم كأنهم اناس آخرون .. كأنهم غيرنا .. هل تعرف ماذا يحدث عندما تفاجأ بسيارة تكاد تدوسك . أنت تضحك .. مع ان الموقف لا يبعث على الضحك .. ولكن الضحك وسببه هو انك بسرعة اخفيت خوفك فى ضحكتك ، اخفيت شعورك بأنك ضحية .. حاولت ان تعلو فوق الموقف ، فبدلا من ان تدوسك السيارة كأى شىء او حيوان آخر . فانك تضحك لأنك تتفرج على واحد مغفل آخر .. وكذلك نحن فى السيرك !

هل عندما فكرت فى ان اكتب مسرحية كوميدية ، كان ذلك نوعا من الاندماج فى هذا السيرك .. او كنت احاول ان اجد شيئا مقبولا اجيب على اسئلة على امين : هه .. وماذا فعلت اليوم ؟

فهو يطالبنى كل يوم بأن انشغل بشىء مفيد . أن اكون ايجابيا . كأننى وابور زلط .. عندما وجد حائطا استدار ليحطم الظلط والحجارة فى مكان آخر .. بهذه السهولة ؟ !

وفى يوم وجدت الصحفى اللبنانى سعيد فريحة صديق مصطفى امين وعلى امين يدعونى الى بيت فاتن حمامة وعمر الشريف . وهى تسكن عمارة لوبون ــ فوق شقة على امين .. ولم اشأ أن اسأل عن سبب هذا اللقاء ــ ولم استبعد ان يكون على امين هو الذى دبر ذلك . اما الموضوع فهو ان سعيد فريحة يريد انتاج فيلم لفاتن حمامة ، تكون قصته من اعمال الكاتب اللبنانى خليل جبران . وجاء بكتاب معه أشار الى احدى القصص . وطلب منى تمصيرها بما يتناسب مع فاتن حمامة وعمر الشريف . وكانت فاتن حمامة لطيفة رقيقة . وكانت تنظر لى كممثل جديد سوف يظهر معها فى أحد افلامها . وقالت : سهلة جدا .. انت تكتب كل يوم .. وأنت طبعا تعرف كيف تبدأ وتنتهى قصة . ولكن معالجة الشخصيات وتصويرها يجب ان تكون مناسبة لى انا وعمر .

ولا اتذكر اننى شاركت فى كل المناقشات التى دارت . فأنا غير قادر على التركيز . وغير مستعد نفسيا ان اقرأ او اكتب . عاجز تماما . معوق.. هناك خلل ما وقع فى حياتى . هناك اسلاك تمزقت .. او حدث بينها

« تماس » فاحترقت فانقطـــع الاتصـــال بين راسى وبقيـــة قدراتى على عمل شيء .

وبسرعة كتبت قصة فيلم لا علاقة له بفاتن حمامة .. ثم نشرت هذه القصة بعنوان « القلب لا يمتلىء بالذهب » وأهديت هذه القصة الغنائية الراقصة الى « فرقة رضا » .. وبسرعة غريبة اتصل بى الأستاذ فؤاد الجزايرلى . وقال انه مستعد ان يكتب الحوار والسيناريو .. وفى وقت قصير فرغ من ذلك . ولم اكن جادا فى اعداد هذه القصة ولا فى أهدائها . وانما فقط أحاول أن أتمرد .. والا أكون عند حسن ظن احد من الناس .. فقد ساء ظنى بنفسى وبكل الناس . وهذه القصة ظهرت فيلما تليفزيونيا بعد ذلك بطولة المطرب عبد اللطيف التلبانى ونادية الكيلانى .

ولم يسألنى سعيد فريحة ولا فاتن حمامة . وكأنهما كانا يتوقعان أن كتبت شيئا ، أن أخبرهما بذلك . فلا فعلت ، ولا كان اتصال بيننا . وقد قابلت فاتن حمامة وسعيد فريحة بعد ذلك مرات كثيرة !

وبدأت اجدد معلوماتى باللغة العبرية . وذهبت الى أستاذ أساتذة اللغات السامية د. فؤاد حسنين فى المعادى . واخترت له كتاب « دلالة الحائرين » للفيلسوف ابن ميمون الذى كان طبيب صلاح الدين الأيوبى . الكتاب باللغة العربية ولكن بحروف عبرية . وكانت متعة فلسفية ولغوية ايضا .

وبعد ذلك عاودنا دراسة اللغة العبرية الحديثة : احمد رجب وانا . وكان يمر علينا فى البيت مدرس شاب ، وقد لاحظ تقدمى الذى اذهله .. وفى يوم قال : أنت لم تعد فى حاجة الى ، يمكن أن تمضى وحدك .

والحمد لله أنه قال ذلك . فقد كان فى نيتى ان أطلب اليه الا يجىء . ولكن حيرنى ادبه . فقد مللت هذه الدراسة الميكانيكية .

وقررت مع على حمدى الجمال ان ندرس اللغة الروسية . وســـهل لنا ذلك احمد السباعى شقيق يوسف السباعى .. فكان وقتها يعمل فى المركز السوفيتى . وقال لنا ان فى الامكان ارسال مدرس يتردد علينا فى أى مكان نراه مناسبا .. واشتريت الكتب والقواميس . وكان الدرس الأول والثانى والثالث . ورغم حرصى على ان أتعلم فقد وجدت ان دراسة اللغة الروسية فى ذلك الوقت بالذات ، تشبه دراسة اللغة الانجليزية بســـبب الاحتلال البريطانى ــ أو اللغة الألمانية مع اقتراب قوات النازية من حدود

مصر ، ورغم أنه من الضرورى أن ندرس اللغات ، أى عدد منها ، فقد ضايقنى هذا الاحساس الذى كان تصديا وترديا ـ تصديا للملل والقرف وترديا فى النفاق السياسى . مع أنه لم يكن هناك أحد أنافقه . فلا لى دور سياسى ولا أعرف أحدا روسيا لا فى المركز السوفيتى ولا خارجه . ولكن اسعفنى هذا الشعور ، فتوقفت عن دراسة اللغة الروسية .

* * *

وفى يوم اتصلت بى الفنانة برلنتى عبد الحميد .. وبصوتها الممتلىء القاطع قالت فى التليفون : سوف تعود الى عملك .. هـذا خبر أكيد .. ليست امنية . خبر .. وانا طلبتك لأؤكد لك ذلك . مبروك .

ثم عادت واتصلت بى مرة اخرى لتقول : يبدو انك لم تصدقنى . ولكن لو عرفت من الذى قال ؟

قلت : من ؟

قالت : صلاح نصر . قال لى شخصيا . وهو كما تعرف ! .

وفى الليل فى بيت مصطفى امين سـألته : يا مصطفى بيه من هو صلاح نصر ؟

لابد أن أصور لك مصطفى أمين ، ان لم تكن تعرفه فهو ضخم الجسم والراس . وأعجب ما فى راسه : عينان لامعتان حادتان قاسيتان . فيهما تساؤل واتهام .. فهما عينا وكيل نيابة وفيهما بريق ضـابط بمباحث أمن الدولة شعبة مكافحة الارهاب : اندهاش واستنكار واتهام بالسـذاجة والعبط ـ اتهامى أنا طبعا ـ وأنا لم أكن سمعت باسـم صلاح نصر . ولا أعرف ما الذى يشغله فى دولة مصر . ولا جاءت مناسبة من أى نوع تردد فيها اسم صلاح نصر .

وكأننى كفرت بالله واليوم الآخر ، فسألنى مصطفى أمين : لا تعرف من هو ؟ !

ـ والله لا أعرف !

ـ ولا قرأت اسمه ؟

ـ أبدا .

ـ واذا قلت لك من هو هل تستطيع أن تمسك أعصابك ؟ .. اذن لابد أن أربطك بالحبال قبل أن أقول لك من هو .

ــ من هو ؟

ــ مدير المخابرات العامة .. ولكن لماذا تسأل عنه ؟

وهنا تقدم على أمين بدور بابا نويل والحاكم المطلق فى عالمى المضطرب والمسئول عن اعادة العلاقات بينى وبين نفسى والعالم حولى فقال : اسمع يا أنيس .. اياك تكون قد عدت الى الاخوان المسلمين .. وفى نيتك أن تتدروش . اننى الاحظ أنك بدأت تترك لحيتك .. ومعنى ذلك أنك قررت أن تلغى مستقبلك .. وأن ترمى نفسك فى حلقات الذكر وتدوخ على قبــور الأولياء .. أين سمعت اسم صلاح نصر ؟ قل لى بسرعة دون أن تفكر .

واخترعت قصة ركيكة . فلم يقتنع على أمين .

* * *

وسألنى كامل الشناوى : ان كنت قد زرت أم كلثوم اخيرا ؟

فقلت : نعم مع احد اقاربها . مجرد زيارة .

قال : هى التى حدثتك عن صلاح نصر . ودوره فيما حدث .. أو دوره فيما ســوف يحدث .. لا تصــدق .. أم كلثوم تريد فقط أن ترفع معنوياتك .. ولكن صلاح نصر رجل كذاب خطير .. ابعد عنه ما استطعت. وقل لمصطفى أمين وعلى أمين اى كلام .. انها لعبة خطرة لا اعرف اولها من آخرها .. لا تصدق الا ما يقوله محمد حسنين هيكل فهو وحده القادر على أن يفعل شيئا . فاذا أقنع الرئيس عبد الناصر ، فسوف تنتهى هذه الأزمة !

* * *

وطلبنى على أمين فى التليفون فى « النادى الثقافى » بجاردن سيتى : ماذا تعمل .. سوف انتظرك على الغداء .

وعلى الغداء سألنى : ان كنت وجدت شيئا مفيدا انشغل به ؟ !

* * *

وفى الليل قابلت الفنانة شادية .. وهى سيدة لطيفة رقيقة مرحة . قالت لى : اسمع .. افرض انك ظللت بلا عمل سنة . سنتين .. لا يمكن أن تظل هكذا طول العمر .. اننى سمعت عن ادباء وشعراء وزعماء تعذبوا فى حياتهم .. ولكن لم يستطع أحد أن يقضى عليهم .. وســوف يذهب

عبد الناصر .. اسمع كلامى .. أنا لا ادعى اننى قرأت مثلك .. ولكن هذا شعورى .. وربنا كبير ورحيم .. وسوف تقول شادية قالت ..

* * *

وحاصرتنى المكالمات فى البيت وفى « النادى الثقافى » .. وكان المتكلم مصطفى امين وعلى أمين وعبد الحليم حافظ ود. قاسم فرحات العضو المنتدب لأخبار اليوم . والمطلوب : أن احضر فورا لبيت مصطفى امين لأمر هام . وكان الأمر هاما . ان محمد حسنين هيكل عنده أخبار جديدة . عنده ما يقوله . قال لى : اسمع : سوف تعود الى عملك . هذا قرار الرئيس أمر بذلك . ولكن كمال رفعت لا يعرف . والرئيس لا يريد أن يغضب كمال رفعت. فأنت تذهب وتطلب مقابلته . وسوف يقابلك . عنده تعليمات بذلك . أشرح ما حدث . ثم اعتذر له . واطلب منه ان يعيدك الى عملك . لديه تعليمات بأنك سوف تعود . عن طريقه هو . ولكن كل ما يجرى فى مكتبه .. كل ما يقوله لك وما ستقوله له لابد أن تخبرنى به بالدقة .. فالرئيس يريد أن يعرف كيف يتصرف .

وضحك محمد حسنين هيكل واحمر وجهه وبرقت عيناه .

قلت : متى ؟

قال : غدا ؟ وبعد ان تعود الى عملك فى أخبار اليوم سوف اتصل بك لتروى لى بالضبط ما حدث !

وعندما عدت الى « النادى الثقافى » كنت كأننى أمشى اثناء النوم .. وجاءنى صديقى محمد المصرى قال : خلاص .. غدا تذهب لكمال رفعت . ومدير مكتبه محمود عبد الناصر عنده تعليمات بذلك .. وسوف أكون فى انتظارك غدا .. لا تنس !

* * *

اذن لقد قرر الرئيس أن أعود الى عملى . ولكنه لا يريد أن يغضب السيد كمال رفعت وزير العمل والمشرف على صحف أخبار اليوم .. الرئيس الذى لا يريد أن يجرح شعور كمال رفعت ، يريد ايضا أن يضحك .. أن يتسلى .. ولا يهم من الذى يقوم بدور مهرج السيرك .. المهم ان الرئيس يريد ان يتسلى .. فضحك الرئيس مثل البرق والرعد الذى يسبق سقوط الأمطار .

* * *

وعلى أمين لا يزال يقول لى : يا اخى اشغل دماغك بأى شىء . اسمع كلام على أمين !

* * *

حاضر . اسمع كلام على أمين .

قرات من جديد مسرحية « كاليجولا » للأديب الوجودى البير كامى .

وهو الامبراطور كايوسى كاليجولا (١٢ — ٤١م) . واسمه معناه : الجزمة .. التى كان يرتديها وهو طفل صغير .. وهو امبراطور طاغية . مجنون . ومن جنونه انه اعتدى على اخواته البنـــات .. ثم بنى قصرا لحصانه . ووضع الماس والياقوت فى بردعة الحصان .. ثم عينه مستشارا لشئونه السياسية !

وفى هذه المسرحية دعا الشعراء واجرى مسابقة بينهم . فى موضوع يختاره وعليهم أن يرتجلوا أمامه .

وقد حاول الشعراء ان يتنصـــلوا من هـــذا الامتحان بأنهم ليسوا مستعدين ولكن الامبراطور حذرهم : فكما ان هناك مكافأة لمن يحســـن نظم الشعر ، توجد عقوبة لمن يتخلف عن اداء هذا الواجب — الامبراطور أمر — الامبراطور يريد ان يضحك .

كاليجولا : مستعدون يا شعراء ؟

عشيقة الامبراطور : الشعراء يتقـــدمون اثنين اثنين .. الخطوة منتظمة . الى الأمام سر .. قف !

يجلس الامبراطور . ثم يلتفت ببعض جسمه الى الشعراء ويقول : موضوع المسابقة هو : الموت ..الزمن المخصص لكل شاعر: دقيقة واحدة.

ويمسك الشعراء اقلامهم والواحا من الخشب ليكتبوا عليها .

كاليجولا : اسمعونى جيدا . سوف اطلق الصفارة .. فيتقدم شاعر الى الأمام ويرتجل واذا انطلقت الصفارة يتوقف فورا ليبدأ الشاعر الذى يليه .. مستعدون .. انا احب النظام فى كل شىء .. النظام مطلوب حتى فى الفن .. خصوصا فى الفن (يصفر) .

الشاعر الأول : أيها الموت ، وراء شطآنك المظلمة (صفارة) .

الشاعر الثانى : فى كهفك الدامس تجلس اخوات القدر (صفارة) .

الشاعر الثالث : تعال ايها الموت الحبيب (صفارة) .

الشاعر الرابع : (صفارة قبل أن يفتح فمه) .

الشاعر الخامس : حين كنت فى طفولتى السعيدة .

كاليجولا : ما علاقة السعادة بما نحن فيه الآن ؟ قل لى بسرعة .

الشاعر الخامس : أعطنى فرصة . أنا لم اكد ابدأ حتى (صفارة) .

الشاعر السادس : (بصوت مرتفع) بجراة نادرة يمضى فى دروبه الخفية (صفارة) .

الشاعر السابع : (يتقدم) .

كاليجولا : لا معك ورقة ولا قلم ؟

الشاعر السابع : لا حاجة الى ذلك .. اننى أرتجل (يقترب من الامبراطور دون ان ينظر اليه) .. أيتها السعادة التى تطهر القلب ، ايتها السماوات التى تشع الضياء .. ايتها المباهج المرتجفة بلا امل فى النجاة ..

كاليجولا : اسكت .. انت اصغر من أن تفهم العبرة التى تتعلمها من الموت .

الشاعر السابع : كنت اصغر من ذلك عندما قتلت أنت ابى !

كاليجولا : وانا الذى كنت ادخركم للشدائد ؟ ! كنت اريدكم تدافعون عنى فى خندقى الأخير .. لقد تبدد هذا الوهم ! سوف اضيفكم الى قائمة أعدائى ! .. والآن اصبح الشعراء ضدى . وهذه هى النهاية . اخرجوا بانتظام . وانتم خارجون امسحوا بالسنتكم كل ما كتبتم على هذه الألواح التى اتسخت بشعركم الركيك .. انتباه .. الى الأمام ، معتادا مارش ! (الصفارة لها ايقاع منتظم .. الشعراء يخرجون ويلعقون الألواح) اتركونى جميعا !

ثم ينفجر الامبراطور ضاحكا .. ويظل يضحك حتى يموت !

آه لو حدث كل ذلك !!

* * *

ولا يزال على أمين يلح فى ان أشغل راسى بأى شىء ، حتى ولو لم يكن نافعا — انه مايزال خائفا من أن أهرب بالانضمام الى الاخوان المسلمين .. أو خارج مصر .

قرات مسرحية « قمبيز » لأمير الشعراء شوقى .

الملك امازيس يسأل الحارس تاسو :

اين اقزامى ؟ امض

جىء بأقزامى ..

(تدخل الأقزام)

تحيات لفرعون

سلام الشمس للملك

سلام قائد الخيل

سلام حامى الفلك

الخادمة : (تقول للأقزام)

هلموا رقصة الحور

اذا طفن بها تور

سما العز والنور

أحد الأقزام :

نحن القزم

أنصاف ناس

وبالشبر نقاس

قزم آخر :

نحن الدمى واللعب

بنا يتم الطرب

قزم ثالث :
هلموا رقصة الموتى
من الكهف الى الكهف
ودوروا كالتماثيل
من الرف الى الرف
قزم رابع :
حبو الصغار على اليد والركب
هنا الطعام هيا كلى
هنا الشراب هيا اشربى
جميع الأقزام (تتجه الى الملك أمازيس)
عش يا ملك
مع الزمن
مطوقا مصر المنن
وذائدا عن الوطن !

* * *

ثم مسرحية شعرية لأمير ادباء فرنسا : فيكتور هيجو . هذه المسرحية منعتها الرقابة . هجم البوليس على المسرح وانزل الممثلين وطارد مؤلفها . انها مسرحية « الملك يتسلى » كان ذلك سنة ١٨٣٢ .. حتى عندما اتخذها الموسيقار الايطالى فردى أساسا لأوبرا « ريجولتو » منعتها الرقابة عندما عرضت لأول مرة سنة ١٨٥١ فى البندقية وطلبت تغيير اسم الملك .

انه الملك فرانسوا الأول . وعنده مهرج يضحكه كل ليلة . ويغريه أن يتهجم على العذارى فى كل بيت .. ويدفعه الى الفساد والانحلال أملا فى القضاء عليه .. فهذا البهلوان الذى هـو مستشار الملك ، هـو قاتل الملك .. وهو ايضا رجل عنده أخلاق .. يريد أن يعاقب الفساد عند أعلى المستويات .

وكانت للبهلوان ابنة جميلة . جعلها تعيش بعيدا عن الفساد الملكى. ولكن الملك تسلل اليها . ونفذ كل تعليمات أبيها وكل وصاياه لكى يوقع الفتاة

فى غرامه . وعرف الأب . وغضب وقرر أن ينتقم من الملك .. وتآمر عليه . وحمل جثمانه فى شوال ليلقى به فى نهر السين .. وانعكس ضوء القمر على وجه الضحية . وأراد الأب ان يشمت فى الملك الطاغية الفاسد .. فوجد أن الضحية هى ابنته .. لقد خدعها الملك وجعلها تنام فى فراشه .. أو هى التى أحبت الملك فأرادت أن تفديه .. والدموع تغمر الأب والحزن يصعق الجميع ..

أما الملك فراح يتسلى بفتيات أخريات !

* * *

ثم ماذا يحدث لى لو أن الملك لم تعجبه النكتة بينى وبين كمال رفعت ؟

ماذا يحدث اذا لم أفلح فى أداء هذا الدور .. فلا أنا ممثل . ولا أنا مقتنع . ولكن أريد أن أعود الى عملى .. الى عقلى .. فان فكرة الهجرة من مصر ما تزال تراودنى وتستبد بى .. ولا يحضرنى من كل احداث التاريخ الا محفوظات الطفولة .. فالخوف واليأس يردنا الى الطفولة .. الى خوف الأطفال .. الى البحث عن حضن الأم .. الى أبيات قراتها صغيرا فى « مقامات الحريرى » .. أرددها وراء والدى كالببغاء :

سافر تجد عوضا عمن تفارقه
وانصب فان لذيذ العيش فى النصب

ما فى المقام لذى لب وذى ادب
معزة ، فأترك الأوطان واغترب

انى رأيت وقوف الماء يفسده
فان جرى طاب ، وان لم يجر لم يطب

والبدر لولا أفول منه ما نظرت
اليه فى كل حين ، عين مرتقب

والأسد لولا فراق الغاب ما اقتنصت
والسهم لولا فراق القوس لم تصب

والتبر كالتـرب ملقى فى اماكنــــــــــه
والعـود فى أرضـــــــه نـــوع من الحطب
فان تغـــــرب هـــذا عـــز مطلبـــــــه
وان أقـــــام فـــلا يعـــــلو الى الرتب

وتذكرت يوم هربت من والدتى ، فكانت تسرف فى ضربى لأسـباب تافهة ولجأت الى خيام الغجر .. ونمت .. وكنت طفلا . وطلبت أن يزوجونى احدى الفتيات الصغيرات التى اعتدت أن ألعب معها . ولابد انهم ضحكوا .. فلم أكن أطلب الهجرة فقط أو الهرب وانما الاقامة بينهم . وأعادونى نائمـا الى والدتى ! .

* * *

ماذا يا على أمين لو لم يضحك الملك ؟!

ان الكثير من الملوك لا يضحكون ..

فالملكة اليزابيث الأولى (١٥٣٣ — ١٦٠٣ م) كان لها بهلوان طـويل اللسان .. طال أكثر مما يجب فطردته . وعرفت القرف فى غيابه . فأعادته وفى يوم سألته : هه ؟ . وماذا يقول عنا الناس .. أما زالوا ينتقدوننا ؟ !

أجاب البهلوان : لن أذكر كلمة واحدة مما أجمع عليه الشعب !

فطردته الملكة .. انها لم تضحك لهذه النكتة !

والملكة فكتوريا فى سنة ١٨٨٩ قالت عبارتها المشهورة : ولـكننا لم نضـحك !

قالتها بعد أن ظل البهلوان يحكى نكتا من الشرق والغرب .. واقفـا على رأسه .. نائما على الأرض ووجهه للحائط .. مرتديا ملابس الرجال والنساء والملوك والشياطين .. فانهار فاقد النطق !

فقالت عبارتها الشهيرة .. ولم تتنبه الى أن البهلوان قد مات !!

* * *

وفى القرن الرابع عشر الف الأديب الايطالى بوكاتشيو (١٣١٣ — ١٣٧٥) مجموعته القصصية الرائعة « ديكاميرون » أى الليالى العشر .. فقد انتشر الطاعون فى بلاده فاختبأت سبع نساء وثلاثة رجال . وقرروا ان يسلوا أنفسهم بأن يروى كل واحد قصة . فكانت مائة قصة قصيرة .

وفى الليلة السادسة كان البطل سيدا اصطاد أوزة . وطلب الى الطاهى ان يبدع فى صنعها وتهيئتها لضيوف أعزاء . وزارت الطاهى صديقة له . فنزع ساق الأوزة وقدمها لها .. وعندما راى الضيوف ان الأوزة بساق واحدة اندهشوا . وانزعج سيد البيت . فقال له الطاهى : يا سيدى ولكن الأوز له ساق واحدة !

السيد : مستحيل !

الطاهى : بل ممكن . وأستطيع أن أقدم لك الدليل . تعال معى .

وخرج الاثنان الى الحقول فوجدا أن الأوز يقف على ساق واحدة وسط الماء . فأطلق السيد عيارا ناريا . فظهرت الساق الثانية لكل الطيور .

قال السيد : ارايت ايها الكذاب ؟

الطاهى : يا سيدى لست كذابا .. ولكنك نسيت ان تطلق النار قبل أن تأكل الأوزة !

وضحك السيد لهذه الاجابة الطريفة الذكية وعفا عنه !

ولكن نفرض أن السيد لم يضحك لما سوف أقول ويقال لى ؟ !

＊＊＊

وفى مبنى الحكومة المركزية بمصر الجديدة . قابلت محمد المصرى وقلت له : أريد ان أقابل عبد المجيد فريد .. أنا أعرفه .. فقد تقابلنا معا نحن الثلاثة فى بغداد فى مكتب عبد الكريم قاسم .. هل تذكر .. انه رجل ظريف .. ويقال خدوم جدا .. تذكر كيف كان يقول لنا : اذا دخلتم مكتب أى مسئول عراقى فلابد أن تدقوا الباب .. لابد من استئذانهم .. انهم حساسون جدا .. واذا خرجتم لابد من التحية والاستئذان .. انهم شديدو

الحساسية .. وكان عبد المجيد فريد يبالغ كثيرا فى كل ذلك .. اريد أن اقابله اليوم . ضرورى .

ــ لمـــاذا ؟

ــ لابد .. ارجوك .. انا عندى احساس اننى اراجوز .. مطلوب أن اكون اراجوزا .. مطلوب لتسلية السلطان .. اريد ان اترك هــذا البلد .. لا أنا سياسى ولا أريد .. ولا انا صاحب جريدة .. ولا انا فاهم ماذا حدث .. ولا أريد أن أفهم .. أرجوك ساعدنى على الخروج من هذا البـــلد ..

ــ يا أخى انتهى كل شىء .. ان لم تنفع مقابلة كمال رفعت اليــوم ، فأنا مسئول عن عودتك للعمل .. او خروجك من مصر ..

ودخلنا معا مكتب محمود عبد الناصر مدير مكتب كمال رفعت .. ولا تربطه صلة قرابة بالرئيس جمال عبد الناصر .. انه رجل طيب مجامل . ملىء الصوت غليظ الحاجبين . لم يكد يرانى حتى نهض وصافحنى . وسألنى: تشرب ماذا ؟ لحظات وسوف تقابل سيادة الوزير .. تشرب ماذا ؟

قلت : قهــوة .

قال : لا .. عصير ليمــون ..

قلت : عصير ليمون . شكرا .

ثم خرج محمد المصرى . وتركنى وحدى مع محمود عبد الناصر الذى حاول أن يقول أى كلام الى ان يحين موعدى مع الوزير كمال رفعت ..

ونهض بسرعة . وفتح الباب . وكان الوزير على يقين من ذلك . انه احمر الوجه ارناؤوطى . صوته هامس ، مثل كل المصابين بالصـــمم أو بشىء من ذلك . وكان مصابا بالتهاب مزمن فى الاذن الوسطى . ولذلك فليس متوازن الكلام والحركة . وكان يتحدث طول الوقت . وصوته خفيض. ولا يعنيه كثيرا أن تسمعه . وحتى اذا تكلمت فهو لن يسمعك . ولذلك يمضى فى كلامه . وحتى اذا سمعك ، فهو لا يعطيك انطباعا بانه قد تابع ما تقول . وانما هو مستغرق فى أفكاره والتعبير عنها . وهى بالطبع أهم كثيرا ممــا تقوله أنت .. والحقيقة انه لا يسمعك وليس حريصا على ذلك .. وهــو

ككل أدعياء الفكر يبدو مثاليا . أو يريد أن يؤكد لك ذلك . وهو يبــــدو متواضعا ، أو يحرص على أن يقنعك بذلك .. ولقد استعان كمال رفعت بعدد من خبراء الشئون السياسية من سوريا ولبنان ليكتبوا فى صحف أخبار اليوم ، يعلمون الشعب المصرى وكتابه وأدباءه ، كيف يفهمــون مشــاكل بلادهم .. وكيف يقنعونهم بأن المصريين أصحاب المشكلة لا يعرفون لهــا حجما ولا حــلا .

وكمال رفعت يدق على عصب عريان فى بناء المواطن المصرى : احترامه للأجانب .. وسبب هذا الاحترام ، عدم ثقته بنفسه أو احتقــار لذاته ..

فظهرت على صفحات الأخبار وأخبار اليوم وآخر ساعة أسماء : ملحم عياش ومازن البندك ويوسف البندك وكلوفيس مقصود .. وهذا الأخــير جلس اليه الرئيس عبد الناصر فى احدى المرات خمس ساعات مبهــورا بما يقول . وفى يوم من الأيام نشرت صحيفة « الأهرام » حديثا أجراه دكتور لويس عوض استاذ أساتذة الأدب والنقد والليبرالية الفكرية ، واحــد احرار الفكر اعزاء النفس .. ولم نفهم من كل هــذا الحديث الطــويل العريض الا أسئلة لويس عوض . ولكن لمــاذا ؟ لأن السيد الرئيس مفتون بالفسيفساء اللغوية لكلوفيس مقصود وكل من يحمل لقب « دكتور » .. مثل اعجاب كمال رفعت بالخبراء الشوام فى السياسة المصرية ؟ !

سألنى كمال رفعت : هه .. أخبارك ؟

قلت : الحمــد لله ..

قال : عامل ايه ؟

قلت : مش عارف أعمل حاجة .

قال : تشرب ايه ؟

قلت : طلبت ليمونا فى مكتب الأستاذ محمود عبد الناصر .

ودخل الليمــون ..

قال : هه .. كيف حالك ؟

اذن لقد حانت اللحظة المتفق عليها . هنا يبدأ الدور الذى جئت من أجله . اما أن أنجح واما أن أظل فى الشارع .. اما ان أعود الى مكتبى ، واما أن أبحث عن محمد المصرى وعبد المجيد فريد واهرب نهائيا من على أمين ومن مصر .. لقد جاءت اللحظة التى يجب أن يضحك فيها كاليجـولا وأمازيس والامبراطور فرنسوا الأول .. والسيد الرئيس ..

قلت : والله يا سيادة الوزير أنا مظلوم .. أنا مثل واحد أراد أن يلحق الأتوبيس فراح يجرى بالقرب من بنك يسرقه اللصوص !

وضحك الوزير .

اذن نجحت . مبروك . مبروك . وضحك الوزير والدنيا كلهـا أشرقت . فجأة اقتحمت الشمس مكتب الوزير .. ووراءها الأشـجار والأزهار بل سمعت العصافير .. لقد دبت الحياة فى الدنيا كلها .. الدفء والنور والضوضاء .. وتحول سجاد الغرفة الى موج يعلو ويهبط .. والمقعد تحتى مثل طوق نجاة .. وصوت فى داخلى يقول : الأرض .. رأينـا الأرض .. اننا قريبون من الشاطىء .. مبروك أقولها لنفسى .. اشـد على يدى بيـدى ..

وظهر فجأة على اسماعيل الامبابى . سكرتير الوزير ..

أما بقية الأحداث فليست واضحة .. هل صافحت الوزير .. هـل شكرته .. هل هو الذى عانقنى بعد أن عفا عنى .. هل أنا الذى عانقتـه امتنانا لمـا قال وما فعل .. أو ما توهم أنه قال وفعل .. ووجدتنى فى سيارة على اسماعيل الامبابى فى الطريق الى أخبار اليوم .. ماذا قال .. ماذا قلت .. هل صحيح ما قاله من أنه كان يتوقع ذلك .. وأنه هو الذى أقنع الوزير بأننى لست مثل مصطفى أمين وعلى أمين .. فهما من شـياطين الصحافة والسياسة .. واننى ضحية حبى لهما .. ولكن ما ذنبى .. أنهما خطيران .. يلعبان بالنار .. وحسابهما مع الرئيس شخصيا .. أما أنا تماما كما قلت : كنت أجرى وراء الأتوبيس .. فظن رجال الأمن أننى أحـد الذين سرقوا البنك وهربوا .. هاها .. هل هو الذى ضحك ؟ هل أنا .. هل القدر ؟ هل هو صوت الرئيس يقهقه .. ولكن الرئيس عادة لا يقهقه .. أن ضحكته « نفاثة » .. لها فحيح .. فهى عبارة عن دفعـات للهـواء

تخرج من الحلق .. واهتزاز للراس والجسم كله .. سمعته وهو يضـــحك يوم دعانا بعد تأميم الصحافة ..

ووقفت السيارة أمام اخبار اليوم .. ونزل سكرتير كمال رفعت وأنا فى يده .. والمحررون والاداريون فى ذهول لا يفهمون . ودخلت مكتبى .. تلك الغرفة المهجورة . وتركنى سكرتير الوزير . وعاد الى مكتبه يشرح ما حدث . وكيف أن هذا تتويج لجهوده الشاقة لدى الوزير . وجهود الوزير لدى الرئيس ..

هل افقت من الدوخة ؟ وفجأة رن جرس التليفون وكان المتحــــدث محمد حسنين هيكل ، ضاحكا يقول : هه .. هاها .. هاها .. خــلاص فى مكتبك . مبروك . تعال انا فى انتظارك عند مصطفى امين ..

وقبل أن اغادر المكتب قطعت اسلاك « الدكتافون » ـ وهو جهاز قد زودت به غرف كبار الكتاب ليحدثنا او يسمعنا السيد سكرتير الوزير .. اى أننا جميعا سكرتيرون له ، أو دون ذلك . وهو لا يكلف نفسه ان يطلب .. او يدير قرص التليفون .. وانما يضغط على زرار فتخرس الأصوات فى اية غرفة لنتلقى الأوامر .. أو نشعر بأنه هناك .. انه يسمع ويرى .. لا تخفى عليه خافية فى الدور الأرضى ولا الأدوار التسعة الأخرى .. ومزقت سلك هذا المتجسس علينا . وكان ذلك أول مظهر من مظاهر التمــرد .. أو قطع اية صلة بالوزير وسكرتيره .. وكانت دعوة لأن يفعل الآخـــرون مثلى .. أو يلفوا حبال التليفون حول عنق السكرتير الذى هو « بردعة » السيد الوزير الذى هو بهلوان السيد الرئيس !

وفى بيت مصطفى أمين وجدت : هيكل ومصطفى وعلى أمين وقاسم فرحات والسيد أبو النجا وعبد الحليم حافظ ..

مبروك .. مبروك .. بالأحضان .. والقبلات .. هه ؟ ـ الـــكل يسأل : ماذا حدث .. ماذا قلت ؟ كيف قال .. بالضبط .. كيف كان وجهه كيف كان صـــوته ؟ .

وتعاطفت مع الوزير ، فهو الآخر مثلى .. لا حول له ولا قـــوة .. ضحكوا عليه .. وضحكت عليه .. وسوف يضحك علينا جميعا الســـيد الرئيس ..

قلت لهيكل : بعد الليمون .. أنا قلت له اننى مظلوم .. أنا مثل واحد طلع يجرى وراء الأتوبيس بجوار بنك بيسرقوه .. فضحك الوزير . ووجد فى هذا الرد حيثيات الحكم لعودتى الى عملى ..

وضحك هيكل كثيرا . وامتدت يده الى التليفون .. وطلب الرئيس جمال عبد الناصر : وقال له .. انيس رجع الى مكتبه .. وطلب من كمال رفعت الصفح والعفو .. (لا اعرف ماذا يقول الرئيس لهيكل) .. هاها .. هاها .. اهم شىء .. انه قال له .. انيس هو الذى قال .. أنا مظلوم .. الخ .. هاها .. هاها ..

وانتهت المكالمة . وبسرعة خرج محمد حسنين هيكل .. والباقى لا يهم بعد ذلك .. شعرت بهبوط شديد .. وخيبة أمل .. المفاجأة سحقت أعصابى .. أو كأنها جعلتنى أشعر بأن كل الذى فكرت فيه ودبرته . لا قيمة له .. كل هذه الجهود العقلية النفسية ، وكل الخيالات والاحلام والرغبة فى الانتقام والتخطيط للهرب .. كل ذلك ولا حاجة .. كأننى ذاكرت كل الكتب وجاءت الأسئلة من خارج المقرر وأسهل مما كنت أتصور .. كأن سهر الليالى فاشوش ..

شىء عجيب تلك النفس الانسانية : عذاب ونار وأرق وأمل فى أن أعود الى عملى ، أو الى أى مكان آخر غير أخبار اليوم ، فلما عدت أصابنى الاحباط والقرف كأننى فشلت تماما .. مع أن الذى حدث غير ذلك .. ولكن يبدو أن أعصابى لم تتحمل هذه الشحنة الكهربية العالية جدا فذابت .. ولذلك لم أعد أشعر بأى شىء ..

ذهبت الى كامل الشناوى لكى نفكر فى سهرة فنية ننسى فيها ما حدث قال : لا داعى لأن نذهب لمصطفى أمين الليلة ..

ثم ضحك وقال : ما رأيك نذهب الى قصر عابدين .. وتسجل اسمك فى دفتر التشريفات لشكر الرئيس .. عندى فكرة أحسن .. ألم يكن صوتك جميلا .. اذن .. اذهب وحدك الى قصر عابدين .. ووقف وقفة عسكرية وردد أغنية عبد الحليم حافظ : يا سيدى أمرك أمرك يا سيدى ..

ماقدرش أخالفك لأنى عارفك ..

تقدر تحط الحديد فى ايدى ..

.مرك يا سيدى ..

هاها .. هاها ..

* * *

وبعدها صدر قرار بوقفى عن الكتابة ..

ولـمـا سألت الوزير د. عبد القادر حاتم عن السبب ، أشار بيـده ان أسكت .. وكان الباب مفتوحا فخرجت ..

□□□

كابوس لن يعود . !



كابوس لن يعود .!

بصعوبة وجدت مكانا على الرصيف أمام مسجد السلطان أبى العلا .. وانفسحت لراسى موطئا بين الأحذية . وصليت ركعتين تحية للمسجد عندما انفجر الميكروفون الذى كان معطلا : اللهم أخرب بيته !

ويردد الناس : آمين ..

ويقول الخطيب : اللهم فرق بينه وبين زوجته ..

ويردد الناس : آمين ..

الخطيب يقول : اللهم احرق كبده على ولده .

والناس وقد اشتد حماسهم : آمين .

وكأن الذى سوف يصيب هذا المسكين اقل مما يجب فيعود الخطيب فيقول : اللهم احشره فى نار جهنم الى ابد الآبدين ..

والناس يؤكدون حرصهم على هـــذا المصـــير فيقولون : آمين يارب العـــالمين !

سألت جارى الذى تحول وجهه الى لعنة من لحم ودم : من هذا ؟

فأجاب دون أن يرانى : واحد شيوعى !

وعادت الكآبة الى وجهه . كأنه أطفأ أنواره وسحب الستائر الكثيفة حتى لا أراه .. أو حتى لا يؤدى حوارى الى ابطال مفعول هذه اللعنات .. فاتجهت الى جارى الآخر : من هذا ؟ ..

قال : واحد وجودى ..

قلت : وجودى .. أو شيوعى !

قال : واحد اسمه انيس منصور !

وبسرعة نظرت الى بيتنا المواجه لمسجد السلطان أبى العلا .. ما يزال البيت قائما .. ونظرت الى الاعلان المرسوم على الحائط .. انه اعلان عن مشروب كينا بسليرى الحديدية .. الاعلان يصف من يشرب هذه الكينا بالقوة .. ولابد أن بيتنا قد اكتسب هذه الصلابة من مجرد الاعلان عن القوة. والاعلان عبارة عن رجل امتلأ حيوية ونشاطا لأنه اعتاد أن يشرب الكينا وتحت الاعلان هذه العبارة : الرجل الذى استطاع أن يقول لزوجته : لا ..

وبيتنا هو البيت الذى استطاع ان يقول لخطيب مسجد أبى العلا : لا ..

ولم أتساءل كثيرا ان كان يجوز أن يلعن الخطيب شخصا بهذه الصورة الفظيعة دون أن يشرح للسادة المصلين أسباب هذه الادانة ؟ ومن المؤكد أن المصلين لم يفكروا لحظة واحدة فى أن كان هذا يجوز أو لا يجوز .. انه هو الامام وهم يرددون وراءه دون تفكير .. فماذا يحدث لو قمت من بين الصفوف ورحت لامام المسجد وقلت : الله يخرب بيتك انت .

انها صورة جديدة من صور « المباهلة » عند العرب ــ أى الملاعنة .. أنا ألعنه وهو يلعننى .. والذى يصيب أحدنا ، يكون دليلا على انه يستحق ذلك .. فالمصاب هو الكاذب والذى لم يصب هو الصادق .. فهل من الممكن أن « اخرب بيته ويخرب بيتى ؟ » .

ولكن لماذا هذا الاستعداء على واحد من الناس ؟

لأن احدى المجلات نشرت مقالا قديما لى عن « الوجودية » وحرية أن تقول لأى شىء وأى احد : لا ..

ثم أعود وأنظر الى بيتنا ، فلا أجد شيئا قد طرأ عليه .. ولا البيت وقع على الأرض راكعا نادما .. اذن هى أصداء ناشزة أطلقها امام المسجد

بلا وجه حق على من لا يعرف من الناس .. ولا يعرف ما الذى أصـــابه ، ولا يزال يصيبه .. وسوف يصيبه ايضا !

وكنا نتصور ونحن نتردد على صالون الأستاذ العقاد أن بيته ســوف ينهد فوق رؤوسنا ، بسبب القضايا الفلسفية والدينية التى يصدمنا بها .. حدث كثيرا أن اختلسنا النظر الى السقف والأستاذ العقاد يقول عندما يستبد به الغضب والغرور : ما هذا الكون ؟ !

ولم يقع سقف صالون العقاد ولا بيته .. ولا كذلك بيتنا من الداخل او من الخارج ، لمثل هذه الادعية من خطيب جاهل على مؤمن مجهول .

وان كانت التوراة حدثتنا فى سفر « يشوع » ان الرب طلب الى يشوع ابن نون محاصرة مدينة أريحا برجُاله .. وان يأتى بسبعة من الكهنة ينفخون فى البوق .. وان يردد الناس وراءهم فى نفس واحد كلمة : امين .. فاذا فعلوا سقطت اسوار المدينة . ونفخ الكهنة فى الأبواق وهتف الناس فى نفس واحد فسقطت الأسوار من مكانها .

فاما أن تكون أصواتهم بهذه القوة ، والجدران بهذا الضعف ، واما أن تكون السماء قريبة الى هذه الدرجة فاستجابت لهم .. بل أن يشـــوع نفسه طلب من الشمس الا تغرب والقمر الا يتحرك .. فوقفت الشمس واستقر القمر .

قال يشوع : يا شمس دومى على جبعون ، ويا قمر على وادى ايلون .. توقفت الشمس فى كبد السماء ، ولم تعجل للغروب نحو يوم كامل .. وكان ذلك أول مرة يسمع (يستجيب) الرب لصوت انسان .

وفى القرآن أنبياء يدعون على شعوبهم فيستجيب الله لدعائهم . قال نوح عليه السلام : رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ، انك ان تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا الا فاجرا كفارا .

وخطيب مسجد ابى العلا . لا هو نبى ولا أنا كافر بما يؤمن به !

وتساءلت : يا ترى لو كنت أنا خطيب هذا المسجد ودعوت على الرئيس عبد الناصر دون ذكر اسمه ، وردد الناس ورائى وانا مظلوم ومثلى عشرات الألوف هل تسقط جدران ملكه ، كما سقطت جدران اريحـــا .. أليست دعوة المظلوم أقوى من المدافع ؟

ان الطبول الداوية والصرخات العاوية أمام جدران أريحا قد اسقطتها

تماما كما تحطمت نوافذ القاهرة والجيزة عنـــدما اخترقت طائرة اسرائيلية حاجز الصوت فوقنا .

وانشغلت كثيرا بالاجابة عن هذه القضية النفسية الدينية الفلسفية : هل يمكن أن يؤدى الدعاء على أحد أو لأحد ان يهدم بيتا أو يقيم قصرا ؟ هل من الممكن ان نهدم بيتا بمجرد أن نتمنى خرابه وهلاك أصـــحابه ؟ وكيف ؟

علم النفس الحديث يقول : ممكن ..

وأكبر دليـــل على ذلك : الحســـد ..

فأنت عندما تحسد انسانا ، فأنك تتمنى له زوال النعمة : المـــال والولد والجمال والصحة والسلطة !

وكل واحد منا عنده قصة عن صديق أو جار حسود .. يكفى أن تراه فى الصباح لتقع لك كوارث طوال اليوم .. ونعرف الســـيدة التى اذا نظرت الى فستان جديد احترق او اشتبك به مسمار .. ونعرف ونسمع عن الذى يحدث للشقة الجديدة والبدلة الجديدة والســـيارة الجـــديدة . فما الذى يصيبها ؟ تصيبها عين الحسود .. كأن أشعة الموت تخرج من هذه العين ، تصيب الهدف .. بل اننا نتندر بقصة الرجل الأعمى القـــادر علىٰ الحسد أيضا . يقال ان رجلا أعمى استأجره احد الفلاحين لكى يحسد جواميس رجل آخر . فقال له الأعمى : عندما تقترب الجواميس والأغنـــام قل لى .. فلما اقتربت الحيوانات قال الفلاح للأعمى أنها قريبة الآن .. فسأله : أين هى بالضبط ؟ .. قال الفلاح عند الترعة ! .

فقال الحسود : ياه .. وانت تستطيع أن تراها على هذا البعد !

فأصيب الفلاح بالعمى .. وعادا الى القرية يتساند أحدهما على الآخـــر !

اى انه من الممكن أن « تصيب » بالنية .. بالرغبة .. بالدعاء !

وقد وجد علم النفس للحسد والحقد والرغبة فى موت وخراب بيوت الناس اسما هو : كنيسيس .. أو كينتكس — أى تحـــريك الأشـــياء عن بعـــــد !

وقد تحدث العالم كله عن الشاب يورى جيلر الذى يستطيع ان يلوى الحديد دون أن يلمسه ، وانه يكفى أن يلوى هو اصابعه فوق الحديد ليلتوى ـ أى انه يلويه ويحطمه عن بعد . وهى قدرة خارقة عند بعض الناس .. فمن يدرى ربما كانت للناس معا ، هذه القدرة .. قدرة الذين حطموا جدران أريحا .. وأحمد الله أن أحدا من المصلين فى مسجد أبى العلا لم يهبه الله هذه القدرة المدمرة ! وان كان بيتنا ليس فى حاجة ، لكى يسقط من خارجه ، كما انهار من داخله ، الى هذا العدد الكبير من الناس .. التى طاشت دعواتهم بين الأرض والسماء .. أو كانت كالتراب تافهة وكثيرة ، ولكنها لا تكاد تعلو عن الأرض ، حتى تتهالك عليها ! .

* * *

وتضايقت طويلا وكثيرا ، ولا أكذب اذا اعترفت بأننى لم أفلح فى أن أتجاوز هذه المحنة .. صحيح اننى أكلت وضحكت وانشغلت . ولكن لا أكاد أنفرد بنفسى حتى تحط على رأسى غربان المعانى ، وتنعق فى أذنى بوم المخاوف : لا بقاء فى هذا البلد .

أما أصوات المعارضة والرفض فى داخلى فليست قوية : عيب .. وهل أنت طفل ؟ سوف تواجهك متاعب أشد وأكثر .. هل تقع فى أول حفرة ثم لا تنهض .. كيف ؟ .

وكنت قد فكرت فى أن أكتب « مذكرات » .. وكتبت صفحة أو صفحتين ووجدت أن مشاعرى كلها مفتعلة .. واننى غير قادر على أن أوضح نفسى لنفسى .. ثم ما قيمة وأهمية ما أكتب .. ثم لماذا انا حريص على تسجيل ذلك .

قال لى على امين : انه كتب مذكراته .

يجوز . ولكنى لا أستطيع . ثم ما الذى اقوله ؟ اننى لست طرفا فى كل الذى حدث . فلا انا جلست فى مواجهة الرئيس عبد الناصر . وتحاورنا واختلفنا . وحسم هو هذا الخلاف بيننا . بقوة .. بقوته هو .. لا شىء من ذلك قد حدث ، وانما هى صاعقة نزلت فوق دماغى . وكل الصواعق تجىء من فوق . فاذا كان هو السماء ، فلست أنا الأرض .

ولا صدقت على أمين وهو غارق فى آماله واحلامه بما سوف يفعله فى مستقبل الصحافة : مجلات جديدة .. وطائرات لنقل الصحف .. واجهزة الكترونية لطبع الصحف فى كل عواصم المحافظات وعواصم العالم .. وتزود كل محرر ومصور بتليفون فى سيارته لكى يكون على صلة بالمؤسسة فى اى وقت وفى اى مكان . وفجأة وقف على أمين ووضع يده على كتفى وسألنى : تثق بى ؟ .

قلت : نعم .

سألنى : أو هل ثقتك تزعزت بسبب ما حدث ؟ .

قلت : اثق فيك .

ـ وتعرف انى أحبك ؟

ـ أعرف .

ـ وأن المصائب والمشاكل هى « ملح » طعام الحياة .

ـ هل هناك شىء جديد ؟

ـ نعم . أصدر الرئيس جمال عبد الناصر قرارا بوقفك عن العمل !

هل كنت ألف حبل اليأس حول عنقى .. وفجأة سقطت على الأرض تحت قدمى .. فأنا مشنوق بعد ذلك .. والذى يقوله على امين ، ولا ابينه بوضوح مثل الذى يقوله الجلاد للمحكوم عليه : ان كانت نفسه فى شىء قبل أن يموت .. لولا أن على امين قال لى ذلك بعد تنفيذ حكم الاعدام !

ورأيت فيما يرى النائم أو المغمى عليه أن على امين يقول لى : ولا يهمك .. هذه المحنة سوف تمضى .. الخ .

واستجمعت كل غضبى وقرفى وغيظى فى سؤال واحد : ولكن لماذا ؟

على أمين : لا أعرف الآن .

انا : متى سنعرف ؟

على امين : يمكن غدا أو بعد غد ..

انا : هل بسبب شيء كتبته .. او شيء قلته . .أو هي وشاية .. او الرئيس يقلينا على نار هادئة ، امعانا في العذاب .. المرة السابقة كان فصلا . وهذه المرة وقف عن العمل . والمرات القادمة سجن .. فلمــاذا البقاء في هذا البلد ؟ ان أحدا لا يسأله عما يفعل . ولا يجرؤ !

* * *

وكان الرئيس جمال عبد الناصر قد أصدر قرارا بعودة مصطفى امين وعلى أمين الى العمل في « دار الهلال » .

أولا : ابعادهما عن أخبار اليوم والقعود بهما في البيت .

وثانيا : اعادتهما للعمل الصحفي في « دار الهلال » .. وطلبت أن أنقل معهما .. ووافق الرئيس على نقلي . هل بسبب أنني أريد أن أكون مع مصطفى وعلى في أى مكان ؟ . الا تكون هذه الرغبة دليلا على أنه لا يهم ان أعود الى عملي رئيسا لتحرير « الجيل » ، وانما الأهم أن أعمــل مع مصطفى وعلى ؟ الا يدل ذلك على التضامن معهما ضد الرئيس ؟ يجوز .. هل هذه رغبتي الحقيقية ؟

أم ان هناك حسابا داخليا اسعدني أن أقوم بتصفيته ؟ فقد حاولت ان أعمل في دار الهلال . وذهبت للقاء صاحبي الدار : أميل زيدان وشكرى زيدان وطلب مني أحدهما أن أترجم قصة قصيرة ــ كامتحان لي . وترجمتها . وتضايقت ولم أعد على الرغم من ان الرجل كان مهــذبا ورقيقا . ثم أنه لا يعرفني . صحيح أنني عملت في الصحافة ١٥ عاما قبل ذلك وكتبت في « الجيــل » وفي « الأخبــار » و « آخــر ســاعة » و « روز اليوسف » و « الأساس » .. أنه يريد أن يعرف أو يطمئن .

ويقال أنه سأل عني . ولكني تضايقت من أنه هو الآخر قد تجــاهل أو جهل ان لي ماضيا أدبيا وفلسفيا .. فهل العودة الى دار الهلال رئيســا للتحرير ، رد اعتبار .. ومسح لجرح ؟

يجوز . ففي مثل هذه الدوامة النفسية ، لم أدرك بوضوح ما الذي اصابني ولا ما الذي يدور في داخلي أو يدور بي ..

قال لى محمد فهمى السيد مستشار رئيس الجمهورية : ان السبب فى قرار الفصل ما كتبته عن « الوحدة والعزلة » وان السيد الرئيس أحس أننى اعرض به .

انا أعرض بالرئيس ؟ لا اظن ذلك .

ولكن يبدو أن الرئيس جمال عبد الناصر كان شديد الحساسية للانفصال الذى وقع بين مصر وسوريا . فقد كانت سوريا هى حبه الوحيد .. فلا احب قبلها ولا بعدها أحدا .. فكانت سوريا معشوقته الخائنة !

وكان الانفصال طعنة فى القلب .. وجاءت النكسة ضربة قاضية .. بعدها توفى الرئيس معنويا .. ولكن شيعت جنازته سنة ١٩٧٠ — وان كان بعض دراويش الرئيس عبد الناصر ليسوا على يقين الآن انه مات .. ولذلك فهم يتظاهرون ويرددون ذلك الهتاف العبثى الممل : بالروح بالدم نفديك يا جمال !

ولم أقل عن « العزلة والوحدة » أى كلام سياسى .. وانما كنت اتفلسف وجوديا .. وكنت اقول ان العزلة هى أن أكون بعيدا عن الناس ، والوحدة هى أن كون مع الناس ولا أدرى بهم .. وأن الانسان من الممكن أن يكون وحيدا رغم وجود الناس حوله .. انه يفصل نفسه عنهم .. انه يقطع الأسلاك ويسد أذنيه ويطبق عينيه ، ولا يسمع الا صوتا فى داخله يلعن الناس ! .

ولم يكن فى داخلى أى تعريض أو تلميح عن العزلة التى أصابت مصر والسيد الرئيس بسبب الانفصال !

ولم تكن لى نبرة خاصة فى سمفونية « الشماتة » فيما أصاب السيد الرئيس فى ذلك الوقت . ولا اظن ان أحدا فى بيت مصطفى أمين ، وملايين البيوت ، كان يستطيع ان يقاوم الأسى الذى أصاب مصر على يد السيد الرئيس .

وكنا نسمع الشيخ الطنطاوى يتحدث كل ليلة فى اذاعة دمشق .. يقول ان وزراء الوحدة كانوا يطلبون مقابلة الرئيس ربع ساعة .. فكان يرد : ولا دقيقة .. فكانوا يقولون : دقيقة .. وكان الرئيس يقول لهم : ولا ثانية .. ويقول الشيخ الطنطاوى .. بينما جلس الرئيس يستمع الى

ام كلثوم وعبد الحليم حافظ ويتفرج على نجوى فؤاد حتى مطلع الفجـر .. ولم تكن عنده دقيقة واحدة للقاء الوزراء السوريين .. أما المصريون فكانوا سعداء بأن يراهم الرئيس مرة واحدة يوم حلف اليمين ..

ثم انهم يؤرخون لذلك فيقولون : ب — ح — ى .. وق — خ — ى .. بعد حلف اليمين وقبل حلف اليمين .. ثم لا يتحدثون عن المفاجأة التقليدية بقرار طردهم المنشور فى الصحف !

وقال لى صديقى زميل الدراسة وبلدياتى محمد المصرى : يا اخى لسانك لازم ينقطــع ؟

— لمــاذا ؟

— الست انت الذى قلت أن الرئيس عبد الناصر لن ينسى امراتين : واحدة من المنصورة رفضته وواحدة من دمشق خانته !

— تريد ان تقول لأننى من المنصورة فأنا اذكر الرئيس بأتعس أيام حياته .. ان اثنين من نواب رئيس الجمهورية هما عبد اللطيف البغدادى واحمد عبده الشرباصى من المنصورة .. واثنان آخــران : ســامى شرف وصــلاح نصر !

— أنت قلت هذه القفشـــة !

— قلتها فى بيت مصطفى امين فمن الذى نقلها ؟

— أى واحــد !

* * *

وكنا فى دار الهلال نعمل بحرص . فالرئيس لم يسترح بعـــد ولم يطمئن . ومن الممكن ان يصدر أى قرار .. وكان د. عبد القادر حاتم ، وهو رجل لطيف رقيق مجامل يطالبنا : بضبط الأعصاب .. والهدوء .. والانصراف الى اعمالنا .. وكل شىء يمكن اصلاحه بعد ذلك !

وفى يوم وجدت مصطفى امين فى حالة غضب شديد . قال لى : انت مجنــون ؟ !

ــ لمــاذا ؟

ــ ما الذى كتبته ؟ لقــد أمرت بوقف طبــع المصــور فورا .. انت مجنــون ؟

ــ لمــاذا ؟

ــ مؤكد مجنون .. هل تعرف ماذا فعلت ؟

ــ لا .

ووجدت أمام مصطفى أمين المقال الذى كتبته تعليقا على خطاب الرئيس وعلى ما جاء فيه خاصا باحترام العلم والعلماء .

فقلت : أنا علقت على كلام جميل قاله الرئيس .

اما الغلطة البشعة التى ارتكبتها فهى اننى اقتبست بعض عبــارات الرئيس . العبارات كانت بالعامية فجعلتها بالعربية الفصحى .. لم اغير شيئا .. ولكن مصطفى أمين قال : ان الرئيس يتضايق من مثــل هــذا التصرف .. كلمات الرئيس يجب نقلها وكتابتها كما قالها تماما .. ان كلامه كالقرآن لا تبديل لكلماته !

ولم اصدق . ولكنه وضع أمامى نص خطاب الرئيس لكى انقل الفقرات بالعامية . وكانت طباعة « المصور » قد توقفت تماما .. وتمزقت الوف النسخ التى طبعت بها كلمات الرئيس بالعربية الفصحى !

وعاد مصطفى أمين يؤكد جنونى : تستطيع أن تنتقد الرئيس ، ولكن لا تغير كلمة واحدة مما قال !

أستطيع أن أنتقد الرئيس ؟! انا .. هو ؟ . اى احد ؟ ! طبعا لا احد يستطيع . ولست فى ذلك منافقا ، ولا هو فى حاجة الى مثل هذا النفاق ــ فالذى عنده يكفيه ويفيض !

* * *

وفى جنازة والد الموسيقار كمال الطويل اقترب قارىء الكف محمــد جعفر وطلب من مصطفى أمين أن يقرأ كفه .. وبسرعة قال له : ســوف

تعود الى أخبار اليوم .. سوف تقابل الرئيس جمال عبد الناصر أو انك قابلتـــه فعلا !

واندهش مصطفى أمين . فقد حدث كل ذلك . قابل الرئيس ووعده بعودتنا جميعا الى أخبار اليوم .

وفى برنامج تليفزيونى ظهر مصطفى أمين وتحدث عن عجائب علماء الكف . وحكى هذه الواقعة . وتصادف أن رأى الرئيس جمال عبد النـــاصر هذا البرنامج فتضايق . وأجل عودتنا الى أخبار اليوم عدة شهور !

قال لى محمد جعفر : هات يدك ..

قلت : خذها ولا تخف ..

قال : أنت الخائف .. ولا أفهم ما الذى يخيفك .. أنت ســـوف تتمكن من الهرب .. وسوف تصبح صاحب مؤسسة صحفية ضـــخمة فى السعودية ؟

قلت : متى ؟

. قال : فى المشمش ! وحياتك لا أنت مسافر ولا أنت هارب .. وانما سوف تعود الى أخبار اليوم .. وتستأنف عملك كأن شيئا لم يكن !

وكانت الشهور التى أمضيتها فى دار الهلال من أخصب فترات حياتى.. ففى دار الهلال كان المجال الصحفى واسعا للنشر المتنوع.فكتبت فى« المصور » « والكواكب » « والهلال » « وحواء » واستعدت لياقتى الفلسفية والأدبية ــ كأننى كنت فى حاجة الى كارثة لكى تهزنى .. وكتبت عددا من المقـــالات أصبحت كتبا بعد ذلك .. وفى دار الهلال عرفت عددا من الأصدقاء : فكرى اباظة وأمينة السعيد وكمال النجمى وصالح جودت ولطفى رضوان ومرسى الشـــافعى .

* * *

وفى الدير الدومنيكى بشارع مصنع الطرابيش بالعباسية ذهبت مع استاذى د. عثمان أمين وقابلنا الأب بولانجيه . وانفردنا بالأب بولانجيـــه رئيس الدير فكان هو أول المتكلمين . قال : ما تزال تريد ان تســـــافر الى فرنســـا ؟

قلت : نعم .

قال : هناك صعوبات .. ولكن ممكن .

قلت : موافق ..

قال الأب بولانجيه : يجب أن تدخل الدير .. راهبا .. وبعد سنة أو سنتين يمكن ايجاد وسيلة للهرب من مصر الى ليبيا ومنها الى ايطاليا ثم الى فرنسا .

فأقترب منه د. عثمان أمين وهمس فى اذنه . وهز الأب بولانجيه رأسه قائلا : فى هذه الحالة مستحيل .

فلم يكن يعرف اننى مسلم ! .

* * *

وفى بيت عبد الحليم حافظ فى عمارة السعوديين بالعجوزة قابلت أميرا سعوديا شابا .. وكان الهدف : كيف أهرب من مصر ؟

واتفقنا على طريقة . وحتى لا اسبب حرجا للدبلوماسيين السعوديين والأمير ، فأنا أمسك عن ذكر الأسماء .. ولم يكن يعرف هذه الخطة الا الصديق كمال الملاخ .

ولكن عبد الحليم حافظ همس بكل ذلك فى اذن على أمين الذى استدعانى وأمسك المصحف وهو يقول : احلف الآن فورا ! انك لا تترك مصر ما دمت حيا .. بعد ما أموت اعمل ما بدالك ! احلف !

وحلفت !

* * *

وفى احدى الليالى ذهبت لزيارة والدتى لأجد الصديق محمد المصرى ومعه ثلاثة آخرون : فريد .. وشوكت .. وضرغام .. ضباط مخابرات !

وعرفت فيما بعد أن هذه ليست أسماءهم . ولكنه قال أمامهم : هل تعرف سبب قرار وقفك ؟ أنا أقول لك .

قال : ان السيد كمال رفعت شكا للسيد الرئيس ان السهرة فى بيت مصطفى امين لا تحلو الا اذا حكا مصطفى امين كل ليلة كيف أن الرئيس عبد الناصر جعل من كمال رفعت اضحوكة مصر كلها .. وانه قرر عودتك ولكن لم يشأ أن يغضب كمال رفعت .. فطلب من محمد حسنين هيكل أن تقوم بهذه التمثيلية ، فتتظآهر بأنك تستعطفه ليشعر أنه هو الذى عفا عنك واعادك الى عملك ..

وكمال رفعت كما يقول أننا نصفه بأنه « الأطرش » فى الزفة — وكان ثقيل السمع !

وانه « ثور » الله فى برسيمه .. وانه الذى لفت نظر السيد الرئيس الى ان المقال الذى انشره فى المصور بعنوان : صفحة أنيس منصـــور .. ولم تكن صفحة وانما كانت صفحتين . وان الرئيس تضايق لهذا التحدى . فأصدر قرارا بوقفك !

ولمـــا نقلت هذه القصة لمصطفى امين وعلى أمين ، اكدا ان هـــذه هى الحقيقـــة !

وقال محمد المصرى : ان السيد كمال رفعت قد نقل للسيد الرئيس ان هذه الصفحة وهذا العنوان ليس الا لسانا طويلا للسخرية منا .. صفحة انيس منصور .. وان كمال رفعت بسرعة اصلح الخطأ فى العبارة السابقة فقال : للسخرية منى أنا شخصيا . وهذا لا يرضيك يا سيادة الرئيس !

ولمـــا التقى الصحفى اللبنانى سعيد فريحة بالرئيس عبد الناصر وحدثه فى عودة مصطفى أمين وعلى أمين الى أخبار اليوم قال له الرئيس : مش هو ده أنيس منصور اللى طالعين به السما .. أدينى خسفت به الأرض !

لاحظ اننى نقلت كلمات السيد الرئيس بالعامية كما قالها .. كأنه ما يزال حيا .. صحيح أنه مات ، ولكن احساستنا به ما تزال حية .. حية تسعى وتنهش !

* * *

هل حاولت فى ذلك الوقت أن اتجاوز الضيق واتخطى الألم ، واسمو على الهوان فأفكر فى الذى حدث !

هل الرئيس جمال عبد الناصر رجل شرير .. هل الشر هو الذى يدفعه الى العصف بأى أحد ؟ ان شكله وصوره وصوته لا يدل على انه كذلك .. اذن كيف يمكن لانسان أن تكون له كل هذه الطاقة الشريرة دون ان يبدو عليه ذلك ؟

اننى استعرت كل هذه الأسئلة من الفيلسوفة الوجودية « حنا أرنت » التى سافرت الى القدس لتشهد محاكمة الزعيم النازى ايخمان . ورأت أن هذا الرجل كان مهذبا رقيقا متماسكا فى كل خطواته .. فى السجن وفى الطريق الى المحكمة وفى المحكمة . ولكن كيف صدر الشر بهذا العنف عن هذا الرجل .

لقد اهتدت الفيلسوفة : « حنا أرنت » الى أن السبب الحقيقى : هو أنه لا يفكر . لم يفكر . وانما هو يتحرك تلقائيا الى فعل الشر دون أن يتوقف لحظة ليفكر . ولو فكر لاتخذ قرارا آخر . ان الشر أصبح عاديا .

والطيار الذى القى بقنبلة هيروشيما ، ضغط على زرار فقط — ولكنه عندما فكر فى بشاعة النتائج ، أصابه الجنون !

وليس عند الرئيس وقت ، ولا عند الذين حوله .. ولذلك يتدفق الشر فى كل اتجاه دون أن يستوقفه أحد ، لأن احدا لا يدرى بذلك .. واذا درى فلا حيلة له !

* * *

أعود مرة أخرى وأخيرة الى كتاب « بلاتيرو وأنا » — وبلاتيرو هو اسم الحمار الفضى اللون الذى جعله الأديب الأسبانى رامون خمينيز طرفا لتأملاته ولوحاته الأدبية .

يتحدث خمينيز فى اللوحة ٣٦ فيقول أنه وجد فى القاموس كلمة « أنوجرافيا » — ومعناها . وصف الحمير .. أو الحمورية .. وينتهزها فرصة ويتحدث الى بلاتيرو : مسكين أيها الحمار الطيب المسكين ؟ ألا يستحق منا وصفا جادا ؟ اننا اذا وجدنا حمارا لطيفا قلنا عنه أنه آدمى .. واذا نحن وجدنا انسانا سخيفا ، قلنا انه حمار .. مع أنك أيها الحمار الطيب صديق العواجيز والأطفال .. صديق القنوات والفراشات .. صديق الشمس والزهور والقمر .. أنت يا حمارى تفهم ولا شك .. وترمقنى بعينين واسعتين جامدتين تنعكس عليهما أشعة الشمس .. ولابد انك تقول

على نفسك : اننى افضل كثيرا من الذين يؤلفون القواميس : وربمـــا كنت مثـــلهم .

يقول خمينيز : لقد امسكت القلم وكتبت فى هامش القاموس ان كلمة انوجرافيا معناها : وصف للذين يؤلفون القواميس .. انهم الذين يرتكبون الشر دون تفكير فى مصائب البشرية !

* * *

ومع الفنانين كمال الملاخ وحسن فؤاد وجمال كامل والمستشار خالد حسونة ذهبنا لآخر مرة الى الأب بولانجيه فى الدير الدومنيكى . كان الأب مريضا وكنت احبه واراه حكيما اغريقيا .. وأرى فى هدوئه وصفائه ونقائه مثلا عاليا للحكمة القديمة التى قالها السيد المسيح : الدنيا قنطرة ، اعبروها ولا تعمـــروها !

وكان الأب بولانجيه عابرا كأنه يمشى على المـــاء ولا تبتل قدمه ، ويطير فى الهواء فلا تهتز طاقيته ، ويذوب فى الضياء ويبقى لحما ودما لطيفـــا مرحا شجاعا . ومن كل الذى قاله الأب بولانجيه كانت هذه النصيحة : لن يبقى لك ومعك الا عملك الصالح .. لا شجاعتك وصبرك الذى لا يتزعزع .. حتى هؤلاء (واشار الى الأصدقاء معى) لن يصمد منهم الى جوارك أحـــد ، ان لم تصمد أنت نفسك !

وقال انه يتذكر مسرحية مجهولة المؤلف فى الأدب الانجليزى اسمها : فلان الفلانى .. أو اسمها : علان .. أو اسمها : أى انسان .. وقد ظهرت فى القرن الخامس عشر أيام الملك ادوارد الرابع .

المسرحية تقول أن ملاك الموت تلقى أمرا من الله أن يقبض روح واحد من الناس . ويقال أنه قابله فى الطريق وقال له : أراك سعيدا فالى أين انت ذاهب ؟ اننى أحمل اليك رسالة من الذى خلقك ؟

ـــ وماذا يريد الذى خلقنى ؟

ـــ رحلة طويلة .. وبعدها تكفر عن خطاياك .

ـــ ولكنى لست مستعدا لهذه الرحلة .. تعال غدا .

ـــ اليوم ! ويجب أن تختار لك رفيقا فى هذه الرحلة ! يجب أن تختار لك معنى من المعـــانى ..

والتفت هذا الفلان الى كل المعانى فى عقله وحاول أن يختار منهـــا واحدة فاختار « الزمالة » فقالت له : أدخل معك قبرك .. آســـفة ! ابحث عن غيرى ..

فاختار « الغضب » . ولكن الغضب قال له : عندى وجع فى بطن قدمى . لا أستطيع ان اسير معك الى قبرك !

فاختار الفلوس . فقالت له الفلوس : ان مهمتى فى هذه الدنيـا : ان تأخذنى وتعطينى .. أن تتبادلنى .. أن تخدع بى الناس .. فتش عن غـــيرى !

واستدعى « المعرفة » التى ارتدت ثوبا شائكا من الندم ..

وفجأة جلست الى جواره : القوة والجمال والهداية والذكاء .. ثم توارت جميعـــا .

أما الشجاعة فقالت له : من يعتمد على الشجاعة هو تاجر بلا بضاعة !

ولم تبق الا « الاعمال الطيبة » وقفت طابورا وسارت أمامه الى قبره .. وهناك استسلم للموت .

قال لنا الأب بولانجيه : هل فهمت ؟

قلت : الا قليـــلا !

قال بسرعة : صدقت .. القليل الذى لم تفهمه سوف تعرفه فى حياتك القادمة ولا تنس ان شئيا واحدا يدل على طهارتك : أنك فقير ! ولا تنس أنك اذا كنت ستموت يوما ما ، فيجب الا تتصرف فى حياتك على أنك ميت !

وخرجنا .. ولم اعـــد !

* * *

وعندما ذهبت الى « النادى الثقافى » بجاردن سيتى وجدت الخواجة لامبو يطل من البلكونة وينادى : يا مسيو أنيس .. أطلع بسرعة !

وقابلنى لامبو على السلالم وهو يقول : البوليس يبحث عنك .. ولكن الأخبار كويسة .. المدام بتاعتى شافت لك الفنجان .. أخبار بريمـــو الحمد لله .. البوليس ترك لك هذا الرقم .

ووجدت رسالة من عبد الحليم حافظ يقول : عزيزى الغالى .. أخبار تجنن .. مبروك .. اتصل بمصطفى بيه انه يتغدى عند الأستاذ محمد عبد الوهاب .. أطلبه ضرورى .. وسوف نلتقى ليلا .. والامضاء : حليم .. ووجدت رقم تليفون د. عبد القادر حاتم فى مكتبه بمبنى التليفزيون مع ضرورة الاتصال فورا .. او الحضور فى أسرع وقت ! مع رجاء الاتصال بالمقدم عبد الكريم فى شرطة النجدة .. ورقم التليفون .

وذهبت الى د. عبد القادر حاتم وزير الاعلام فى مكتبه .. وعنده وجدت محمد فهمى السيد مستشار الرئيس . وقابلنى د. عبد القادر حاتم فى منتصف الغرفة وصافحنى بحرارة . وهو رجل استطاع رغم كل المتاعب والمشاكل وأحداث مصر التى يعرفها أكثر من أى انسان أن يحتفظ بالهدوء والابتسامة والأخوة والأبوة لكل الناس .. قال : مبروك .. السيد الرئيس أمر بأن تعود الى عملك وتكتب .. وتوقع على الذى تكتبه أيضا .. مبروك .

ثم عاد الى مكتبه . ووقفت فى مكانى : ولكنى يا دكتور .. اريد أن أعرف لماذا منعنى من الكتابة ؟

فقال : ترجع تكتب وخلاص يا انيس !

ــ شكرا يا دكتور .. وشكرا للسيد الرئيس .. ولكن أليس من المحتمل أن اقع فى نفس الغلط الذى لا أعرفه .. فقط أريد أن أعرف .

وبدأ الضيق على وجه د. حاتم وعاد يقول : ارجع .. واكتب .. وخلاص !

ــ شكرا .

ونظرت الى المستشار محمد فهمى السيد ، فوجدته قد استدار الى د. حاتم واستأنفا كلاما سابقا .. اذن المطلوب ان ارجع .. ولا يهم ان اعرف لماذا حدث ما حدث .

حاولت ان استرجع كل كلمة وحركة .

وفى مبنى التليفزيون قابلت الصديق د. مصطفى محمود .. وكان قد صدر قرار بمنعه من الكتابة فى روز اليوسف بتهمة الالحاد .. ورويت

له ما حدث . فقال : ان د. حاتم قد طلبه هو الآخر عن طريق فلان وعلان وبوليس النجدة . فقلت له : مبروك مقدما .

وسألنى : بالضبط ماذا قال لك حاتم ؟

قلت له : يا أخى .. اشار بيده ان أرجع .. فرجعت !

وكأننى كنت فى حاجة الى أن انقل هذا النبأ الى كل الناس . فتجولت طويلا وكثيرا فى مبنى الاذاعة والتليفزيون .. ان هذا المبنى قادر على أن ينقل اى خبر الى أركان مصر ، تماما كما يذيع الى اركان الدنيا .. وبعد ساعتين من القهوة وتلقى التهانى وجدت د. مصطفى محمود على باب الاذاعة : هه ؟ — سألته . قال : نفس الكلام .. ولكن الحركة التى اشار بها د. حاتم الى أن أعود الى الكتابة دون مناقشة ، كانت بيده الشمال .. وانت باليمين !

* * *

وبعد شهور طلبت السفر الى خارج مصر .. وعرفت من الصديق محمود السباعى مدير الأمن العام أن هناك حظرا على سفرى الى الخارج . وقال : أنه يمكن رفع الحظر مادمت قد عدت الى عملك .. وما دام المنع بسبب مقال وليس بسبب اى نشاط سياسى .

وفى الطائرة الى روما لحضور « المجمع المسكونى » فى الفاتيكان ، كانت المضيفة تقول : تعلن الشركة عن رحلتها الى روما .

وأنا اقول وراءها : الله .. صوتك اجمل من ام كلثوم .. اننى فى السماء !

وكنت أدخل غرفتى فى فندق « سانتا كيارا » واترك الباب مفتوحا .. فيغلق الباب أحد الجرسونات .. واعود الى فتحه .. وكنت اقول لنفسى : منتهى الأمان .. لا خوف من احد .

وكنت أجلس على مقهى « الدونة » فى شارع فيافنيتو واقول : ان أحدا لا يستطيع أن يفصل أحدا من كل هؤلاء الجالسين !

ولما رايت الملك فاروق قلت : ان جمال عبد الناصر قد فصل هذا الرجل واطلق له ٢١ مدفعا اى أنه فصله مع عظيم الاحترام له ولابنه ملك

مصر فؤاد الثانى .. وبعد ذلك لم يكن عبد الناصر يحترم أحـــدا ســـواء نصله أو ابقاه .. ولم يعد يطلق المدافع ، وانما يطلق الرصـــاص .. والـــكلاب ! .

وانتهى كابوس طويل ثقيل وقد اتخذت فى القضاء عليه عادة فرعونية قديمة : ان أزينه وأجمله مثل عروس النيل ثم القى به فى المـــاء فيفيض نسيانا .. ويبدو أن الرئيس عبد الناصر قد احتاط لذلك ، فأقام « الســـد العـــالى » حتى لا يكون للنيل فيضان بعد ذلك ـــ فلا ننسى !

* * *

وعدت الى الصلاة على الرصيف أمام مسجد السلطان ابى العـــلا ونظرت الى بيتنا القديم .. انه كما هو .. والتفت الى جارى ، كأننى أعرفه .. ومرة أخرى انفجر الميكروفون الذى كان معطلا .. أما الخطيب فقد تقدمت به السن ، وتحشرج صوته وهدأت نبرته قال :

تحالف الناس والزمان فحيث كان الزمان كانوا

عادانى الدهر نصف يوم فانكشف الناس لى وبانوا

يا أيهـــا المعرضون عنى عودوا فقد عاد الزمان !

□ □ □

عبدالناصر: المفترى عليه والمفترى علينا أكثر!.

كلمة "الهزيمة" لأول مرة!



فى يوم فوجئت بالزميلة فاطمة السيد قد تركت لى رسالة أن اتصل بها فى أسرع وقت .. فى البيت .. فى المكتب .. فى المطعم . وسألتها : خيرا، قالت غدا اعـدام ! .

اى انها تدعونى لمشاهدة اعدام احد المجرمين . وانها وعدتنى بذلك . وكنت قد نسيت تماما .. واليوم جاء الوفاء بالوعد .. وهى فى انتظارى لنذهب معا لنرى ونستمتع — وهى التى استخدمت الكلمة الاخيرة . لأنهـا من مفرداتها العادية فى مثل هذه المناسبة البشعة !

* * *

وفى ليلة كنت مستغرقا فى النوم فجاءت المضيفة توقظنى وتقـول : كابتن شقنقيرى يدعوك الى فنجان قهوة !

وكنا فى طريقنا الى طوكيو . وذهبت الى الكابتن وحدثنى عن العـلاج بالمغناطيس — وكانت المرة الأولى التى اسمع فيها عن الطبيب الفـرنسى د. بارون الذى انقذ حياة كابتن شقنقيرى فوضع له المغناطيس على يديه وعنقه وظهره . ولولا هذا الطبيب ، ما استطاع الطيار المصرى أن يعـود الى عمله ، بعد أن تحطم بناؤه فى حادث سيارة !

وفجأة ظهرت السعادة على وجه الكابتن كسعادة الزميلة فاطمة وقال : الآن .. أريدك أن ترى .. لقد دعوتك لتشاهد بنفسك كيف أتفادى المطب الهوائى القادم .. انظر ، أن السحب على اليمين والشمال .. وسوف تدخل الطائرة فى هذا الخندق .. وسوف أمتص هذا السقوط على جناحى الطائرة .

ومرت لحظات وأنا فى حالة اغماء تام .. فقد هبطت الطائرة فجأة فى هوة هوائية سحيقة .. وكانت الطائرة تتحرك عند الطرف الأيسر لأحد الأعاصير التى اجتاحت المحيط الهادى فى طريقها الى اليابان ..

طبيعى أن يدعوك الطيار لمشاهدة اعصار ..

وطبيعى أن تدعوك محررة الحوادث والجرائم لمشاهدة حبل المشنقة — اما السعادة فسببها أن كليهما قد اعتاد على ذلك . وانه سعيد لنجاته من الحبل ومن المطب ! .

* * *

وتذكرت أن المخابرات الحربية قد دعتنى لمشاهدة قواتنا على الجبهة .. ومشاهدة النصر المؤكد لنا على اسرائيل .. فما اسرائيل هذه الا دولة صغيرة ، عالية الصوت ، ومن هم زعماؤها وقادتها .. وأين هؤلاء من زعيمنا جمال عبد الناصر . ماذا قالوا وما الذى يقول .. انها نزهة فى البر والبحر والجو اذا أردنا .. ساعات وبعدها نعود نتغنى بالنصر الساحق الماحق لعدونا .

وقالوا تعال تفرج علينا : كيف نواجه القنابل والمدافع والدخان والصرخات والدماء والموت .. اعوذ بالله .. لكن العسكريين قد اعتادوا على ذلك !

وكنا خمسة من الصحفيين واثنين من المصورين . أركبونا سيارة حربية . وزودونا بالخبز والطماطم والخيار والجبنة والمياه الباردة والبرتقال. وعبرنا القناة واتجهنا الى ارض المعركة .. معركة الساعات وينتهى كل شىء .. وتنتصر مصر وسوريا والأردن وتعود فلسطين الى اهلها وبأسلحة الأشقاء العرب الذين تكاثروا على العدو .. وفى ضربة واحدة ينتهى كل شىء ..

الطريق أمامنا لامع .. هل هو كذلك أو اننا رأينا على أرض المعركة آمالنا وأحلامنا وأغنيات النصر .. هل كان الطريق مرصوفا .. أو انها خطب الرئيس عبد الناصر قد جعلت الهضاب وديانا ، والوديان جنات تجرى من تحتها الأنهار ، والطرق الوعرة شوارع حريرية .. وهل هؤلاء الذين نرى : جنود مصريون أو أنهم جنود أمريكان : القوام ممشوق والسيقان مشدودة ، والسواعد مرفوعة ، والأسلحة فى السماء ، والابتسام حقيقى وليس سينمائيا .. بل جنود مصريون فلاحون تدربوا من أجل هذا اليوم .. خرجوا من ثكناتهم مرورا بالسفارات الأمريكية والبريطانية والايطالية وعلى مرأى من السفارتين السوفيتية والفرنسية الى الطريق الصحراوى الى الاسكندرية .. وطريق السويس الى العريش .. كأنهم عائدون منتصرين من الجبهة .

وفجأة اعترضنا احد الجنود .. وكان الجندى يقف فى منتصف الطريق .. واندهش السائق العسكرى وضباط المخابرات المرافقون لنا . ولكن الجندى قال : يا أفندم .. اننا منذ ثلاثة أيام لم نذق طعاما ! .

وتعالى صوت الضباط المرافقين لنا يستنكرون ما قاله الجندى . ولكن الجندى واقف لم يهتز ولم يأبه للزعيق والتهديد . وشعر الضباط بخجل وحرج من وجودنا . ونزل واحد منهم واقترب من الجندى الذى ضم قدميه ورفع يده للتحية . ولكنه لم يغير موقفه أو لهجته أو ملامح وجهه .. بينما أطل جندى آخر من الدبابة الواقفة على جانب الطريق يتابع ما يسمع ويرى .. ومرت مجموعة من الابل لتشرب من المياه المتدفقة من احدى المضخات لا تسمعها ولا ترانا ولا يهمها أحد أو شىء ! .

وتسابقنا جميعا فى تقديم كل ما لدينا من طعام لهذا الجندى . ولم يشأ احد من الضباط ان يفسر لنا ما حدث . ولكن واحدا من الزملاء قال بصوت مسموع : لا يستطيع اى جندى أن يتجرأ على الضباط بالقول والاصرار والصلابة هذه الا اذا كان يوشك ان يموت من الجوع .. والا اذا كان قد انتهى من المخزون الاستراتيجى من البسكويت والجبنة .

اذن أين الذى تنشره الصحف عن الأطعمة الساخنة فى الجبهة لكل الجنود — تماما كالجيش الأمريكى فى معاركه فى أوروبا ؟ اين الطعام لكل فم ملفوفا فى ورق السوليفان ؟ ان هذا الطعام الفاخر الذى يقدم للجنود — كما تقول الصحف — ليس الا مكافأة مقدما على النصر العظيم . طبعا جيشنا

يستحق ذلك وأكثر ! أليس قد استعد ؟ أليس قد حارب ؟ أليس قد انتصر ؟ — طبعا لابد أن ينتصر .

وأول من طالعنا من الضباط الكبار هو العقيد أو المقدم رشدى حسان. لا أعرف بالضبط ما الذى كان يعمله فى الجبهة . ولكنه ضابط طويل أسمر رقيق .. هل قال لنا أنه يدرس فى الجامعة ؟ هل قال انه يستعد لليسانس أو الماجستير .. هل رأينا كتبا عنده ؟ أعتقد اننا رأينا كتبا عنده وعند غيره من الضباط والجنود .. ان الحرب لا تعنيهم فهم مشغولون بما بعدها .. أو كأن الحرب قد انتهت ؟ وهم الآن يعيشون فى الأيام الذهبية السعيدة بعدها .. أليس زعيمنا قد أعلن أن الحرب مثل هذه (وأشار الى يده وأصابع يده) أى أنها قريبة وواضحة ومضمونة ، فلن تنقص اليد أصبعا واحدة .

واقتادنا الضابط رشدى حسان الى حيث تناولنا غداءنا مع القائد الفريق عبد المحسن مرتجى . وكانت القيادة والمطعم تحت الأرض ، ودارت مناقشة غير متكافئة بيننا وبينه .. ولابد أن يكون الفريق مرتجى رجلا مهذبا جدا صبورا جدا ، لأنه تحمل مناقشاتنا السخيفة . فقد كنا نتكلم أكثر منه . وكنا نجلس الى مقعد الافتاء ونقول : لن تحارب اسرائيل .. واذا حاربت فسوف تساعدها أمريكا بينما روسيا سوفتقف الى جوارنا ..وتنتهى الحرب فى الشرق الأوسط بأن تقع الدولتان العظميان فى حرب نووية .. وهكذا تكون مصر قد ساعدت العالم على الخلاص مع هذين العملاقين ! .

ولابد أن الحياء هو الذى كان يمنع الفريق مرتجى أن يناقشنا فى التشخيص العسكرى لمصر واسرائيل . ولكنه كان مضطرا أن يسمع وأن يناقش . وقلت له عن حادثة الجنود الذين استوقفونا . وسبقته الى تقديم المبرر المعقول لكل ذلك : فأنت أب لأسرة تضم نصف مليون جندى يأكلون ويشربون وينامون ويسهرون ويستعدون للقتال .. فليس حدثا خطيرا الا يجد اثنان أو ثلاثة طعاما وشرابا .. ولكن من يدرى ربما كان هناك جنود آخرون . وعلى كل حال هذه ملحوظة ، ولا أعرف كيف يمكن علاجها بسرعة ! .

وكان الفريق مرتجى يتلقى خطابات فى الجبهة توعو له بالنصر والسلامة . أو تؤكد له النصر .

وكان الفريق مرتجى سعيدا لأنه تلقى كتابا من الفيلد مارشال مونتجمرى ومعه اهداء وتمنيات له بالنصر .

وسألنا الفريق مرتجى : اين تبيتون هذه الليلة ؟

وقلنا : طبعا فى العريش .. لكى نرى العدو زاحفا على يديه وركبتيه يطلب الاستسلام !

وحاولنا أن نتصل بالعريش ، تليفونيا ، فلم نفلح .. كل الاتصـــالات فى الجبهة عسكرية .. أى تليفونات عسكرية . فالفريق مرتجى شـــخصيا لا يستطيع أن يتصل بالقوات عند العريش .. فالمواصلات السلكية رديئة جـــدا .. فلم نتمكن من حجز غرفتين أو ثلاث نبيت فيها .

ولا أعرف من الذى اقترح أن نذهب الى العريش . وهناك ســـــوف يجدون لنا حلا ، حتى لا تفوتنا اللحظات الأولى التاريخية للنصر العظيم .

وفى الطريق الى العريش راينا حشود القوات المصرية .. والطعـــام الساخن يوزعونه على الجنود .. وكان الشباب اكثر سخونة من الطعام . يجتمعون فى أى مكان ولأية مناسبة ويخطبون . ويلقون القصائد الملتهبـــة ويجمعونها امانة فى عنقى لكى أنشرها عندما أعود الى القاهرة . وقابلت عددا من الاقارب حديثى التخرج فى الكليات ـــ وكنت آخر من رآهم وتحدثت عن أشكالهم والوانهم وحيويتهم وشبابهم ـــ رحمة الله عليهم جميعـــا ـــ وعشرات الألوف من أمثالهم فى اليمن وفى سيناء .

قابلنى شاب واقترب منى يقول : أمانة يا أونكل .. انا ابن الأستاذ محمد أمين حماد رئيس التليفزيون .. أرجو أن تبلغ والدى بأننى لم أذهب الى اليمن ، واننى هنا فى الجبهة . واننى سوف أعود فى أقرب وقت .

ولم افهم . فعاد يقول : أن جبهة اليمن خطيرة .. أما هنـــا فأمان تمـــاما !

وعلى الحدود بين مصر واسرائيل ذهبنـــا للقاء اللواء عبد العـــزيز سليمان .. وكان رجلا متوسط الطول له كرش ودمه خفيف . لم يكد يرانا حتى أشار بعصا فى يده أن نجلس . فجلسنا .

ثم قال : لمـــاذا جئتم !

قلنا : لكى نشهد اليوم العظيم .

قال : ثم ماذا ؟ :

قلنا : ونعود الى مصر سعداء بما راينا .

قال : سعداء ؟ بماذا ؟

قيل له : بالنصر طبعـا .

قال : بالنصر ؟ طبعا ؟ كيف ؟

ولمـا وجدنا الضباط الكبار حوله يضحكون أدركنا أنه يحـاول أن يسخر منا .. وانها المقدمة الطبيعية لموقف مضحك .. ينفجر بالضحك .. ولذلك انتظرنا النكتة التى سوف يرويها .

فقال : هل أحد منكم يرى الرئيس جمال عبد الناصر ؟

فلم يرد أحد . اى ان أحدا لا يعرفه ..

فقال : اذن قولوا للذين يرون عبد الناصر .. ان القادة على الجبهـة كان يجب اعدامهم قبل المعركة .. هل من المعقول أن يكون رجل مثلى قائدا وعنده هذا الكرش .. قائد بكرش يعنى ايه ؟ كيف أكون قدوة للضـباط والجنود .. اننا مثل خيل السلطة .. يجب اعدامنا فورا فى ميدان عام .

ثم اشار بعصاه الى عدد من القادة ذوى الأكراش . ولم يضـحك ولكننا والقادة رحنا نضحك ..

سألته : يا افندم سيادتك ترى انه يجب التخلص من الاكراش قبل أن نتخلص من اسرائيل ؟ !

وتضايق اللواء عبد العزيز سليمان قائلا : ايوه .. يا خويا .. لأن هذه الأكراش ستكون سببا فى الهزيمة !

وكانت هذه المرة الأولى التى نسمع فيها كلمة « الهزيمة » وكان ينطقها بجدية ومرارة . كأنه يعنى ما يقول ، مخالفا كل التوقعات وكل الأمنيات .. وكأنه لا يهمه أن ننقل عنه هذه الكلمة .. ولا يهمه اى أحد فى الجبهـة أو فى القـاهرة .

ثم أشار الى أحد الجنود قائلا : اذهب مع الأساتذة .. هل تريدون ان تعرفوا كيف نواجه الحرب الميكروبية .. طبعا تريدون .. اذهبوا وتفرجوا على بلادكم كيف تواجه الميكروبات على الجبهة .. اذهب الى .. اسـمه ايه .. غازى .. اسمه غازى .. الواقف أمام برج المراقبة .

وسرنا وراءه . الى حيث يوجد أحد ابراج المراقبة لقوات الطوارىء الدولية . اشار الينا الجندى غازى أن نصعد وأن ننتظر .. وقال اننـا

سوف نجد جنديا اسرائيليا قد أمسك شيئا أبيض ويحركه يمينا وشمالا .. وان هذا الجندى الاسرائيلى يرش على الأرض مادة بيضاء سامة .

وصعدنا الواحد بعد الآخر .. بعضنا قال انه رأى وبعضنا لم يتمكن .

ونزلنا ووقفنا حوله نسمع الشرح والتفسير فقال : هذا الذباب الصغير الذى امتلأت به الجبهة .. سيادتكم قد لاحظتم ذلك .. هذه هى الميكروبات .. يطلقونها هناك لتجىء هنا .. هذا الجندى الذى أمسك ملاءة بيضاء .. هذه الملاءة ملأوها بالميكروبات واطلقوها فى اتجاهنا .. وهناك نوعان من الميكروبات : نوع يطلقونه فى الهواء .. والنوع الثانى يلقونه على الأرض ليزحف الينا .. ونحن نجمع عينات من هذه الميكروبات ونبعث بها الى المخابرات الحربية فى القاهرة ! .

ولا يهم ما الذى قلناه لأنفسنا .. ولا كيف احسسنا بالصدمة العنيفة لما يقوله هذا الجندى البسيط .. ولا كيف يتصور هو شكل الميكروبات التى يضعونها فى ملاءة سرير ويطلقونها علينا جوا وأرضا .. ولا يتساءل ان كان أحد يصدقه فى مصر ؟

واذا كان احد لا يصدقه فلماذا يكلفونه بجمع عينات من الذباب الذى يتكاثر مع بداية الصيف .

وعدنا الى اللواء عبد العزيز سليمان . فبادرنا واقفا والعصا فى يده : هه .. رأيتم كيف تواجه بلادكم حرب الميكروبات — وكيف نعتمد فى هذه الحرب على معلومات جندى جاهل وضابط أكثر جهلا .. ثم تريدون أن ننتصر .. أخرجوا .. اكتبوا ما رأيتم .. أو قولوا لأى احد على مسمع من الرئيس .. روحوا .. ان كانت عندكم شجاعة أو عندكم دم !

بعضنا قال : انه رجل خفيف الدم وانه يداعبنا بقسوة .

وبعضنا قال : كيف يجرؤ ؟

انه رجل جرىء يائس تماما من مهمته كقائد .. وانه لابد أن يكون قد حاول كثيرا أن يسمعه احد .. فلم يفلح .. ولذلك فهو كافر بالذين يراهم فى الجبهة والذين لا يراهم فى القيادة العسكرية والسياسية فى القاهرة .. وأنه عندما طلب الينا ان ننقل للسيد الرئيس أنه يستحق الاعدام رميا

بالرصاص — انه هو اللواء عبد العزيز سليمان — كان يريد من ضـــباط المخابرات أن يعجلوا بارسـال هذه الأمنية !

وعندما ودعناه قال لنا :

هذه المعلومات لكم أنتم .. لا تقولوها لضابط المخابرات !

ولم نكد نرفع أيدينا جميعا بالتحية والدعوة له بالسلامة والنصر حتى قال بصوت مرتفع : أين ضباط المخابرات المرافقون لكم ؟ !

وتقدم الضباط ناحيته : افنــدم .

قال : اسمع يا ابنى .. كل الذى قلته هنا .. اريد أن تنقله بالحرف الواحد . وان وجدت صعوبة فى نقله ساعدتك .. حتى لا يظن الصحفيون اننى جبان .. مع السلامة !

* * *

وكانت الجبهة مظلمة تماما .. وكانت سيارتنا تمشى بصعوبة .. فقد كان السائق يهتدى بنور النجوم .. ولمـــا اقتربنا من الظلام القائم من منطقة لا أعرف أين هى . سمعنا جنديا فى يده بندقية يصرخ بصوت مرتفع : قف .. من أنت .. كلمة سر الليل !

ومن المفروض أن هناك كلمة سر لابد أن يعرفها كل من يتحـــرك فى الجبهة .. والا فلن يسمحوا له بالحركة أو قد يطلقون عليه النار .

ولكن فوجئنا بضابط كان يجلس وراء المقدم رشدى حسان يقفز من السيارة ويقول للجندى الذى استوقفنا : بس يا ولد .. أو بس يا دفعة .. او افسح الطريق ..

لا أذكر بالضبط ماذا قال .. ولكن الكلمات التى ردعه بهـــا كانت قليلة وكانت استنكارا لموقف الجندى الذى رأى سيارة عسكرية .. تابعـــة للبوليس الحربى .. وتراجع الجندى وافسح لنـــا الطريق .. فأزاح البراميل أمام السـيارة .

قال لى جارى : يا نهار اسود ومنيل .. تصور أن الضباط يشخطون فى الجنود لأنهم يطالبون بمعرفة كلمة سر الليل .. ان أى ضابط اسرائيلى من أصل عربى أو مصرى يستطيع أن يدخل الجبهة ويصل الى القاهرة .. اذا شخط فى الجندى هكذا .. تصور — ايه ده ؟

ولم استوعب فداحة هذا التصرف . فقد كان الليل مظلما . والسكون مخيفا . والشك يلعب فى راسى ويلعب بها وبنا .. فالجنود لا يجدون طعاما والقادة يطالبون بالاعدام لهم .. أو للقادة فى مصر .. والذباب ميكروبات تطلقها اسرائيل وتبعث بها من الجبهة الى معامل المخابرات .. والمخابرات تجمع المعلومات عن القادة المصريين الذين لا يهمهم ذلك .. ثم اننا لم نفلح أن نتصل تليفونيا من مكتب الفريق مرتجى بأى فندق فى العريش .

ومن اذاعة اسرائيل سمعنا أنهم اخترعوا مادة تغنى النـــاس عن استخدام البترول .. شىء غريب .. ما المعنى ؟

لم نفهم فى ذلك الوقت مغزى أن هناك محاولات علمية لتجريد العرب من ثرواتهم ومن سلاحهم البترولى !

وكان لابد من العودة الى الاسماعيلية لكى نبيت هناك .

أما الطريق الى الاسماعيلية فلا نعرفه . ولا احد . ولذلك ظللنـــا طول الليل ندفع سيارتنا الى الأمام ونضع الطوب والحجارة تحت عجلاتها لكى ننتشلها من الرمال الناعمة .. وكان العقل يقول : بل نبيت فيهـــا أو الى جوارها حتى مطلع النهار ، ونرى الطريق أو يرانا الجنود فيساعدوننا على العودة الى الاسماعيلية أو الى الجبهة .

وعند الفجر وصلنا الى الاسماعيلية . ولا أعرف كيف طلع النهار . ومن المؤكد أن الشمس كانت سوداء فى ذلك اليوم ، فالذى رأيناه وسمعناه قد زعزعنا .. زلزلنا .. خذلنا .. هزمنا وبمنتهى الصراحة . كانت عودتنا الى الجبهة ثقيلة .. كأننا أسرى حرب .. أعادونا الى معسكر اســـمه « النصر » . فالنصر هو تلك الخيمة الزاهية الألوان التى تضج بالنشـــوة المتجددة وأبخرة الأطعمة الساخنة .. ولكننا أسرى مخاوفنا وشكوكنا .. والنصر اسم وليس فعلا !

وكان لابد أن أبحث عن طائرة تعيدنى الى القاهرة . اما الزملاء من أخبار اليوم والأهرام وآخر ساعة ومجلة الاذاعة فكان عليهم ان يمكثـــوا اياما أخرى .

وقالوا لى لابد أن تعود الى العريش . وعدت ..

وتضاربت العبارات والهتـــافات .. اما الهتـــافات فهى لأبناء غـــزة والعريش يدعوننا الى شراء ما عندهم من سلع قبل أن ينتقلوا الى تل أبيب ؟ !

الى القدس .. يقولون : تفضلوا .. سوف نقفل الدكاكين بعد النصر ان شاء الله .. تعالوا .. الأسعار متهاودة .. تفضلوا . ياهلا .. ياهلا .. بالنصر العظيم ! .

طبعا كلها ساعات وتتحول القوات الى الناحية الأخرى .. لا مقاومة .. لا أحد هناك .. فوراء هذه الحدود المصطنعة : فراغ .. فراغ .. اسرائيل المزعومة .. اسرائيل التى رسمتها على الأرض العربية أمريكا وروسيا . وغرستها سكينا فى قلب العرب .. سوف ننزع هذه السكين .. وبعد ذلك تجىء فترة للنقاهة مقدمة للنصر ، أو هى مرحلة من مراحل النصر .

وعشرات المعانى والصور البلاغية التى جاءت فى خطب الرئيس عبد الناصر ، اذا حذفنا بعض كلماته النابية فى شتم الرؤساء والملوك وأمهاتهم وآبائهم .. لم تكن كلمات الرئيس عبد الناصر تحتاج الى موسيقى .. انها موسيقى الحرب والنصر .. لا شك فى ذلك .

اما سبب حرصى على العودة فلأننى سوف أعد حلقة جديدة من برنامج فى التليفزيون . وسوف تجىء المذيعة ليلى رستم الى مكتبى فى الساعة العاشرة من صباح الاثنين ٥ يونيو سنة ١٩٦٧ — فلابد من العودة . وقد جمعت المعانى التى سوف أنقلها الى القراء .. وعشرات القصائد والأناشيد والأغانى التى انهالت من الجنود .. وقد وعدت .. والوعد أمانة .. والنشر شرف !

وانتشرت شائعة فى الجبهة ان الحرب غدا .. وقيل أن المشير عبد الحكيم عامر قد أصدر منشورا أو بيانا أو توجيها — لا أعرف الكلمة العسكرية لهذا المعنى — يقول فيه : ان الحرب غدا ٥ يونيو .

وان هذا هو سر السعادة الغامرة لكل الجنود والضباط .

وقيل ايضا انه فى الجبهة . وان الكثيرين قد شاهدوا طائرته .. وشاهدوه هو ايضا .. اى أن المشير قد جاء الى الجبهة ليتقدم الجنود .. ويسبقهم الى تسلم علم الاستسلام الاسرائيلى ، ويعود به منكسا ويلقى به عند قدمى الرئيس عبد الناصر فوق جثث الوف اليهود من كل بلد .

وفجأة وجدت نفسى وحدى فى الجبهة .. لا أحد عنده وقت ليسمعنى او يكلمنى .. طبعا انها الحرب .. وانه النصر .. وانه المشير .. واتجهت الى مبنى صغير .. وقبل أن أسأل الطيارين الشبان ان كانت هناك وسيلة للعودة الى القاهرة ، بادرنى أحد الضباط الشباب : سيادتك فلان ؟

— ايوه .

— انا اسكن فى البيت المواجه لك فى الزمالك .

— اهلا وسهلا ..

— تحب تتفرج على طائرة ميج .

— ويسعدنى ذلك .

وكانت هناك طائرة صغيرة واقفة على الممر .. طلب منى الضابط الشاب أن اصعد . وساعدنى على ذلك . وحشرت نفسى فى الطائرة . احسست أننى تخين .. وان مثلى لا يركب مثل هذه الطائرات .. ولكن ملأت المقعد .. وسحب الطيار ذلك الغطاء البلاستيك . ووجدتنى فى كبسولة مخيفة تماما . واحسست أننى « عبوة » فى قذيفة وتولانى الفزع .. وقلت لنفسى : نفرض ان هذه طائرة أوتوماتيكية وانها انطلقت بالتحكم عن بعد .. وانني فى الجو .. وانني متجه الى اسرائيل .. وانني هدف يتحرك من الممكن أن تصيبه القوات المصرية والاسرائيلية .. انني ميت ولا شك .. فأنا — اذن — أول ضحايا النصر .. وأول الشهداء — دون قصد من هذا الطيار الذى بهرنى بالمعانى التى اثارها فى نفسى له ولمئات الألوف من زملائه .. فاستسلمت وركبت الطائرة .

واشرت الى الضابط أن يخرجنى . وحاول ان ينزع الغطاء فلم يستطع .. وأشار لى أن اضغط زرارا يمينا او شمالا .. وتركنى بسرعة وعاد ومعه بعض الطيارين أو المهندسين وبذلوا جهدا كبيرا لاخراجى غارقا فى عرقى ومتعطشا الى أوكسجين الهواء .. وكأنما احس الضباط انهم ضايقونى .. أو احسوا بخطورة هذه الطائرة على حياتهم .. لأنه لا يمكن فتح غطائها والقفز منها عند الضرورة .. وانهم لذلك ممتنون لى فقد نبهتهم الى كبسولة الموت هذه !

ثم تقدم أحد الطيارين وقال لى :

— أنت مصدر فزع لنا .. ولكل سكان الزمالك !

ــ كيف ؟

ــ سيادتك شكوت من نباح الكلاب طوال الليل .. وكتبت ترجو شعراوى جمعة وزير الداخلية ومحمود السباعى مدير الأمن أن ينقذاك من هذه الكلاب .. فجاء رجل يقتل الكلاب التى تتجمع فى العمارة الجديدة بينك وبين فيلا أم كلثوم .. وكانوا يستخدمون السم والنبوت .. فالكلب يأكل السم ويقع فيضربونه على راسه ويعوى الكلب والناس يسارعون الى البلكونات ليشهدوا هذه المذبحة . ولما تكاثرنا حول القاتل كان يشير الى شقة سيادتك ويقول : أنا عبد مأمور .. هذه أوامر سعادة الباشا .. الذى هو أنت .. وفجأة كتبت سيادتك عن قسوة السم والنبوت فأرسلوا اليك من يطلق الرصاص على الكلاب .. ويختار يوم الجمعة بالذات حيث الناس فى أجازة .. فكنا نحبس الكلاب خوفا عليها .. وأنا واحد من الناس نقلت كلابى من شقتى الى شقة ماما فى المعادى .. خوفا عليها من أن يقتلوها ، بأمر من سعادة الباشا !

وطال الكلام عن الكلاب وعن الوسائل الوحشية للقضاء عليها وخوف الناس فى الزمالك .. وجاءت القهوة .. والقهوة .. وفجأة وجدنا أمامنا الفريق أول صدقى محمود ، قائد الطيران .. وتحول الشبان الى أعمدة من الحديد قد دقت فى الأرض .. وتحولت أذرعهم الى أطراف ميكانيكية لتحية القائد الكبير .. وصافحنى الفريق صدقى محمود : ماذا تقولون ؟

قلت : نتكلم عن الكلاب ؟

قال : سوف ننتصر عليهم باذن الله !!

ثم سألنى : ماذا تعمل هنا ؟

قلت : اريد أن أعود الى القاهرة .

قال : اذن تعال معى !

الله اكبر .. اذن قد وجدت الوسيلة الى القاهرة . وسوف أكون أسبق من الجميع فى كتابة ما رأيت وما سمعت .. وسوف أنقل ما قاله الفريق مرتجى والفريق صدقى محمود وما قاله الشعراء من الجنود والضباط .. ولن اكتب سطرا واحدا مما قاله اللواء عبد العزيز سليمان ..

وكان يقود طائرة الفريق صدقى محمود الكابتن حسين عبد الناصر أخو الرئيس عبد الناصر .

وواجهنى الفريق صدقى محمود بما واجهنى به الفريق مرتجى عندما قلت له : لا اظن أن اسرائيل سوف تحارب .. ولا أعتقد أن أمريكا ســوف تحارب لأنها لا تريد حربا عالمية مع روسيا وحليفات الطرفين من أجل مصر واسرائيــل .

وكأننى كنت أتحدث الى تمثال رمسيس أو تمثال نهضة مصر .. فلم يظهر اى اثر لمــا أقول على وجه الفريق صدقى محمود . فله راى آخر . ولابد أن الأدب هو الذى منعه أن يقول مثلا : وانت كيف تعرف .. أو يقول : لن ارد عليك بكلمة واحدة .. فعندى معلومات أخرى .

فقد كان من راى الفريق صدقى محمود ان الحرب وشيكة الوقوع .. وان « شيئا ما » ليس واضحا .. وانه ليس على يقين من أن القيــادة قد اجمعت رايها على القتــال .

هل أنا الذى تكلمت معظم الوقت .. او اننا كنا صامتين ، أو أنا الذى ادير المعانى فى راسى وكانت المعانى من القوة لدرجة أننى كنت اســمعها واراها .. وأتوهم أن الفريق صدقى محمود هو الذى يتكلم وأنا أرد عليه .

وكنت انظر من النافذة طول الوقت .. فلم اتبين اننا نجلس فى صالون صغير أنيق .. وان الكابتن حسين عبد الناصر هو الذى قدم لنا القهوة .

ــ تفضــل ..

ــ شــكرا ..

ــ مــاء ؟

ــ شــكرا ..

ــ ماذا كنت تقــول ؟

ــ بل ماذا كنت تقول أنت ؟

ــ انا .. انا تركتك جالسا وحدك منذ وقت طويل ؟ :

ـ اذن كنت اتحدث الى نفسى .. أو اقرأ ما سوف أكتبه .. وأرى السعادة على وجوه الجميع .

* * *

وامضيت ليلة سعيدة اتحدث فيها عن عظمة ما رأيت .. ولم اجـد تلك الأحداث الصغيرة والعبارات القاتمة ، الا نقطا سوداء فى الثـوب الفضى والذهبى للنصر المؤكد . هل هنأت الكثيرين بالنصر مقدما .. هل هنأت نفسى على الفوز العظيم بأننى اول من يكتب واسبق من سجل حوارا مع القادة على ارض المعركة .

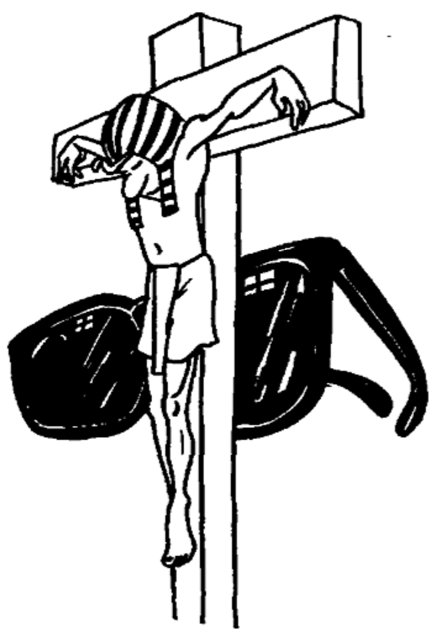
وفى مكتبى فى صباح ٥ يونيو .. تدفقت وكالات الأنباء .. وصـوت العرب يجلجل بالحرب والضحايا من الطائرات والأسرى والأهداف .. اذن لقد كنت آخر من عاد من الجبهة وأول من كتب .

ولم تكد تغرب شمس ذلك اليوم ، حتى كان الذى نعرفه ولا طاقة لنا على نسيانه !

ولم تكن الميكروبات التى يرشها جنود اسرائيل على أرض المعـركة الا علامات لهداية الدبابات والسيارات المصفحة الى أرض مصر ؟ !

□□□

لوحات على جدران الخوف



كان فى باريس مسرح اسمه « الرعب الأكبر » ـــ جران جينيـــول ـــ واغلقوه فى سنة ١٩٦١ ـــ سنة الانفصال بين مصر وسوريا . وكان المسرح يقدم للناس كل قصص وحكايات الخوف والعنف والدم . فيجلس الناس يرون الرءوس الطائرة بلا أجساد ، والأجساد بلا سيقان .. والعيـــون والصرخات وشلالات الدم والأرامل واليتامى والأيامى فى زفة سعيدة بمـــا أصاب ابناءهم وازواجهم وكأن الشيطان فى ملابسه الذهبية أو الفضـــية النقية يتسلطن على عرش من الجماجم .. ومن الجماجم تخرج أصوات تقول : بالروح والدم نفديك .

وعندما فتح هذا المسرح ستارته لأول مرة فى سنة ١٨٩٧ كان يقـــدم القصص الساذجة للأطفال مثل قصة « بانش وجودى » وبانش هـــذا شخصية مأخوذة من شخصية أخرى كوميدية ابتدعها فيوريللو الايطـــالى فى القرن السادس عشر .. أما بانش فرجل شرير يقتل ابنتـــه فى ثورة غضب ، وتحاول الأم أن تنتقم فيقتل الأم ، ولمـــا تعلق كلبه بثوبه قتـــله ، ولمـــا جاءه الطبيب خنق الطبيب .. ولمـــا حكموا عليه بالاعدام لف الحبل حول عنق الجلاد . ولمـــا ظهر له الشيطان انتصر على الشـــيطان وينزل الستار وقد تساقط الناس من الخوف .. ولكنهم يجدون فى الخوف متعة ..

هزة . صدمة .. هى التى تهد حيلهم ، وتلقى بهم فى الفراش ليناموا بعمق .. انهم يتزاحمون على المسرح ويشترون التذاكر من السوق السوداء . فلذتهم الكبرى فى عذابهم .

ولكن فجأة قرر صاحب المسرح اغلاقه . وعز عليه أن يتركه خاليا من الرعب . فأطلق فيه بعض الوطاويط والثعابين والكلاب والقطط . ويقول اهل باريس أنهم كانوا يسمعون موسيقى فى الليل . ويسمعون دقات المسرح التقليدية . كأن المسرح يتذكر ما كان ..

فى أربعينات هذا القرن ألف الفنان العظيم بيكاسو المسرحية الوحيدة وعنوانها « اللذة من نيلها » — وكان ابطال هذه المسرحية : الستارة وخشبة المسرح والمقاعد والهواء الخانق وأصداء الفزع وصرخات الألم فى المسرح والكواليس .

ثم انهدم المسرح . لماذا ؟ لأن الفزع الذى اشاعه هتلر فى أوروبا وفى العالم كله ، هذا الفزع الحقيقى ، قد جعل ما يعرضه الممثلون قصص أطفال .. لا تخيف الا الأطفال .. حتى الأطفال الذين يحلمون بأن يكونوا طيارين وغواصين ، لم تعد تخيفهم الملاعق والشوك الطائرة .. ولا السجاجيد الهائمة !

ولما أقفلوا المسرح فى باريس انفتح علينا الرعب فى مصر فقد كان الانفصال صدمة مروعة للقيادة المصرية .. وكانت الصدمة قبل الأخيرة للرئيس جمال عبد الناصر زعيم مصر بطل العروبة .. هادم الهرمين : الجيش والشعب .. والصورة المعدلة لصلاح الدين الأيوبى .. ولم يكن للزعيم عبد الناصر الا هدف واحد أن يسترد سوريا .. ان يظهر قوته أمامها .. ليؤكد للشعب السورى أن خسارته كانت فادحة .. انه مثل رجل حكمت المحكمة الشرعية بطلاقه من زوجته لضعفه الشديد . فقرر أن يتزوج كل يوم واحدة وأن يكون لهما أولاد — منها أو منه ..

فكانت حرب اليمن الخاسرة ، وكانت حرب يونيو سنة ١٩٦٧ الأكثر خسرانا . وكان ما هو أبشع من مسرح « الرعب الأكبر » .. مائة الف شهيد .. ومائة الف مليون جنيه .. بلا قضية .. الا الثأر الشخصى .. الا الشمشونية الجديدة : انا ومن بعدى الطوفان .. فكان الطوفان معه وبعده أيضا .. ويوم أعلن لا تفريط فى حبة رمل واحدة اعطى كل حبات الرمل !

ولا اعرف كيف استطاع الذين كتبوا عن نكسة ١٩٦٧ أن يمسكوا أقلامهم واعصابهم وهم يكتبون عن أعمق مأساة فى تاريخنا مأساة توقف عندها التاريخ ، لم تجف لها دموع الملايين على مئات الألوف من الأبرياء ، كيف استطاع الرئيس عبد الناصر أن يخدع شعبا ويضلل أمة ، وكيف أننا ما نزال نهز أذاننا ونفرك عيوننا لنسمع ونرى الموال الذى لا ينتهى عن « كلنا بنحبك ناصر » — رغم كل ما حدث .. ان احتيال هؤلاء الدجالين وخيبة هذا الشعب ، قد أطالت عمر الزعيم ، رغم أنه تجاوز عمره الافتراضى فى مايو سنة ١٩٦٧ يوم أعلن انه لن يحارب .. لن يهاجم .. لن يبدأ ثم حشد مئات الألوف من الجنود بلا استعداد بلا خطة .. وجعلهم عراة فى الصحراء .. وكأنه رومولوس العظيم ، آخر ملوك الامبراطورية الرومانية . عندما قرر أن يصفى الامبراطورية لأنها كبرت وشاخت فقبل أن تحاكمه وتحكم عليه حاكمها وحكم عليها وأدانها ونفذ حكم الاعدام فى صبيحة يوم ٥ يونيو سنة ١٩٦٧ .

هل تعرف اسما لما حدث ؟

ان العسكريين لا يعرفون .. والمدنيين لا يجمعون فقد كنا جميعا ضحايا التخدير والبنج اليومى .. و « الكذبة » الاعلامية من الطبالين والزمارين والدجالين .. ولذلك جاء الموت والدمار والخراب كأنها أعز أمانى الشعب — حرام !

ولم يحدث فى تاريخ الحروب ان دخل جيش معركة مهانا مفضوحا كما حدث لجيشنا .

بل ان مسرح « الرعب الأكبر » قد انفتح فى دماغى .. وأمامى على الورق وأنا أخوض اليك ، صورا من الوحوش والأفاعى والصرخات والهول العظيم .. وفى عينى وأذنى ما رأيت على جبهة القتال يوم ٤ يونيو — قبلها بيوم .. قبل الكارثة الكاسحة الفاضحة !

انها جهنم أبى العلاء المعرى ..

جهنم الشاعر الايطالى دانتى الليجيرى التى حاكم فيها كل العظماء عن جرائم الفكر والرأى والقيادة والحروب بلا أمل فى النجاة .. جهنم عالم النفس فرويد الذى يرى انه فى داخل القفص الصدرى للانسان كل مخاوف الطفولة .. طفولة البشرية وطفولة اى انسان .. فكل شىء قد ولد فى الطفولة وتوارى ليعود عند الهزات العنيفة ليصبح الرجل طفلا صغيرا

يصرخ ويضطرب ويرتبك .. انظر الى المرضى فى عيادات أطباء النفس يبكون ويصرخون . كأنهم أطفال .. انهم العوبة الخوف .. وكذلك الشعوب .

ولذلك كان تمسك الشعوب بالأب بالزعيم الذى هو أب للشعب.. ولكن الزعيم طفل هو الآخر جعلته الكارثة طفلا باكيا صارخا ينحنى على اقدام الشعب ، فاذا صدقه الشعب استرد رجولته ورغبته فى الانتقام من الذين اخافوه وأعادوه طفلا ..انها نفس قصة الشيطان فى القمم التى جاءت فى « الف ليلة وليلة » .. توسل انسان غلبان أن يحرره .. ففتح القمم فوقف الشيطان يعاقبه لأنه مغفل اذ كيف يصدق شيطانا .

انها جهنم سارتر فيلسوف الوجودية أنها الفضيحة : أن يراك الناس ولا تراهم .. وان يحاكموك وأن يحكموا عليك دون أن تدرى ودون أن تسمع .. وأن يجعلوا منك أضحوكة ، ومن شعبك أضحوكة وأنت عاجز عن الدفاع وعن استئناف الحكم . فجهنم هى : عيون الآخرين .. والسنة الآخرين .. والذين جاءوا الى مصر يلعبون فى أصابع أقدامهم لكى تخرج الاهانات من بينها تخرم أذنك وأنت تتألم ولا تتكلم — فقد هان أمرك على الناس ، كما هان بلدك ومجدك !

ما هذا الذى أمامى وورائى .. ما هذا الذى فى يدى .. القلم مثل صرخة شهيد . أصبحت بفعل النابالم عودا أسود من الفحم ..

كأن الورق برج حمام تساقطت عليه غربان سود .

كأنها حلاوة الروح قد تكاثر عليها نحل أبيض .. كأن وكأن .. الدنيا كلها فضاء رملى أصفر قد تناثرت عليه ألوف الأحذية .. ألوف الرءوس بلا أجساد .. ضحايا القرارات الخرقاء قرار بالحرب فى آخر مايو سنة ١٩٦٧ .. وقرار بانزال الطيارين . وقرار بتصفية المشير عامر .. وقرار باسقاط عبد الناصر .. ورسالة من أمريكا تقول أنها تقف وراء اسرائيل فى كل حال .. ورسالة من روسيا تقول أنها لن تقف وراء مصر .. وكل المعلومات تؤكد أن وزير الدفاع حافظ الأسد كذاب عندما قال ان هناك حشودا اسرائيلية . والرئيس عبد الناصر يؤكد أن هناك حشودا . واذاعة الأردن تسأله : وأين الدفاع المشترك مع سوريا .. لماذا لم تدافع عن سوريا .. فيقول الرئيس انها : اذاعة العيال .. وأن الملك حسين وأمه يبكيان على اتفاقية الدفاع المشترك ..

ونحارب فى الجنوب خوفا على عدن ونحارب فى الشرق خوفا على دمشق .. ويعلق الرئيس عبد الناصر انه لن يهاجم .. وانه سوف ينتظر حتى تهاجمه اسرائيل ، فاذا فعلت فسوف « تأخذ علقة » العمر — ولا هو كلام رجل سياسى ولا رجل عسكرى .. ولا هو كلام يقال لجيش تدرب على الدفاع وفوجىء بأنه مطالب بالهجوم .. جيش لم يعرف حتى الآن من الذى اعطى قرار الحرب ، ولا من اصدر قرار الانسحاب — أنها لحظة انفتحت فيها كل أنواع واشكال واحجام جهنم : التضليل والعار والجهل والغرور والألوهية — نصف الألوهية !

* * *

ويردد المثقفون ما جاء فى الصفحة الأولى لمسرحية أمير الشعراء شوقى « مصرع كليوباترا » ذلك الحوار الأليم بين ديون وحابى ، أمينى مكتب قصر كيلوباترا :

يقول حابى :

اسمع الشعب « ديون »
كيف يوحون اليه
ملأ الجو هتافا
بحياة قاتليه
أثر البهتان فيه
وانطلى الزور عليه
ياله من ببغاء
عقله فى أذنيه

ويرد عليه ديون :

حابى سمعت كما سمعت وراعنى
ان الرمية تحتفى بالرامى
هتفوا بمن شرب الطلا فى تاجهم
وأصار عرشهم فراش غرام
ومشى على تاريخهم مستهزئا
ولو استطاع مشى على الاهرام

ويقــول حابى :

أتذكر ياديون اذا انطلقنـــا
الى المينـــاء نلتمس الهواء
وكان البحر كالميت المسجى
وكان الليل للميت رداء

ويقــول ديون :

نعم وهناك آنسنا سحابا
وراء الليل جللت السماء
واقبلت البوارج بعـــد حين
سوائب لا دليل ولا حـــداء
رجعن رجوع قرصان أصابوا
من الغرور الهزيمة والبـــلاء
فلم نسمع لملاح هتـــافا
يبشر بالقـــدوم ولا نداء
ولم نر فوق ســـارية سراجا
ولا من ثقب نافذة ضـــياء

يرد عليــه حابى :

قلت ديون ابى
ارى الأسطول بالويلات جـــاء
دخول الظافرين يكون صـــبحا
ولا تزجى مواكبهم مســـاء
وردد فى المدينة ان روما
عفا أسطولها ومضى هبـــاء
فضج الناس بالبشرى وكدوا
حناجرهم هتـــافا أو دعاء

هداك الله من شعب برىء
يصرفه المضلل كيف شاء !

* * *

(١)

واول مسلسلات الرعب التى زاحمتنى وسدت الطريق الى الكتابة : يوم استدعانى الأساتذة : شميل العضو المنتدب للأهرام وعزيز ميرزا رئيس التحرير وكامل الشناوى وأحمد الصاوى محمد أما الموضوع فهو أن اذهب فورا الى حيث سقطت الطائرة بالممثلة المصرية الجميلة كاميليا — رمز الاغراء والفتنة .. مارلين مونرو الخمسينات فى مصر .

وكنت قد رأيتها مرة واحدة فى محل للأسطوانات فى شارع سكة الفضل بالقرب من مكتبة سميث التى جعلها حريق القاهرة قطعة من الفحم . وكان انور وجدى قد طلب منى أن اترجم لها مسرحية للكاتب الفرنسى جان أنوى .. ولم افعـــل ..

وكنت قد قررت أن أسافر الى أوربا . وبسبب مرض والدتى اجلت السفر ، فاحترقت الطائرة بكاميليا « ونجوت » ! وذهبت لأرى وأكتب .. ووجدت الأشلاء لحما وشحما .. ولم أعرف أيها كاميليا .. وايها كان من الممكن أن أصبح أنا .. هذه الساق . هذا الرأس . هذا الحذاء .. هـــذا القماش .. وأين الروح ترفرف فوق الذين ماتوا حديثا . واسترحت الى ان الجنة تحت أقدام الأمهات .. واننى عندما أنقذت حياة أمى ، تلقيت مكافأة على ذلك فطال عمرى لأرى اللوحة البارزة للنهاية !!

ولم أستطع ان أستوعب ما حدث .. ولا افلحت فى ان اصف ما كان وما سوف يكون .. كأنها قد حدثت بالأمس .. وكأننى جثة .. أو اشلاء .. أحاول أن انهض بين الرمال ادل زملائى من الصحفيين والمصـــورين على موقعى .. أو أروى لهم كيف انفجرت الطائرة واحترقت .. وكيف انفصال الروح عن الجسد .. وما هى الروح وما هو الموت — تلك الحقيقـــة التى لم تجد حلا عند المؤمنين والكافرين من أهل الدين وأهل الفلسفة .. وتذكرت « الصرصار » الذى حدثنا عنه الأديب كافكا .. كيف أنه فوجىء ذات صباح بأنه صرصار .. وانه يسمع ويرى ولكنه لا يعرف كيف يتكلم .. وكيف يشارك فى الحوار حوله .. صرصار حى مثل صرصار ميت — كلاهمـــا لا ينطـــق !

هل بكيت على كاميليا ، أعتقد أننى بكيت عليها ، وعلى نفسى ، لو أننى مت هكذا صغيرا .. أو أننى بكيت امتنانا ، لأننى مازلت حيا .. وأنى شاهد على القضاء والقدر — القضاء أحرق الطائرة والقدر أنقذنى !

ولم تغب هذه الصـــورة !

* * *

(٢)

ثم تخيلت خيمة كبرى طولها وعرضها سيناء .. وقد جلست أمام بابها أتلقى العزاء فى اللواء عبد العزيز سليمان ، أول قائد كبير يستشهد على خط النار .. أول دبابة اسرائيلية قد اخترقت خيمته لتسويها بالأرض .. كان رجلا شجاعا مقاتلا .. عنده مشكلة : ان الخطوط مقطوعة بينه وبين القيادة .. لا يفهمها .. ولا يعرف من هو عقلها ولا من هو نيلها .. وكان ينظر الى الجنود الشبان ويهز رأسه يمينا وشمالا ، كل هؤلاء سوف يموتون قريبـــا .. انهم لا يعرفون ! .

هذه الخيمة الكبرى لتلقى العزاء فى الوف الشبان الذين تدربوا على الدفاع .. وبعضهم تخرج ولم يتدرب .. وبعضهم لا تخرج ولا تدرب .. وانما شاء القائد أن يجعل منهم « فرقـــة حسب الله » يدقـــون الأرض ويهتفون .. دون أن يعرفوا لهم هدفا .. وانما هم مسوقون الى الموت .. لقد كنت آخر من رأى ابن أخى وابن أختى وابن عمتى .. وجيرانى .. شباب .. حيوية .. أمل .. نور الحروف الأولى المضيئة من عبارة تقول : شباب مصر : مستقبل مصر .

ثم ذهب المستقبل عندما ذهب الشباب ..

والوجوه النحاسية ، والعيون العسلية ، والشـــعور الســـوداء ، والملابس الكاكية ، والأحذية الميدانية ، وصناديق الذخيرة التى لم تفتح .. وكلنا بنحبك ناصر .. يا جمال يا جمال — فلا حول ولا قوة الا بالله ..

وصورة خيالية للواء عبد العزيز سليمان وقد أمسك عصاه وانهـــال ضربا على الذين يتلقون العزاء .. انه يعترض على العزاء .. ويعترض على الخيمة الكبيرة .. ويرى توفيرا للقماش والنفقات أن نقيمها فى نفوسنا وأن

نعزى أنفسنا فى أنفسنا .. فاليوم لا حى ولا ميت .. ولا قتيل ولا شهيد .. فالموتى استراحوا من عار الأحياء ، والأحياء يحسدون الأموات !

* * *

(٣)

اللهم اجعل دمى لعنة عليه الى يوم القيامة .. اللهم انى على دينك ، وفى سبيلك ، وأموت عليه .. اللهم هذا الطاغوت تكبر وتجبر .. اللهم رحمتك وجنتك يا أرحم الراحمين .. وانا لله وانا اليه راجعون !!

لقد كان — يرحمه الله — طويلا شاحبا .. يتساند على جلاديه .. لم يكن خائفا . وانما كان مريضا .. لم يكن خائرا ، وانما كان شـيخا ، لم يكن ثقيل الخطى ، وانما كان علما وقرآنا .. لم يكن بشرا لقد كان جبلا من الايمان والصبر واليقين ..

بحثت عن يدى ألطم بهما خدى .. لم اجدهما .. ما الذى انتابنى .. ما الذى اصابنى فأرى سيد قطب العالم الجليل والشهيد الكريم ، صديقى فى حب الأستاذ العقاد والاعجاب به ، أحد الأنوار الكاشفة للايمان والغضب النبيل من اجل الله وفى سبيله .. هل هو فرن ذلك الذى وقفنا به ؟ .. فكل شىء لونه أحمر .. الجدران .. الأرض .. الوجوه الجامدة .. هل انفتحت جهنم جديدة : حمراء باردة .. هل حمراء ملتهبة ولكن الأعصاب هربت .. نزعوها جعلوها حبالا يتدلى منها سيد قطب ؟! هل هو عندما دخل .. نزل .. مشى .. سحب أرواحنا .. فأصبحنا اشباحا .. موتى وهو الحى الحقيقى .. هل هـذا الجسـم الهزيل الشـاحب قد جمع كل قـواه وقوانا وحشدها فى حنجرته فزلزل بها المكان : لا اله الا الله .. والله اكبر .. ولا حول ولا قوة .. لبيك اللهم لبيك .. اللهم أن الموت حق .. وانك أنت الحق .. لبيك اللهم لبيـك ..

هل كان هذا صوته .. أو صوت الجدران والأبواب والنوافذ .. هل استولى على حناجرنا .. هل قفزت الى قلبه قلوبنا وانضمت الى صدره صدورنا .. وبحثت عن راسى لم اجده .. ذراعى أمدهما .. اسحبه بعيدا عن الحبل .. هل رايت دموعا فى عينيه .. او انها دموعى .. هل سمعت عويلا حولى .. هل حقا ما حدث .. لا حول ولا قوة الا بالله ..

لم يشفع له علمه العظيم ، لم تشـفع له شيخوخته الحـكيمة ، لم يشفع له مرضه ..

ومن بعده ألوف غيره من الأبرياء فى السجون وغرف التعذيب .. وهتك الأعراض للأمهات والبنات أمام الأزواج والآباء .

انه المسرح الرسمي للرعب الأكبر : كلاب وكرابيج .. ومسامير وجرادل البول والبراز تيجانا على رءوس المؤمنين بالله ، الكافرين بالطاغية ..

ولا اله الا الله ، والله أكبر ، ورسوله الأكرم ، ودينه الحق . ولا حول ولا قوة الا بالله !

* * *

(٤)

وأبشع الصور التى تصدنى وتردنى وتجمد أصابعى على القلم .. وتجعل القلم دخانا أسود ، وصدى جامدا أخرس .. صور سريالية خرافية . لوحة دموية بارزة من مسرح العبث .. مسرح اللامعقول .. المشهد الختامى لاحدى سهرات مسرح « الرعب الأكبر » الذى انتقل الى الشرق الأوسط .. الى مصر وسوريا وايران وليبيا والعراق والسودان ..

يوم دخلت مندفعا فوجدت نائب رئيس الجمهورية حسنى مبارك .. كان الحزن واضحا على وجهه .. سألته : سيادة النائب . ماذا ؟

قال : ربنـــا كريم ..

سألت النبوى اسماعيل وزير الداخلية : ماذا ؟

قال : الحالة صـــعبة !

وجدت ممدوح سالم والدموع فى عينيه . اكتفيت بهذا الرد .

السيدة جيهان السادات ، كانت تروح وتجىء فأشارت : أن أدخـــل لكى أراه !

قال لى د. مصطفى المنيلاوى : انه ميت اكلينيكيا .

قال لى طبيبه الخاص محمد عطية : ادخل ..

قلت له : ماذا ؟

فأشـار بيديه الى أن العلم عند الله ..

قابلنى د. عفيفى زوج ابنة الرئيس السادات :

تستطيع أن تدخل .

قلت : لأرى ماذا ؟

قال : لترى الرئيس .

قلت : كيف ؟

ولم يشأ أن يرد . وكان ذلك ردا كافيا .

فياليتنى ما رأيت سيد قطب ولا رأيت السادات .. الصورة التى هى نهاية .. نهاية ماذا ؟ نهاية حياة .. كفاح .. حكمة .. جرأة .. شجاعة .. اخلاص .. نهاية السياسة والحرب .. نهاية دموية لكل القرارات التى غيرت تاريخ مصر ..

أين الملابس وأين الدم .. أين اللحم .. وأين النياشين .. أين السلام والانسحاب وفتح القناة والأحزاب والدستور الدائم ومعاش السادات وأين المرح وأين الذى كان يملأ الدنيا .. وأين الذى كان رمزا للضعيف الذكى ، والفقير بعيد النظر .. ما هذا الذى على الأرض .. بقع من الدم ، قبلات لأرض مصر .. نهاية كل حى ، أيا كان هذا الحى .. هل هو نائم .. هل هو نصف نائم ، نصفه نائم على وجه والنصف الثانى نائم على الوجه الآخر .. أيهما هو .. هذا يواجه الأحياء ، وهذا يواجه الموتى .. هذا يخجل أن تراه ، وهذا يخجل أن يراك .. « كومة » زعيم .. « بقجة » أبهة .. انه هو .. وأنت .. وأى واحد .. فنهاية أى واحد كأى واحد .. أما الذى هو أنور السادات ، فقد تلاشى .. ذهب .. عاد .. الى حيث وهج النار ، وضوء الشمس ..

شىء فظيع ..

أفظع من ذلك اننى عندما نزلت من مستشفى المعادى وجدت حذاء السادات يتدلى من ذراع احد الجنود — كل ما بقى .. كل ما تبقى .. ولا يزال الحذاء أطول عمرا من صاحبه .. وعندما تهب العواصف تعصف بالأشجار وتبقى الأعشاب ..

سبحان الله : ان الرصاصة التى انطلقت على الرئيس عبد الناصر سنة ١٩٥٤ قد أصابت الرئيس السادات سنة ١٩٨١ ..

* * *

(٥)

كأننى دخلت كهفا مظلما فضجت الوطاويط فى كل اتجاه .. وانا اخفى راسى بين يدى .. كأننى بقعة من الدم والذكريات .. ضباع جائعة ..

كان صوت الضجر يؤذن فى أعماقنا ، فتنهض كل الخطايا مثل فئران النرويج تلقى بنفسها فى البحر ..

كأنها حلاوة الروح قد تجمع عليها نمل اليأس ..

كأن الليل تحول الى حبل طويل التف حول أولياء الله الصالحين .. تيك .. ذلك الصوت المعروف وبعدها يتدلى الأوليـــاء طاقية حمراء .. انه الحب مات .. انه العدل مات .. انه الظلم عاش يقول : كلنا بنحبك ناصر ..

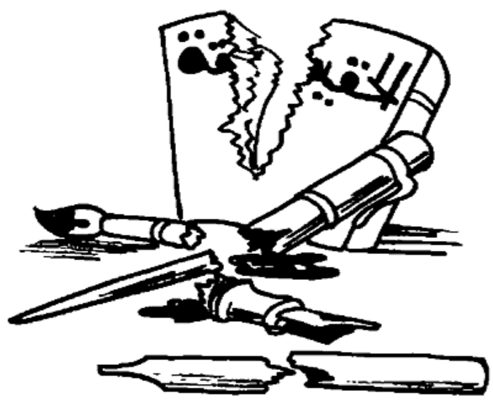
صور .. سحب .. ظلمات .. كهــوف .. مطبات .. فجوات فيديو يدور معدولا ومقلوبا .. فنرى الموتى تنفك عنهم حبـــال المشنقة ويمشون بظهورهم الى السلالم .. الى الغرف الى السيارة .. ثم السيارة تندفع لتتعلق هى الأخرى فى المشنقة .. وكذلك اتوبيسات المدارس وفيها اطفال يغنون : بابا جمال .. بابا جمال !

هل كان يقصدنى الأديب الألمـــانى هوفمان فى احدى أقاصيصه التى يكتبها وقد أدار الحشيش راسه وخياله وقلمه .. فقد جعل أحد ابطاله يمسك زجاجة يملؤها بزفرات المظلومين .. ثم يسقط فيها دموع الأبرياء .. ومن زفراتهم ودموعهم يصنع مفاتيح من الثلج الأبيض .. هذه المفاتيح يغرسها فى قلب اى انسان .. ينفتح القلب ويخرج الخوف والحزن واليأس والندم .. فيجىء طفل صغير ويغسل القلب بما فيه .. ثم يغلق القلب ليستأنف الانسان حياة اهدأ وأجمل ..

كأننى انا الآخر .. قد أخرجت ما فى أعماقى لعلى أرى أعمق ، واسمع اوضح ، واستأنف النظر الى الذى كان ولا يزال كائنا .. الى الذى مات ولا يزال حيا .. ندما وعارا وتضليلا ونصبا واحتيالا على الشعب .. نفس الشعب الذى أراد الحياة فى سيناء ، فكانت قبره المختار !.

□ □ □

ولكن لا حياة لمن تنادى!



من قوة بلا عظمـــة ، الى عظمـــة بلا قوة ــ هذه هى حياة الرئيس جمال عبد الناصر ..

وما أكثر الذى قاله عن القوة وعن العظمة ــ فلا قوة الا للشـــعب وبالشعب ، ولا عظمة الا للشعب وبالشعب .. الخ .

ولم يكن هذا رأيه دائما وانما على حسب الأحوال !

ففى سنة ١٩٥٤ عندما انطلق عليه الرصاص فى ميـدان المنشـــية بالاسكندرية قال عبارته الخالدة : أنا اللى علمتكم العزة .. أنا اللى علمتكم الكرامة !

فقبله لم تكن لنا عزة ، وبعده لم تكن لنا كرامة !

وهو على حق فى ذلك : فهو والكرامة لا يجتمعان !

ولذلك لم يكن لنا تاريخ قبل عبد الناصر لأن التاريخ معناه : محاولة الشعب الذى يحصل على مزيد من التحـــرر : من الخوف والجوع والمرض والظلم والجهل .. فاذا تحقق لنا ذلك فهى الكرامة وهى العزة . ومادمنا

بلا كرامة ، فليس لنا تاريخ . وتاريخنا بلا أبطار ولا ثوار : بلا عرابى وسعد زغلول والنحاس وحسن البنا .

ولمـــا سمح عبد الناصر بشىء من تاريخنا القـــديم ، ظهرت لهؤلاء الزعماء صورهم فى الظل .. فى ظله وبفضل منه .

وبعد ان تعلمت الجماهير الكرامة والعزة من الرئيس عبد الناصر ، راح يمتن لها قائلا : الشعب هو المعلم .. الشعب هو الأستاذ !

اى أنه هو الذى علم الجماهير ، فتعلمت وتقدمت حتى أصبح منها فى مكان التلميذ .. فهو علمها حتى تفوقت عليه . فالفضل له عندما علمها ، والفضل له عندما تواضع فى طلب العلم . فالشكر مضـــاعف له : تلميذا واستاذا !

ولم يكن عند عبد الناصر احساس بالتاريخ . فمعلوماته التاريخيـــة قليلة جدا . وهو لا يرى أبعد من انفه الطويل . ولذلك فاحتقاره للتـــاريخ المصرى قد وضح لنا فى مناسبتين :

الأولى وكنت شاهدا ومستمعا فقد ذهب الرئيس عبد الناصر لمشاهدة « مراكب الشمس » ووقفت مع كمال الملاخ الذى اكتشف مراكب الشمس واضطهده رؤساؤه لأنه سبقهم فأعلن فى الدنيا ذلك الاكتشـــاف . وجاء الرئيس عبد الناصر وقال : يا كمال .. أنا لم آت لكى اتفرج على هـــذا الكلام الفارغ وانما جئت لأرفع روحك المعنوية !

والمرة الثانية عندما هاجم المانيا الغربيـــة لأنها ســـاعدت اسرائيل بالأسلحة والذخيرة . وكان الألمان قد حققوا معجزة هندســـية معمارية . عندما فكوا معبد كلبشة الى الوف القطع .. ثم نقلوا المعبد .. وأعادوا تركيبه . وهذا عمل من مفاخر التكنولوجيا الحديثة .. فقال الرئيس : شوية الحجارة اللى فكوها وربطوها .. يشيلوها مش عاوزينها !

ولو عرفنا كم عدد الساعات التى أمضاها العلماء فى الدراسة والرسم والتصوير والتخطيط وكم عدد العلماء والأثريين والمهندســـين .. وكيف وضعوا ارقاما وزوايا لكل قطعة حجر .. وكم عدد المناشير التى استخدمت وآلات الرصد والموازين والمكاييل وشكل الهيئة الفلكية والموقـــع الجديد الذى يشبه الموقع القديم للمعبد .. انها معجزة علمية ومساهمة تاريخية فى انقاذ احدى التحف الأثرية الفرعونية .

ان كان لك صديق أجنبى اسـألـه : ما رأيك فيمن يقـول لك : ان الأهرامات كلام فارغ ؟

ثم اسأله ما رايك : اذا كان هذا هو راى أحد الحكام المصريين ؟

لا تقل لى الاجابة فاننى عرفتها !

* * *

وفى سنة ١٩٥٦ عندما وقع علينا « العدوان الثلاثى » ظهرت أعماق الرئيس عبد الناصر ولكننا لم ننتبه لذلك . فهو ، والطبالون أمامه والزمارون وراءه ، يعتقدون ان العالم كله قد انهزم وانه هو وحـده الذى انتصر ، بلا جيش وبلا شعب .

فكيف لو حارب بجيش من ورائه شعب ؟

ثم قال عبد الناصر أنه لولا تهديد الروس ما انسحبت فرنسا وبريطانيا واسرائيل — ولم يثبت قط أن الروس هددوا بشىء .

ولمـا غضب من الروس قال : لولا الأمريكان .

ولكنه احس دائما انه لولاه هو وحده لا شريك له ، ما كان هذا النصر على الزعماء والقادة والجيوش !

وقيل فى ذلك الوقت ان العبارة التى قالها ولنجتون على نابليون تصدق على الرئيس عبد النـاصر . قال ولنجتون الذى هزم نابليون فى معـركة ووترلو : ان جيشا بغير نابليون ، جيش تنقصه خمس فرق !

وعندما تمت الوحدة مع سوريا كان ذلك أعلى نقطة وصـل اليهـا عبد الناصر فى كل تاريخه السياسى والعسكرى . فهو لم يوهب عرش مصر فقط ، وانما سقط عند قدميه تاج سوريا أيضا .. ذلك الشعب الذى هو رائد القومية العربية ، وأستاذ الفلسفة السياسية ، وصـاحب التعابير والتراكيب البلاغية . فكل مواطن سورى زعيم سياسى وكل زعيم سياسى فيلسـوف وكل فيلسـوف شـاعر .. وكل نسـائه لحم ابيض وشعور ذهبيـة وعيـون زرقاء .. هـذه النسـاء هى التى زغردت للرئيس وكادت تحمله على الأعناق وحملته على الصدور وفى القلوب .. ان سوريا « مكافأة » تاريخية على صموده للعدوان الثلاثى .. وحققت سوريا لجمال عبد الناصر أعظم أحلامه . فهو مؤمن بأنه أكبر من مصر . وان مصر صغيرة

عليه . فأضاف اليها سوريا وليبيا والعراق واليمن والسودان .. ولذلك كانت الضربة القاضية عليه هى : الانفصال !

الانفصال جعله يحس أنه أصغر من سوريا ، وان مصر « كبيرة عليه » .. وانه يجب أن ينكمش وأن يعرف حجمه الطبيعى . وانه اذا كان فرعونا جديدا ، فالفراعنة عاشوا وماتوا على ضفاف النيل . وأن الكرباج الذى أذل به المصريين ، يجب ان يتركه عند الحدود .. ولكنه لم يستطع الا أن يكون فرعونا ، وهم لم يستطيعوا الا ان يظلوا سوريين . فرفضوه مصريا ، وقبلوه عربيا . رفضوه شخصا وارتضوه فكرة !

ثم كانت الهزيمة العسكرية . وقد استرد العسكريون شرفهم وكرامتنا عندما انتصروا فى سنة ١٩٧٣ . ولكن ماتزال آثار الهزيمة فى النفوس . جرحا لم يجف . اما الملح الذى يوضع على الجرح فهو التمجيد المزيف لصاحب الهزيمة ومخطط النكسة !

* * *

وفى اول خطاب للرئيس عبد الناصر فى مجلس الأمة ، طلب الى الشعب ان يكف عن النكت — أول مرة يتوجع رئيس دولة من النكت . أول تجريم وتأثيم للنكت على هذا المستوى . لقد نسى الرئيس ان المصريين أولاد نكتة — اننا مختلفون عن الشوام الذين أرادنا أن نكون مثلهم : فلاسفة لا يضحكون — فقد اقتسمنا مع الرئيس الضحك والفلسفة .. هو يتفلسف ونحن نسخر من ذلك !

وكان هذا الطلب ينطوى على مغالطة شنيعة . فهو يتوسط لدينا ان نكف عن السخرية من الجيش . أى ان الجيش هو المسئول وحده عن الهزيمة . ولم يتنبه عبد الناصر الى ان النكت ليست ضد الجيش ، وانما ضده هو . ولكنه كان قد اقتنع بان الهزيمة وقعت بسبب الذين حوله ، وبسبب الدول العظمى . ولو لم يكن عبد الحكيم عامر « غائبا عن الوعى » ولو لم تحتشد الأرض والسماء ضده ، لدخل تل ابيب فى ٢٤ ساعة !

ومعنى موقف عبد الناصر : ان الجيش يستحق هذه السخرية ، ولكنه يرجونا ان نكف عن ذلك .. من أجل خاطره هو !

ولم يكن عبد الناصر يطيق سماع النكت . كان أول الأمر يضحك لها . ولكن عندما تتناوله شخصيا كان يضيق بها . ونحن أصدقاء الأديب المرحوم

عبد الحميد جودة السحار نعلم غضب عبد الناصر عليه عندما نقلوا عنه نكتة مشهورة . ولم يهدأ عبد الناصر الا عندما تدخل حسن ابراهيم نائب رئيس الجمهورية ليؤكد له ان السحار ليس صاحب هذه النكتة وانما هى نكتة قديمة قيلت عن هتلر وفرانكو اما النكتة فهى التى تقول : ان رجلا كان يجلس على المقهى ويشترى الصحف كل يوم فينظر فى الصفحة الأولى ثم يبصق على الأرض ويلقى بالصحيفة . فسئل يوما : لماذا تشترى الصحف ولا تكاد تراها حتى ترميها على الأرض . ماذا تقرأ ؟

قال : الوفيات .

فقيل له : ولكن الوفيات فى صفحة داخلية .

فأجاب الرجل : ولكن الذى انتظر وفاته لا يموت الا فى الصفحة الأولى !

وبعد الهزيمة العسكرية دخل جمال عبد الناصر الغيبوبة الثانية .

اما الغيبوبة الأولى فهى بعد الوحدة مع سوريا .. فقد ارتفع وابتعد عن الناس وعن كل الذين حوله . فلم يعد أحد يراه ولا يسمعه . ولا هو يرى أو يسمع أحدا — وتعالى على المصريين ثم السوريين . وكان مشغولا بما يقال له عن مجده وعظمته .. وان الدول العربية الأخرى سوف تبايعه جميعا وليس عليه الا أن ينتظر . وسوف تجىء كلها بالذوق أو بالقوة .

اما الغيبوبة الثانية فهى بعد الهزيمة .

الأولى : كانت غيبوبة النشوة .

والثانية : كانت غيبوبة فقر الدم .. غيبوبة المصابين بالسكر وضعف القلب وتصلب الشرايين .

وبعد سنة ١٩٦٧ لم يعد عبد الناصر يحكم مصر . وانما يحكمها رجال الحاشية .. تماما كما كان يحدث فى قصور آل عثمان . فعندما يكون السلطان طفلا ، أو شابا غارقا فى الجنس والخمر ، فكانت « الوالدة باشا » اى أم السلطان التى ولدته سفاحا هى التى تحكم السلطنة مستعينة بالطواشى والأغوات — وكذلك كان حكم مصر منذ الهزيمة العسكرية حتى جنازة الرئيس — حتى فى الجنازة كانت هناك مؤامرة على وراثة عرش مصر ؟ !

واحد فقط فى مصر هو الذى ادرك بمنتهى الوضـــوح من الذى يحكم مصر ومن الذى يتآمر على عبد الناصر .. وقد دفعه حبه الصادق واخلاصه المؤكد الى أن يلفت نظر الرئيس . فكتب له خطابا طويلا ثم انتحر ونقلوه الى مستشفى المعادى . لقد قرر ان يقول كلمته ويمضى . ويموت !

انه شوقى عبد الناصر احد اشقاء الرئيس عبد الناصر . كتب اليـــه خطابا طويلا . ظل يكتب هذا الخطـــاب اياما من الأرق والخـــوف والفزع والحزن : فليس سهلا عليه أن يرى أخاه هكذا ينهار والكلاب تنهش لحمه حيا . والخدم يلتفون حول العرش ويحكمون مصر من وراء ظهره فبعث اليه خطابا . وقبل ان يتصور أخوه ولو لحظة واحدة انه تجرأ عليه لانه انكسر وانه ما كان يجرؤ أن ينصحه لو لم يكن مريضـــا منهزما . ولذلك انتحر .. ولسوء حظه انقذوه !

وزاره الرئيس عبد الناصر فى مستشفى المعـــادى قســـم الأمراض العصبية قبل أن يسافر الى روسيا للعلاج . وكان الرئيس عبد الناصر لطيفا معه . واسعده ذلك . ولم يسأله عن الخطاب ولا قال شيئا يدل على انه قراه . فقد رأى محمد أحمد سكرتيره الشخصى ، ان هذا الخطاب سوف يوجع قلب الرئيس . ولذلك أخفاه عنه . ومات الرئيس عبد الناصر دون أن يقرأ النصيحة المخلصة الوحيدة التى حذرته من سامى شرف وشعراوى جمعة وعلى صبرى !

❋ ❋ ❋

وقد احس الذين حول عبد الناصر مرتين ، أنه ليس مؤمنا : بعـــد الوحدة وبعد الهزيمة .

ونشرت الصحف البريطانية بعد وفاته حديثا مع أحد مستشاريه : ان عبد الناصر لم يكن مؤمنا !

ونشرت المجلات المصرية ايضا . ومما قاله عبد الناصر : ان الجوعان يحلم انه فى سوق العيش .

اى ان الاسلام ، وكل دين ، ليس الا تحقيقا لأحـــلام اليقظـــة عند الضعفاء والفقراء فهو تعويض لهم ، عن الذى لم يجدوه فى الدنيا .. فقط لا اكثر ولا اقل !

والله على ما اقول شـــهيد : فقد كنا نقف فى ملابس الاحرام حول الكعبة : رئيس مجلس امة سابق ورئيس وزراء سابق وأمير مكة ومذيع سابق ، عندما تقدمنا الوزير المحافظ عضو مجلس الشورى حمدى عاشور ووضع ذراعه العارية على الكعبة يوم غسيلها قائلا :

ورب هذا البيت لقد سمعت الرئيس عبد الناصر يصف الحج بأنه كلام فارغ .. وسمعت أحد مستشاريه يقول ذلك ايضا .. ثم رفض المستشار ان يكمل الطواف حول الكعبة !!

فبالله عليك ما الذى يشعر به اى انسان يذهب للصلاة فى مسجد عبد الناصر وهو يعلم أن صاحب الضريح لا يؤمن لا بالمسجد ولا بالسجود ولا برب هذا البيت ؟ !

ولذلك كان أولاد البلد على حق عندما يمرون بالمسجد ويقولون : انه مسجد سيدى المفترى !

ويبدو أن الارتفاع المفاجىء كالهبوط المفاجىء ، يجعل الانسان يفقد توازنه : عقله وايمانه ايضا !

ولم أندهش لمـــا قاله صـــديق سودانى عندما زار احـــد الزعماء السودانيين السابقين فى شهر رمضان فوجده يشرب الخمر . فبادره الزعيم السابق قائلا : قبل أن تسألنى تفسيرا لهذا الذى تراه ، انا اقول لك .. حاولت ان أساعد أخينا (واشار الى السماء) ولكنه لم يســـاعدنى .. فلا معنى للتمسك به !

سبحان الله واستغفره !

وكان عبد الناصر فى اجتماعات مجلس الوزراء بعد الوحـــدة وبعد الهزيمة ، شخصا لا يطاق .. فهو يرفض المناقشة والمراجعة .. ففى ايام الوحدة قد تأله ، وبعد الهزيمة قد تأله .. لقد اصبح مثل أبطال المسرح الاغريقى : العالم كله ضده .. كل القوى .. كل آلهة الأوليمب .. فهو وحده يقف ضد عناصر الطبيعة ، وهو وحده فى صراع مع كل جبابرة الكون فاذا انهزم فطبيعى ان يحدث له ذلك .. أنه وحده ، والعالم كله ضده .

وهناك حادثة مشـــهورة لأحد الوزراء حاول الاســـتقالة فقال له : ماعنديش وزراء يستقيلوا . !

اى ان الوزراء يطردون فقط !

وكان الحجاج بن يوسف الثقفى طاغية العراق يقول : ان طاعتى اوجب من طاعة الله .. فالله يقول « اطيعونى اذا استطعتم » .. أما أنا فأقول اطيعونى استطعتم أو لم تستطيعوا .. والله لو عصانى احد أو فكر فى ذلك ، لقطعت راسه !

وحادثة الغواصة الاسرائيلية التى دخلت المياه المصرية ، لم يجرؤ احد ان يوقظ عبد الناصر لينقل اليه هذا النبأ . ولا حتى عندما صحا من نومه . ولكن فقط وهو فى طريقه الى اجتماع مجلس الوزراء . وقد سمع النبأ دون أن ينظر الى سكرتيره سامى شرف . وكأنه برغوث فى أذنه ، أو ذبابة وقفت على يده .

فقد خشى السكرتير أن يسمع من الرئيس : انت مجنون .. تصحينى من النوم علشان غواصة .. حتى لو اجتاحت جيوش اسرائيل مصر ووقفت على مشارف القاهرة ؟ !

ولم يحاسبه عبد الناصر لانه تأخر فى ابلاغه النبأ .. وانما جاءت الاستهانة بالنبأ ، دليلا على حسن تقدير سامى شرف وآخرين !

وفى عيد ميلاد احد اولاد عبد الناصر فوجىء بطفل ابن احد الضباط الذين اختلف معهم ، فالتفت فى غضب قائلا : كيف دخل هنا .. اخرجوه .. لا هو ولا ابوه !

وخرج الطفل باكيا ، وبقية الأطفال لا يفهمون !

* * *

انتهى الرئيس جمال عبد الناصر ، وبقيت سيرة الزعيم .

فبعد النكسة لم يعد هناك .

وانطبق عليه قول الشاعر القديم :

لقد أسمعت لو ناديت حيا   ولكن لا حياة لمن تنادى !

اى لو كان الذى تتحدث اليه حيا لسمعك ، ولكنه لم يعد يسمع .. مات !

انتهى ..

لقد ثار سنة ١٩٤٨ وانتصر ١٩٥٢ وجرح ١٩٥٦ وذبح سنة ١٩٦١ ومات سنة ١٩٦٧ ودفن سنة ١٩٧٠ !

* * *

وقد ساعد الرئيس السادات على هذه «النفخة» الناصرية . لا شك.

وكثيرا ما كان يقارن بينه وبين عبد الناصر ٠ يقول مثلا : عبد الناصر مشدود دائما ، ولذلك كان كل الذين حوله عصبيين ..

وهو ليس كذلك ..

عبد الناصر لا يرفع عينه عن التليفون ، ولا يسد اذنه عن الاذاعات الأجنبية .. عبد الناصر دائما جالس وراء مكتب .

ولذلك كان السادات يجلس فى الحديقة بعيدا عن المكتب والتليفون والاذاعة ٠ وهو يتمشى ويتريض ويركب البسكلت . ويجىء من يقوم بتدليك ذراعيه وساقيه .. ثم انه يعيش على الوجبة الواحدة .

وكنت أقول للرئيس السادات : هناك قصة جاءت فى ديوان « بستان الورد » للشاعر الفارسى سعدى . القصة تقول :

سئل رجل : ممن تعلمت الادب ؟

اجاب : من رجل قليل الأدب . فكان اذا عمل شيئا ، امتنعت عنه !

وكان السادات يبتسم ولكنه لا يستحسن هذه الحكاية . لأن معناها انه فقط « مخالف » لعبد الناصر..وهذا موقف سلبى . ومعه حق فالسادات أكثر ايجابية من عبد الناصر .

ولكنه لم يكن يحب هذه القصة لأنها صحيحة أيضا . فهو يمتنع عن اشياء كثيرة جدا ، كان يعملها عبد الناصر .

وقد كان قريبا من عبد الناصر ثلاثين عاما . رآه ولاحظه وفهمه .. ولذلك ابتعد عنه فى مرحلة مبكرة جدا .

ويقال ان عبد الناصر شكا أنور السادات الى مصطفى امين . وقال له : والله سوف يدفننا أنور السادات جميعا !

وقال له أيضا : ان السادات يهرب من القاهرة اذا حدثت مشكلة .. متظاهرا بالمرض أيضا !

ويقال ان مصطفى أمين نقل الى السادات هـــذه الشكوى فقال له السادات : ثورة يوليو ثورة عبد الناصر وحده . ولن يسمح لواحد منا ان يشاركه فى ذلك !

ولذلك تخلص من كل اعضاء مجلس قيادة الثورة . ولم يبق الا أنور السادات . لمـــاذا ؟

لأن أنور السادات فهم عبد الناصر . ولأن انور السادات اخبث من عبد الناصر ..

وقد استأذنت الرئيس السادات فى ان اضع لهذه المعانى تعبيرا افضل فوافق . فقلت : ان الناس كالمسامير ، الذى له راس وهو الذى يمكن خلعه .. ولذلك اختار أنور السادات الا يكون له راس .. وان يغوص فى الخشب ، فلم يخلعه عبد الناصر !

وقد استراح عبد الناصر الى ان السادات لا راى له ، ولا مواقف. وانه بعيد طول الوقت . ولا خوف منه .

واستطاعه السادات بدهائه أن يطمئن عبد الناصر تمـــاما فأوصى عبد الناصر على أولاده .. أى انه سوف يموت قبل عبد الناصر . واستراح عبد الناصر الى نائبه الـــذى لا رأى له ولا خطورة منه ، ســـوف يموت قبله وقريبا جدا !!

ونقلت هذه المعانى الى الرئيس السادات قائلا : ان هذا اجتهادى !

فلم يشأ أن يقول شيئا وانما اكتفى بالضحك !

وعرف السادات ما أصاب عبد الناصر بعد الهزيمة العســـكرية ، فأسرف فى الخطابة له والدعوة لتأييده ومساندته .. وفى نفس الوقت ابتعد عن القاهرة .

ولما توفى عبد الناصر ، خلفه السادات . وكان عليه أن يصلح كل ما افسده جمال عبد الناصر فى العسكرية والسياسة ، فى مصر وخارجها .

وبدلا من أن يعلن اختلافه التام عن كل القرارات الخاطئة الفادحة التى

اتخذها أو عجز عن اتخاذها عبد الناصر ، فوجئنا بالسادات يؤكد انه شريك فى المسئولية . أو انه مسئول تماما عنها .

وكان الناس الطيبون من الحزب الوطنى يغضبون قائلين : وانت مالك يا ريس !

وكان الرئيس السادات يقول : انه الوفاء .. يجب ان نكون أوفياء !

أى أن الوفاء لصديقه عبد الناصر يحتم عليه أن يرد غيبته وأنه من الواجب علينا أن نذكر محاسن موتانا .

ممكن . لولا ان لى رأيا آخر . وهو ان السادات كان عليه أن يختار بين أمرين كلاهما شديد المرارة :

اما أن يكون لا قيمة له ولا وزن ولا دور له فى كل القرارات التى اتخذها عبد الناصر ، واما أن يكون له دور .. فاختار أن يكون له دور وخاصة فى القرارات الخاطئة . وانه لذلك يتحمل جزءا من اللوم والنقد واذا حاول أحد أن ينتقد عبد الناصر ، فسوف يستحى أن ينتقد السادات الشريك فى الخطأ .

ومضى السادات يترحم على جمال عبد الناصر . وكان يقول : الله يرحمه — بطريقة خاصة — كأنه يقول : الله يجحمه .. وكان الناس يتندرون بذلك !

ومضى السادات فى اقامة الجنازات الضخمة والفخمة فى كل مرة يذكر فيها اسم عبد الناصر . وفى نفس الوقت استمر فى سياسته القائمة على أنه « اذا قطع عرقا فانه لا يسيل دما » .. واذا أسال الدم فالقليل يكفى .. فقد صادق مراكز القوى كلهـا .. وترفق بها .. حتى الذين وضعهم فى السجن عاملهم معاملة كريمة .. واغراهم بأن يعتذروا له . وبعد ان يخرجوا كانوا يطلبون اليه ان يساعدهم ماديا فى « تجهيز » بناتهم .. وعلاجهم فى الداخل والخارج . وكان يفعل وان كانوا قد انكروا ذلك فيما بعد وتنكروا له !

ولمـا خرج عدد كبير من الشيوعيين من السـجون ، لم يشـكروا السادات . وانما شكروا عبد الناصر الذى ادخلهم السجون لانهم عندما دخلوا السجون ، كانت القوات السوفيتية فى مصر . وهذا هو المهم .

فالذى أدخلهم السجون ، ولم يطرد الروس ، يستحق منهم الامتنان العظيم .

والذى أخرجهم ، لا يستحق الامتنان لأنه اخرج الروس !

وفى البلاد العربية انتشر عدد من الصحفيين المصريين ، الغاضبين والساخطين والانتهازيين . وظهرت مقالات فى الصحف والمجلات تلعن السادات الذى انتصر فى سنة ١٩٧٣ وتمجد عبد الناصر الذى انهزم فى سنة ١٩٦٧ . لأنه انهزم أمام الدول العظمى . ويلعنون السادات الذى انتصر على دولة صغيرة هى اسرائيل .. ومن يقرأ الصحف العربية والمجلات يخيل اليه ان هذا هو رأى العالم العربى كله . بينما العالم العربى ، ليس فيه رئيس دولة ولا حكومة ولا احد يطيق ان يسمع اسم عبد الناصر ، فقد شتمهم واحدا واحدا .. الأب والأم واللحية . وكانت الجماهير فى مصر تردد وراءه عندما يشتم والدة احد الملوك فتقول الجماهير : طالع لأمه .. طالع لأمه .. يقصدون الملك حسين .. أو انتف ذقنه ــ ويقصدون الملك فيصل !

لكنه الخوف من سوريا ومن المنظمات الفلسطينية ثم الانتهازية التى تربصت لكل انتصارات مصر الداخلية والخارجية .

وفى جو الحرية والديمقراطية وتعدد الآراء وتنظيم الخلافات السياسية فى برامج لها أحزاب ، أو أحزاب لها برامج كان هذا العدد القليل الذين يسمون انفسهم بالناصريين — وعليك ان تتساءل عن معنى هذا الاسم . هل هو احياء لذكرى الزعيم عبد الناصر ؟ لا بأس .. أو هو احياء لأفكاره؟ فما هى افكاره وما مدى نجاحها فى اى بلد .. وكم تكاليفها وكم تبلغ ديوننا بسببها ؟

وأنور السادات ساعد على تضخيم بطولة عبد الناصر .. فاستعان بكل معاونيه بعض الوقت .. وتحمل رذالة اولاده واصهاره .. وكان هدف السادات انه لا يريد ان يفتح على نفسه جبهات كثيرة . فهو يريد أن يتجه الى الحرب ، دون فتح جبهات داخلية .. او جبهات شخصية . وبعد الحرب والانتصار ،او تحريك الموقف ، سوف يعود الى هذه الخلافات الهينة. ثم أن أنور السادات لا يحب ان يدخل فى معارك صغيرة ، او فى فتافيت الأحداث على عكس رجلين آخرين : عبد الناصر وبيجين ..

كما ان انور السادات كان حريصا على احياء ذكرى عبد الناصر ، ليؤكد الفرق الواسع بينهما . وكيف فشل عبد الناصر حيث انتصر السادات ..

ولذلك قالت النكت المصرية : ان السادات يمشى على خط عبد النـــاصر بأستيكه !

وكان فى استطاعة السادات أن يخربش عبد الناصر بأستيكة او يحاول ذلك ولن يحتاج الى جهد كبير .. فقط أن يبرز أخطاءه وعيوبه . وان يفضح اعوانه .. لولا ان السادات هو الآخر مثل عبد الناصر لا يثق كثيرا فى الذين حوله فكلاهما متآمر . وكلاهما كان يتوقع الطعنات من اى احد !

وفى التاريخ الماركسى كثير مثل هـذا : فستالين اغتال كل خصومه وطارد زميله وعدوه تروتسكى حتى قضى عليه فى امريكا .

وخروتشيف فى المؤتمر العشرين للحزب الشيوعى مسح اسم ورسم ستالين من الميادين والكتب .

وبريجنيف مسح اسم خروتشيف من الكتب وجعله يموت فى احدى الحدائق وهو يصور العصافير . ولما مات دفنه فى مقـــابر اللقطاء وليس فى الكرملين .

وجورباتشوف فعل نفس الشىء مع برجنيف ولكن بهدوء قبل أن يتكاثر الحرس القديم من الماركسيين المتشددين على جورباتشوف فيسقطوه قبل أن يطيح بهم .. ثم أنه أعاد نبش قبر ستالين وأخرج رفاته وبصق عليها .. وأقام حفلات التكريم لخروتشيف ؟ !

فالقاعدة فى التاريخ : أن الأبطال يستأصلون الأبطال لحساب الشعب الذى ليس بطلا !

ثم انها بطولات مزيفة ..

وقد عرفت أوروبا — مثلا — فيما بين ١٧٧٠ و ١٨٧٠ عددا من الأبطال بهروا الناس : فريدريش الاكبر ونابليون وبســمارك .. خدعوا الناس ، فالقى الناس همومهم فوق اكتاف الأبطال ومستقبلهم تحت اقدامهم، فخرب هؤلاء الأبطال اوروبا كلها !

ولابد أن يجىء وقت على اى بطل مهما كان عظيما ، فيصـــبح مملا للناس . ولذلك كان القبر اعظم حصن يحمى الأبطال من غضبة الجماهير التى مشوا على اشلائها الى القمة !

□□□

لكي يحبه الناس لابد
أن يقطع قلوبهم!



لكى يحبه الناس لابد أن يقطع قلوبهم!

فى برنامج تليفزيونى مع مؤرخنا الكبير عبد الرحمن الرافعى سألته : قل لى يا استاذ هل الحب قبل أو بعد الزواج ؟

وازداد وجهه احمرارا وظهرت براءته ورقته وورطته عندما قال : لقد أحببت زوجتى بعد الزواج !

فلا يصح أن يعرف أحد زوجته قبل الزواج ، لعله يفهمها ، لعلها تفهمه . وانما هو سمع عنها وعن أسرتها وتربيتها . وهذا يكفى .. فلما تزوجها أحبها . وعاش سعيدا معها .

هذا هو المؤرخ عبد الرحمن الرافعى . انه رجل على خلق . والتاريخ عنده موعظة اخلاقية ، وعبرة للشعوب . وهو ناظر مدرسة ونحن تلامذته .

فلا هو فى دهاء وسخرية المؤرخ الانجليزى جيبون ..

ولا هو فيلسوف الحضارة مثل المؤرخ الألمـــانى اشبجلر .

ولا هو مهندس الحضارات القديمة والحديثـــة وعميد المؤرخين فى بريطانيا توينبى الذى وصف عبد الرحمن الجبرتى بأنه اعظم المؤرخين فى

كل العصــــور . لأنه رجل واقعى .. ولأنه انبهر بعلماء الحملة الفرنسية وقضاتها ، ولكنه كره العدوان على أرض مصر ، وشعب مصر ، ومقدسات مصر ..

فقــال لى من الذى يكتب تاريخ بلدك ، وانا أقــول لك من أنت وأى شعب انتم !

وكان الرئيس عبد الناصر هدفا لنوعين من المؤرخين ..

نوع لا يتحدث الا عن تحدياته الناجحة ، ونوع يتحدث عن اخطائه الفادحة .. فهو اما ملاك كريم ، أو شيطان رجيم .. أو الأثنان معا : شجاع شرير .

وكان المؤرخ الأمريكى وليم شيرر يصف هتلر بأنه عبقرى شرير .

وهذان المؤرخان يستفزان القارىء ..

فمؤرخ يجعل الشعب داخلا فى حساب عبد الناصر فى جيبه الصغير ..

ومؤرخ يجعل الشعب خارجا عليه رافضا له ..

واحد يرى فيه الطفل النبى ، والشاب الملهم ، والرجل الفذ ، والبطل الأغريقى الذى اختفى ولم يمت وهو المقدس الذى لا يمس — يجب الا يمس !

وواحد يرى فى طفولته مرارة ، وفى رجولته حقدا ، وفى بطولته دما ، وفى موته فرارا من العقاب — ولابد من استئناف الحكم عليه وادانته !

(١)

ولا بد أن يتناول المؤرخون : طفولته وبطولته وجنازته وعودته .

وفى كتب التاريخ يضعون عبد الناصر بين العظماء اليتامى ، أى الذين وجدوا انفســـهم فى سن صغيرة وحدهم . وهذه الوحدة فرضت عليهم العزلة . والعزلة اعطتهم فرصــــة لتأمل حالتـــه وحال الآخرين . وملأت نفوسهم أيضـــا بالحزن عندما ادركوا الفـــوارق بينهم وبين النـــاس .. وعبد الناصر كان يتيم الأم ولذلك لم يكن يحب أباه الذى تزوج سيدة أخرى فهو لم يحبه لأنه لم يعوضه عن امه .. وهو لا يحبه لأنه اتى بسيدة أخرى . ولأنه عاش ، وكان يتمنى أن تعيش أمه أطول .

ويرى علماء النفس ان الذى يحب أمه اكثر يحب النساء أقل .. ويكن لهن احتقارا شديدا . فهو يرى أن العلاقة المثالية هى التى بين الابن والأم .. وبعد فقدان الأم يكون قاسيا على المرأة وعلى كل الناس .. ويضاعف هذه القسوة أن يجد أبوه قاسيا عليه .. فتتولد عند الطفل حالات مضاعفة من القسوة .. انها رد فعل لما أصابه هو .. ولذلك فسلوكه انتقام لأمه ، من كل الأمهات — وقد أوجع عبد الناصر قلوب مئات الألوف من الأمهات والبنات ..

وفى كتاب « المجد فى المهد » للزوجين جرويتسل : أن فى التاريخ تسعة عظماء كانوا يعانون من قسوة الأب :

١ — هتلر : الذى أحب أمه وكره والده . وكان يغسل لها الأطباق والملاعق ويمسح الأرض . وقد علق « مريلة » من عنقه .. وكان حريصا على ارضاء أمه وظل الى جوارها عندما ماتت .. ولم يشأ أن يحدثها عن فشله فى المدارس أو دخول أكاديمية الفنون فى فيينا . ولما ماتت أمه ، انتقم لها من خمسين مليون أم !.

٢ — سالازار : طاغية البرتغال ، كان يضربه أبوه كثيرا . وكان اذا ضربه ابوه ظل جامدا مكانه ويقول : لا أعرف كيف أرد هذه الصفعات الآن ؟

وقد ردها الى مئات الألوف من نساء البرتغال .

٣ — والأديب الانجليزى الكبير اوسكار وايلد ..

٤ — والشاعر الالمانى ريلكه .. وكان « دلوعة » والدته .. وكان « العوبة » والده .. وكان ابوه يعيره بأنه الفتاة التى طال شاربها ولم تجد لها عريسا !..

٥ — الشاعر الايطالى صديق موسولينى داننسيو — ولم نعرف مثله فى التاريخ الأدبى رجلا احتقر الرجال والنساء معا ، والسبب واضح : ابوه . الذى لم يكن يتعامل معه الا بالجزمة !..

٦ — والفنان الفرنسى تولوز لوتريك وكان يقول هناك نوعان من الملائكة وأمى .. ونوعان من الشياطين .. أبى وأبى .. وكان يندهش لماذا

خلق الله الرجل .. لمـــاذا لم يخلق كائناته كلها من النسـاء .. وكما أن النباتات تزهر وتثمر ، وكما أن بعض الحشرات تتوالد من تلقاء نفسـها ، فلماذا كان الرجل .. ولمـــاذا لم تكن جميعا من النسـاء ـــ حبا لأمه وعشقا لها . وكان احتقاره للمرأة عظيما . فقد رأى النسـاء قد اغتصبن حياة أمه. وعشـن بدلا منها !..

٧ ـــ موسـولينى .. وكان الزعيم الايطالى لا يعرف ما هى الأسباب الحقيقة التى تجعل والده يضربه اذا خرج من البيت واذا عاد مخمورا . وكان يسـأل والدته . ولكنها هى الأخـــرى لا تجرؤ أن تقول . وفى احدى المرات اخفى موسـولينى عصـا وراء الباب ليكسر بها رأس والده . وفوجىء بوالده أمامه .. فصرخ فيه : ما هذه يا ولـــد !

فقال موسـولينى : قررت أن أموت بيدك .. اقتلنى يا أبى !..

فأخرج الأب زجاجة من النبيذ من جيب البـــالطو . وجلس فى هدوء قائلا : ليس الآن !..

٨ ـــ سنجمان رى الزعيم الكورى الجنوبى : وكان اذا ثار ابوه . اشـارت اليه أمه أن يجلس على الأرض ويعطى لوالده فرصة أن ينفس عن غيظه . وكان ابوه يقول : لا تستسلم .. قاومنى .. لكى أثور عليك واضربك أعنف واستريح .

ولكن الزعيم الصغير كان يتفنن فى اغاظة والده .. يعرى له صدره وعنقه أو يخلع ملابسـه كلها وينتظر الضربات .

وسنجمان أرى له عبارة شهيرة : شىء غريب أن أرى فى ملامح كل أعداء الشـعب صورة لأبى !

٩ ـــ وعبد النـــاصر : وفى أولى سنوات الثورة التى كنا نسميها بالحركة .. أو الحركة المباركة : كان اسمه البكباشى أركان الحرب جمال عبد الناصر حسـين .. وكانت الصحف تنشر صورة والد الرئيس .. أنه رجل له طربوش .. وكان يعمل فى مصلحة البريد .. ويقال موظف بريد .. وقد تغيرت هذه الصفات بعد ذلك .. كأنه يجب أن يكون الزعيم من الشـعب . ثم أصبح أسـمه : جمال عبد الناصر .. وفى أيامنا السعيدة كنا نسميه : جمال . وكانت الأغانى والهتافات تلف وتدور حول : جمال .. وفى أيام التعاسة كنا

نسميه : ناصر .. وعرفنا له اخــوة أشقاء : الليثى وعز العرب وشوقى وله اخوة غير اشقاء .. وطبيعى الا يتسع وقته للاشقاء ، والا يتسع قلبه لغير الاشــقاء .

ويروى الرئيس السورى شكرى القوتلى أنه فى الحفلة التى أقامها عبد الناصر للزعيم الروسى خروتشيف كان يقف الى جوار ملك المغرب محمد الخامس .. عندما مال عليه الملك المغربى وقال له : هل تعرف من هذا الذى يرتدى الطربوش وانحنى على يد عبد الناصر وقبلها ؟

قال الرئيس السورى : لا .. من يكون ؟

قال الملك : أنه حسين ..

قال القوتلى : حسين من ؟..

قال الملك : عبد الناصر حسين أنه أبو الرئيس جمال .

واندهش القوتلى وسأل الملك : من قال لجلالتكم ؟

قال الملك : أنه الرئيس عبد الناصر !..

وسكت الرئيس والملك .. وعاد الملك يهمس فى اذنه بالمعنى : ان رجلا يفعل هكذا مع والده ، فما الذى لن يفعله مع بقية خلق الله ؟! ..

وكان عبد الناصر يسخر من الوزراء المصريين الذين كانوا يقبلون يدى الملك فاروق !

ولكن عبد الناصر كان يفضل أن يقبل الناس قدميه والأرض تحتهما .. حدث ذلك فى كل سجون مصر .. أنه يستنكر القبلات علنا ، ويفضلها سرا .

وقد سمعت من الرئيس الســادات أن عبد الناصر كان يحب من يتذلل له ، ومن يبعث له بالخطابات المليئة بالدموع .. ومن يرجوه أن ينقذه هو وأولاده من الجوع .. وكان يحب أن تقع هذه الخطابات فى ايدى الذين حوله ليزفها بمثل هذه العبارات : هذا الــ « ... » يطلب فلوسا .. له ولــ « ... » زوجته .. هل يظن أننى لا أعرف ماذا حدث له ؟!..

وفى بعض الأحيان كان يتساءل الضباط الكبار أو الساسة الذين ألقاهم عبد الناصر فى الظل والذل عن مصير خطاباتهم . فكان يقال لهم : وصلت .. ولكن ليست فيها دموع .. أو الدموع ليست كافية ..

وحدث فى اجتماع مجلس الوزراء أن طلب احـــد الوزراء فى خطاب شخصى مساعدة مالية ليتمكن من زواج ابنته .. فاذا بعبد الناصر يقول : جاءنى خطابك .. وهل تظن أن هذه ديون على الدولة .. وإن المرحوم والدك كان قد اعطاها لمصر مساعدة منه فى بناء السد العالى .. لمـــا تعرف تشحت كويس ابقى اكتب لى !..

قال لى المهندس عبده الشرباصى نائب رئيس الجمهورية ان هذا الوزير قد عاد الى بيته نصف ميت ..

ولم يكن فى نية هذا الوزير ان يبعث بهذا الخطاب وانما نصحه سامى شرف ان يكتب هـــذا الخطـــاب وان يجعله مختصرا فليس لدى الرئيس عبد الناصر وقت ..

ولكن لم يقل له سامى شرف أن يختصر فى الكلمات ولا يختصر مطلقا فى التذلل والبكاء والامتنان العظيم للرئيس انه قرأ الخطاب ..

والأمر بعد ذلك ان شاء اجابة الى طلبه ، وان لم يشـــأ !..

وفى اجتماع مجلس الوزراء مرة اخرى قال عبد الناصر عن أحـــد الوزراء وكان خارج البلاد بعت لى جواب سى « .... » علشان يجوز ابنه. وأنا حاصرف على رجاله « .... » .

وكان يفضل أن يتحدث صاحب الشكوى أو صاحب الطلب عن زوجته المريضة .. أو أمه التى ماتت .. أو ابنته التى سوف تتزوج — فقط عن الزوجات والأمهات والبنات اللاتى فى ازمة وفى حاجة الى مساعدة — نساء ذليلات فقط !؟

ملحوظة : النقط التى بين الأقواس للدلالة على الفاظ نابية لا يصح ذكرها !..

(٢)

كانت لجمال عبد الناصر كثير من صفات الزعامة . فهو راس ثورة يوليو التى اطاحت بالملك وبالاقطاع وأممت قناة السويس وكان من احلامه توحيد الأمة العربية بزعامته .. وكان مؤهلا للزعامة القصيرة الأجل .. فهو مثل حصان تعلق فى عربة كارو .. ثم مزق الحبال التى تربطه بها .. وتركها .. وانطلق وحده .. أو هو مثل صواريخ « القاهر » و « الظافر »

انطلقت الى أعلى ، ولم تكن لها عقول الكترونية توجهها نحو الهدف وكان الهدف تل أبيب .. وانطلقت الصواريخ الى الفضاء ولم تعد .. ولم تصل الى هدف .. فهو قوة بلا خطة .

ولقد ادت اندفاعات عبد الناصر الى أن اضافت اسرائيل الى أرضها سيناء والجولان والضفة الغربية والقدس ، وغزة ثم غزة مصر وكرامة العرب واليأس من كل ما هو عربى !.

ولم يكد يظهر عبد الناصر حتى تحركت كل أعماق المصريين — ابناء الفراعنة — فاذا هم يعبدون الفرعون ويعلقون مشاكلهم على كتفه .. وينزلون عن عقولهم وقلوبهم ويذبحونها قربانا لرمسيس الجديد الذى طرد اليهود من مصر — والذى سوف يطردهم مرة أخرى ..

وقد أحس عبد النـــاصر بأنه عند المصريين رمسيس وعند العرب صلاح الدين ..

ولا شىء يدل على « ذل » الشعوب وحبها للهوان ، مثل عبادتهـــا للبطل .. تقديسها للانسان .. ووضعه فوق قمة الجبل .. فعلى الرغم من انه خرج من الأرض فانهم قد اسكنوه السماء .. وبدلا من ان يقال ان الأزمات قد أفرزته ، فانهم يرددون أن العناية الآلهيـــة قد بعثته .. فهو مبعوث العناية الالهية ، ثم هو العناية لآلهية ..

ولم يكن د. محمود فوزى حالة فريدة بين الرجال حول الرئيس . فعندما سأله الرئيس عبد الناصر المشورة غاب د. فوزى ليعود اليه قائلاً : كيف يكون لى رأى وانت الزعيم الملهم .. أى كيف يكون له رأى وعبد الناصر يتلقى الراى والوحى من السماء — وكان هذا احساسه دائما . بأنه صاحب الرأى المناسب فى الوقت المناسب . وأن الله الهمه الاحساس بالزمن .. ولذلك فقراراته مطابقة لمـــا جاء فى « اللوح المحفوظ » كأنه قراه او كأنه كان هناك عند كتابته .. فهو لم يخطىء . ولا يخطىء . واذا كان قد أخطأ فلأن القوى تضافرت ضده .. وليس هو الا زعيما كبيرا لبلد صغير ..

وهذا هو الخيط الذهبى فى نسيج عبد الناصر ، أو فى لوحة عبد الناصر أو فى بطولة عبد الناصر . انه كان احلام الناس ، ولكنه مثل احلام النـــاس قد سقطت .. قد انهارت فهو عظيم الا قليـــلا . وهذا القليل هو الذى يحظى بشعبية مطلقة عند الناس .

فعلى الرغم من انه عظيم ، فانه يستحق الرثاء والبكاء لأنه أراد الكثير ولم يقدر الا على القليل فهو عظيم وأوجاعه عظيمة ، وهو مضيء وظلاله كثيفة .. ولذلك رأى فيه الناس بطلا اغريقيا يتحدى الآلهة ويكفيه شرفا .. وكسرته الآلهة ويكفيه شرفا فاذا أراد أحد أن يحطمه ، فلابد أن يكون الها .

ولذلك لا يشعر الناس بالعطف على انور السادات .. لأنه انتصر كثيرا .. فقد كسب كل معاركه : طرد قوات الاحتلال السوفيتية بكلمة وفى ليلة واحدة وجمع بقايا عبد الناصر وورثة عرشه فى ليلة .. وانتصر فى حرب اكتوبر وفتح القناة ووضع الدستور والمنابر الحزبية والأحزاب وقرر معاشا لكل مواطن ومعاش السادات وانسحبت اسرائيل من سيناء وكان السلام معها .. ثم فتح الباب الاقتصادى على الشرق والغرب .. وكان متقدما على عصره . وكان مثل كل الآباء يذكر لأولاده كل ما حقق لهم .. وكان الشعب مثل كل الأبناء يقولون : يوه .. تانى .. حيقول لنا طرد الروس وانتصر واخرج اليهود .. يوه .. تانى !

وكان الشعب — كما يرى الأبناء — أن السادات يمن عليهم ..

فبدلا من أن يروا عظمة ما أنجز ، لا يذكرون له الا أنه يعيد ويزيد كل ذلك حتى زهق الناس ولما فوجىء بانتفاضة الناس والفتنة الطائفية اغضبه ذلك .. ووجد فيها نوعا من العقوق .. وفى يوم واحد وليلة واحدة افسد السادات على نفسه كل ما حققه لمصر .. فلم يعد أحد يذكر له قدرته السياسية الفذة ، ولكن فقط يذكرون له غضبته على كل الناس كأنه أعد لنا طعاما فخما شهيا ثم القى على الطعام الكثير جدا من الملح .. وبدلا من ان يقول : تفضلوا يا أولادى الأعزاء قال : بالسم الهارى !

والشعوب تحب من يثير فيها الشفقة ، ولا تحب من يثير فيها الاعجاب .. تحب الذى يعتصر عيونها عليه ، وليس الذى يوقفها على أطراف أصابعها لترى عظمته . يحبون الزعيم الذى هو اكبر منهم ، وفى نفس الوقت مثلهم فى الضعف او فى الفشل .

ولذلك عطفوا على عبد الناصر ، ولم يعطفوا على الرجل الشاطر دائما ، أنور السادات !

وقد أحبت مصر مصطفى النحاس باشا لبساطته واحساس الناس أنه مثلهم يغضب ويشخط ولا يدعى انه أذكى وابرع .

ولا يحبون على ماهر واسماعيل صدقى لأنهما أذكى واخبث !

أذكر اننى أعددت برنامجا تليفزيونيا مع القارىء الشـيخ مصطفى اسماعيل وذهبت اليه مع المذيعة ليلى رستم .. وطلبت منه اذا دخلنـا بيته الا يجعل زوجته تقبل يديه .. وفضلت أن يفعل ذلك أولاده ـ فنحن فى زمن لا امتنان فيه للأبناء .. فوافق .. ولكن عندما ذهبنا اليه فى بيته . فوجئت بأن زوجته قد انحنت على يده تقبلها !!

وطلبت اليه أن يحكى للناس كيف تعب فى حياته وتنقل من قرية الى قرية .. وأنه بالكفـاح والصبر والاصرار استطـاع أن يكون واحـد القراء فى مصر .. والمعنى أن يجعل الناس يشعرون انه مثلهم : كان فقيرا وتعذب وصبر وتوكل على الله .. فأعطاه الله ما يعطيه للمؤمن الصابر والله مع الصابرين ..

وكان الشيخ مصطفى اسماعيل يقول لى : أنه لم يجد صعوبة فى حياته وأن حياته مكسب على طول ؟ !

ورفضت أن يقول ذلك وجعلت أفكر له ومعه فى بعض الصعوبات التى وجدها فى حياته .. ليتجاوب الناس معه .. وحتى لا يشعر الناس بأنه من طينة أخرى غير الناس ولم يوافق .. ثم اقتنع وعند تسجيل البرنامج سألته المذيعة عن الصعوبات التى لابد أن يكون قد صـادفها فى حيـاته متنقـلا على حمار بين القرى ..

وفجأة قال : اسمعى يا ست ليلى انا والله ما وجدت صعوبات من اى نوع .. أنا طالع على طول كده .. ولكن الأستاذ انيس هو الذى يريدنى أن أتحدث عن مشاكل ومتاعب أكذب بقى ؟ .. مفيش صعوبات والحمد لله .

وكان البرنامج يذاع على الهواء ؟ !

ولم يحب الناس الشيخ مصطفى اسماعيل بسبب ذلك فقد أثار حقدهم عليه وتعاليه عليهم .. وقطع عليهم كل طريق للأمل فى أن يكونوا مثله .. صعود دائم وكسب مستمر ، وبلا مشاكل من أى نوع ..

وفى وقت مبكر من زعامة عبد الناصر وقبل نكسه سنة ١٩٦٧ احس كتاب التاريخ ان عبد الناصر دخل مرحلة الحاكم المطلق .. الفرعون .. رمسيس الذى بدلا من أن يطرد اليهود سوف يدخلهم مصر ـ ربما كان عزيز

على المصرى اول من أحس بذلك يوم زاره مجلس قيادة الثورة فى المستشفى وسمع منهم وتوقع لهم فقال لمن كانوا حوله : هؤلاء الشبان سوف يخربون مصر .. انهم لم يفهموا الشعب ولم يقرأوا تاريخ الثورات ..

واحد من الذين جلسوا حوله كان الفنان الكبير مدحت عاصم .. ومثل عزيز على المصرى كان بيتهوفن الموسيقار العظيم اول من بكى سنة ١٨٠٤ عندما علم أن نابليون قد توج نفسه امبراطورا على فرنسا .. قال بيتهوفن : الآن سوف يصبح نابليون عبدا لأطماعه ، وسوف يجعل الشعب كله عبدا له .

وكان بيتهوفن قد أهدى نابليون سيمفونيته الشهيرة باسم « أورويكا » أى البطولة !

ولكن المرحلة الخطرة التى دخلها عبد الناصر هى الاستهانة بالاخطاء فى الداخل والخارج .. فكل تمرد عليه : حركة تافهة والقائمون بها شبان عاطلون .. والثوار عليه فى البلاد العربية : مأجورون خونة .

وحتى السادات أيضا قد نظر الى السخط والغضب على أنه جاء من « شراذم » مع اشارة من اصابع احدى يديه ، يريد او يدلل على تفاهتهم وأنهم قليلون !

وكأن التاريخ يعيد نفسه .. فالقرآن الكريم أيضا تحدث عن فرعون عندما قيل له أن اليهود قد جمعوا مئات الألوف وخرجوا من مصر .. قال تعالى على لسان فرعون : « ان هؤلاء لشرذمة قليلون وانهم لنا لغائظون » .

ويوم النكسة قرر عبد الناصر ان يتنحى ظهرا وأن يعود ليلا فزلزل جماهير الشعب العربى فى كل مكان .. فقد أحسوا بأن جاذبية الأرض قد انعدمت فجأة .. فتطاير الناس .. أو أنهم اصطدموا بجزيرة المغناطيس التى جاءت فى الف ليلة وليلة فشدت المسامير فى سفنهم ، فتحولوا الى الواح خشبية او كأنهم شعروا بأن قائد الطائرة قرر أن يتركهم ويلقى بنفسه من النافذة .. فتوسلوا اليه ألا يفعل .. الا يتركهم وحدهم .. الا يتخلى عنهم — وكانت هذه هى المشاعر التلقائية للناس .

ولكن بذكاء نادر أجابهم الى طلبهم ودبر مظاهرات العدول عن التنحى.

أما الصورة التى يجب أن نخجل لها حتى نهاية القرن : فصورة أعضاء مجلس الأمة وهم يرقصون طربا لأن عبد الناصر قد قرر العودة وقيل : فرقة الفنون الشعبية التابعة لمجلس الأمة .. رقص الناس طربا وفرحا للرجل الذى مسح بهم الأرض من المحيط الى الخليج .. للرجل الذى أدخل اليهـود فى مصر وسوريا والأردن والقدس فى ست ساعات !

وكانت النكتة فى ذلك الوقت أن المشير عبد الحكيم عامر طلب من أسرته أن يعدوا حقائبهم للسفر فوراً الى الاصطياف فى تل أبيب .. ولكن بعـد ساعات أخبرهم بأنه لا داعى للسـفر .. فالنـاس اللى كنا رايحين لهم وصـلوا .. !!

ومن يومها ونحن نرقص للأشياء لكل السلع الاستهلاكية فى التليفزيون: للشيكولاته والايس كريم والعطور ودورات المياه .

أما التفسير المـاركسى لذلك ـ وكان عبد الناصر ماركسيا ـ فهـو تقديس الأشياء .. تقديس السلع الاستهلاكية .. أى أن هذه السـلع اللذيذة المعطرة اللامعة لها قيمة ذاتية ونسينا أنها دليل على سيطرة السوبر ماركت والقطاع الخاص على حياة الناس .. ونسينا فى الموسيقى والرقص والطبل أن هذه السلع هى قطرات من عرق ودم العامل المسكين .. فنسينا فى حلاوة هذه الموارد مرارة الشقاء اليومى للطبقة الكادحة وكذلك نسينا فى نوبات الرقص فى داخل مجلس الأمة ما الذى فعله البطل بشعبه ومستقبله العسكرى والسياسى والاقتصادى .

فكان عبد الناصر على حق عندما جعل نصف المجلس من الفـلاحين الذين نشأوا فى الريف يحنـون رءوسهم للعمدة الجالس على المصـطبة ويضربهم بالجزمة فيقولون له : ضربك شرف يا عمدة !

ونحن قدسنا الكرباج الذى استخدمه العمدة عبد الناصر فى ضرب أحفاد بناة الاهرام وقناة السويس والسد العالى !

وفى أوائل الثورة نشرت مجلة « آخر ساعة » صور الأدوات الجراحية التى استخدمها الأطباء فى استئصال الزائدة الدودية للرئيس عبد الناصر .

كأن هذه الأدوات قد أصبحت ذات دلالة مختلفة ـ ولابد أن تكون كذلك ما دامت قد فتحت بطن الرئيس وأزالت زائدة دودية من جسمه المقدس ..

فهذه الأدوات هى الأخرى مثل الكرباج يجب أن ننظر اليها بعظيم الاحترام وعميق التقديس ..

وما دامت الشعوب قد قدست رجالا مثل نيرون وهتلر وعبد النـــاصر فسوف يجعلهم الطغاة عبيدا !

(٣)

مسكين أنور السادات : عندما انتصر فى سنة ١٩٧٣ قيل لقـــد كانت الخطة من وضع عبد الناصر كما ان السلاح سوفيتى ..

وعندما انهزم عبد الناصر سنة ١٩٦٧ قيل بل كان التدريب سيئا وكانت الاسلحة الأمريكية متفوقة .

مع أن الأسلحة السوفيتية فى حرب سنة ١٩٧٣ كانت قديمة جدا .. وكان التدريب متفوقا ، أى أن عبد الناصر انتصر غائبا وانهزم حاضرا ! ولا فضل لأنور السادات والقوات المسلحة ! أو بلغـــة كرة القدم : ان عبد الناصر عندما سدد الكرة الى الهدف الاسرائيلى انطلق الرصاص على الكرة فانفجرت .. أما أنور السادات فقد احرز هدفا ولكنه كان متســـللا فمصر لم تعرف الا عبد الناصر حاضرا وغائبا !

ولذلك فالناصريون يرون أنهم الشيعة الجدد وان عبد الناصر هو الامام الغائب ولذلك فهم يعتقدون أنهم أولى بخلافة المصريين من السادات وحسنى مبارك .. وهم ايضا الشيوعيون الجدد .. فعبد الناصر كان ماركســـيا ولكنه لم يصبر كثيرا على الضغط السوفيتى وضرورة أن « ينضبط » وأن يطيع القيادة فى موسكو ثم انه لم يقاوم الدولار الأمريكى ولكنه فى اعمـــاقه ضد الرأسمالية وضد القطاع الخاص وضد الحرية وهذه الاختلافات بين الفئات ثم انه قد فتح الباب امام كل الفئات لكى تنطلق بعضها على بعض .. ثم أوعز لها بأن من حق كل انسان أن يكون جمال عبد الناصر .. قالهـــا : كلكم جمال عبد الناصر .. اى كلكم فداء له .. ولكن من المستحيل أن يكون احد مثله أو قريبا منه .. ولذلك بسرعة كسر السلالم التى أوصلته الى القمة حتى يظل وحده هناك !

والناصريون يتظاهرون ويهوشون الحكومة والحزب الوطنى قائلين انهم أعداء للاخوان المسلمين . وهم يريدون أن يشاركوا فى مجلس الشعب وفى

الوزارة ، لأنهم اقدر علي تخويف الجماعات الدينية المتطرفة التى تتربص بالحكم وبالنظام فاذا اتخذوا مقاعد الحكام ، هادنوا الاخـوان المسـلمين والاخوان غير المسلمين .. ساوموا على هذا السكوت ..

وهم اليوم تحت العباءة الشيوعية ، وغدا تحت العباءة الشـيعية ، وبعد غد تحت العباءة الناصرية التى تتربص بمصر والأمة العربية ، لتدفعها الى النكسة النهائية العسكرية والسياسية والاقتصاديه وبذلك يتحقق اعز آمال اسرائيل فى أن تمتد الى النيل ثم ترتد الى الفرات . وقد حققت نكسة سنة ١٩٦٧ نصف هذا الأمل ولم تبق لنا الا نكسة واحدة فى مصر « ووكسة » فى سوريا وبعدهما نقم تمثالين عظيمين لعبد الناصر والأسـد أمام مقـر رؤساء اسرائيل فى القدس .

لى صديق كاتب ماركسى معروف دخل السجن وخرج ودخل فى عهـد عبد الناصر وكان يأمل أن يصبح عضوا فى مجلس الأمة ورشح نفسه وفى آخر لحظة شطبه الرئيس عبد الناصر . فماذا فعل ؟ راح يخطب على المقاهى مشيدا بعظمة عبد الناصر وبعد نظرة ونفاذ نظرته .. وقال : اشكر زعيمنا العظيم فقد شطب اسمى .. أشكره فأنا لم أنضج سياسيا بعد .. وهذه مكرمة لن أنساها ما حييت وسوف أسبح بحمده حتى الموت .

وسألته : ما معنى ذلك ؟

قال : اسمع افرض أن الساعى الذى أمام مكتبك لا يكاد يراك حتى يهب واقفا ، كأنه رأى عفريتا هو أنت . ثم ينهال تقبيلا ليديك .. و « يتفتف » فيهما .. وهذا يضايقك ويقرفك . !

ولكن هل تطيق أن يراك هذا الساعى فيضع ساقا على ساق وهو يدخن سيجارة ويقول للساعى الآخر الجالس الى جواره : احنا كنا بنقول ايه .. طبعا لا تطيق ذلك .. وكذلك عبد الناصر سوف نبوس يديه وهو يلعن كذبنا ونفاقنا ولكنه لن يطيق أن نصارحه بالحقيقة لحظة واحدة . هذا هو وضعنا .. لقد أدخلنا السجن عندما توهمنا أن اقترابنا منه يعطينا الحق فى أن نهمس بالصدق !

(٤)

اغاظتنى اغنية صباح التى تقول :

وصلتينا لنص البير

وقطعت الحبـــل فينـــا !

اى انها اوصلتنا حتى منتصف البئر ، ثم قطعت الحبـــل . فلا نحن هبطنا بهدوء ولا هى سحبتنا الى فوق — كذلك تنحى الرئيس جمـــال عبـــد الناصر !

كان يوما بشعا .. بكى الناس ولطمت السيدات خدودهن — وليس لطم الخدود عند المرأة دليلا على الحزن .. أنه مثل دموع المرأة ، لا يدل على الحزن ، ولكن على النعمة التى أعطاها الله للمرأة : نشاط زائد فى غددها الدمعية يخفف من توترها اليومى ويغسل همومها أولا بأول ..

ولكن وجدت رجالا يلطمون .. وأحزننى ذلك !

ولم يحدث فى أعقاب النكسة ما يحدث عادة فى كل دول العالم : فتح الدفاتر ومراجعة الحسابات وتصفيتها والصراع بين الجنرالات ومناقشـــة لأسباب الهزيمة .. ومحاكمة المســئول عن المصــيبة التى حاقت بمصر والعرب .. لا شىء من كل ذلك .. وانما اعتذار من الجماهير عن أنهم شكوا لحظة واحدة فى عظمته وقدرته .. واستجداء له أن يعود ولا يهمك ياريس .. فداك ياريس !

اى فداؤه مصر وشعب مصر وانهيار مصر وعار الجيش الذى ضلله ليدافع ، فاذا به يأمره ليقاتل — ان كان هو الذى أمر بالقتال أو بالانسحاب من المعركة . تعيش وتأخذ غيرها ياريس .. تدوبه فى عرق العافيـــة ياريس ..

لا تسأل نفسك : أى شعب هذا ؟

فلما جاء السادات ونصر المصريين على عارهم أفزعهم ذلك فقــد جردهم الســادات من نعمة البكاء على المـــاضى وانقذهم من الوخز الأبدى للضـــمير !

ومنذ سنوات رأينا فى القاهرة فيلما امريكيا لرجل غرق أولاده جميعــا وقضت الزلازل على مصانعه .. وراح يبكى حتى جفت دموعه .. وتمــدد فى فراشه استعدادا للموت .. فلم يبق له فى الدنيا أحد .. وجاءه من يؤكد له أن أولاده قد غيروا رأيهم فى آخر لحظة .. استقلوا طائرة — أى لم يموتوا ..

وان الزلازل لم تهدم مصانعه ، وانما هى معلومات خاطئة .. فنظـر اليه الرجل ومات .. مات من الصدمة الأعنف .. صدمة الفرح . لقـد أمات الحزن نصفه ، وقضى الفرح على النصف الثانى .. وكذلك فعل انتصار أكتوبر .. كان قويا عنيفا ، حتى لم نقدر على تحمله ..

وكان أفضل وأريح لنا أن نظل نبكى فى هدوء وأن نعزى أنفسـنا فى أنفسنا . وأن نسند ظهرنا الى الحائط كما كان اجدادنا الفراعنة يفعلون وننسى مثل هذه الكلمات : من المحيط الى الخليج ..

ولم نعرف الا أخيرا ما الذى فعله الانجليز بقائد نصرهم تشرشل ؟ شكروه ومجدوه وودعوه فقد انتهى دوره كقائد عسكرى .. أو زعيم سياسى كانت له مهمة .. انتهت المهمة وبدأت مهمة أخرى لمـا بعد الحرب ، وهذه المهمة تحتاج الى رجال من نوع آخر .. شكرا .

ديجول انتهت مهمته العسكرية وبدأت مهمته السياسية . انتهى دوره البطولى العسكرى والسياسى . وكان لابد أن يتوارى فى هدوء ليظهر آخرون اقدر وأكفأ .. شكرا وغيرهم كثيرون ..

وعلى الرغم من أن دور الرئيس جمال عبد الناصر حسين قد انتهى فى سنة ١٩٦٧ . ولم يشأ الشعب أن يطوى كتابه نهائيا ، فان عبد الناصر قد تولى ذلك .. فهو منذ النكسة لم يعد له دور ولا وجود .. لقد دخلت شمسه منطقة الخسوف الكلى فى الشرق الأوسط والعالم الثالث !

وكما أن هزيمة الجيوش المصرية والعربية فى سنة ١٩٤٨ هى التى ايقظت العسكرى فى قلب عبد الناصر ، والثورى فى رأسـه والبطـل فى خيـاله ..

فكذلك نكسة سنة ١٩٦٧ هى التى جعلت السادات يعبر من الغرب الى الشرق .

ويقال ان موسى عليه السلام عندما كان فى سيناء ظهر له احد العمالقة اسمه : عاج .. طوله ٨٠٠ متر وعصاه ٩٠٠ متر .. أما موسى عليه السلام فكان طوله عشرة أمتار وعصاه عشرة أمتار وخطوته عشرة أمتـار .. وقف الى جوار هذا العملاق فكان رأسه عليه السلام فى مقابل كعب هـذا العملاق فظل يضربه موسى فى كعبه حتى مات .

ولمـــا مات سقط فكان جسرا على المـــاء يعبره المصريون من الغرب الى الشرق !

* * *

وهنا عبارة للمؤرخ البريطانى العظيم جيبون اتذكرها الآن .. قال عن أحد أمراء آل مديتشي الايطالى : لقد تسلل ثعلبا ، وحكم أسدا ، ومات كلبا !

ولكن أرجو أن أدفع بعيدا ذلك المعنى الذى يتبادر اليك : فلم يكن عبد الناصر متسللا ولكنه حاكم ثورى شرعى لبلاده .. حكمها نمرا وقادها أسدا فراحت تلعق جراحه !

وعلينا بعد ذلك أن نحل هذه الفزورة : من يقتل واحدا فهو مجـــرم ومن يقتل مائة الف فهو بطل !

ثم هذه الفزورة : أرنى طاغية واحدا ، وأنا أكتب لك الف مأساة !

□ □ □

غلطة كوك وورقة بني سويف



ما هو التاريخ ؟

هل هو ما وقع .. أو ما كان ينبغى ان يقع أو هو ما تمنينا حدوثه ، او كرهنا .. هل هو بالحساب أو بالصدفة .. ان التاريخ كل ذلك .. انه مالا نهاية له من علامات الاستفهام والتعجب .

وكلما كان الحدث جليلا ، كان الغموض اشد .. مثلا : لابد ان يكون قد صدر قرار الحرب مع اسرائيل من عشرين عاما .. ولابد أن يكون قد صدر قرار الانسحاب .. ولكن نحن لا نعرف من الذى أصدر القرار ..

ولا نعرف كيف مات عبد الناصر ..

الصينيون يقولون : الروس قتلوه ..

والروس يقولون : الأمريكان سموه ..

وكانت حياة عبد الناصر ، قبـل النكسة املا عربيا ، وبعـدها : عذابا مصريا ..

ومن تسع سنوات كانت اتفاقيات كامب دافيد . وقد حكى الرئيس السابق كارتر فى مذكراته وكذلك زوجته فى مذكراتها ثم مستشاره برزنسكى فى مذكراته : أن الوفد المرافق للرئيس السادات حاولوا اغتياله .. فقد لاحظ ان الرئيس السادات نام مبكرا .. وطلب الا يوقظه أحد لأى سبب .. بينما ظل مستشاروه يتناقشون بصوت مرتفع . وكان الرئيس الأمريكى قد طلب من مستشاره الا يضع اجهزة تصنت على الوفدين المصرى والاسرائيلى . ولذلك لم يعرف كارتر ماذا يقول المصريون ولا أن كان السادات حيا أو ميتا . ولما تأكد من ان شيئا غير عادى قد وقع استدعى برزنسكى مستشار الأمن القومى فجاءه بالبيجاما . وبدأ الرجل وزوجته ومستشاره يبحثون ما الذى حدث للرئيس السادات حتى طلع عليهم النهار ، وفوجئوا بأن السادات خرج كعادته يتمشى !

هذه الواقعة الخطيرة لم يناقشها أحد فى مصر او فى اسرائيل . ولم يتحدث عنها أحد من أعضاء الوفد المصرى .. لا نفيا ولا اثباتا .. فأما أن تكون قد وقعت — اى كانت هناك محاولة لاغتياله ، ولسبب لا نعرفه فشلت .. واما انه لم تكن هناك واقعة وانما سوء فهم للمناقشات التى كانت بين أعضاء الوفد المصرى !

ودخل هذا الحادث دائرةالظل والغموض — لقد كانت نبوءة بأن اغتيال السادات سوف يكون بأيدى المصريين !

وقد سألت الرئيس كارتر مزيدا من التفصيل فقال أن الذى حدث أنه كان قلقا على الرئيس السادات .. ثم انه ضاعف الحراسة عليه ..

واذا كان الحادث هكذا « تافها » فلماذا كتبه وكذلك زوجته ومستشاره برزنسكى ولماذا ضاعف الحراسة .. حراسة ضد من ؟

ولكنه كان حريصا على حكاية هذه الحادثة ؟ لماذا ؟ لم يشأ ان يقول ما هو أكثر .. فأين الحقيقة التاريخية ؟ !

وقد سألت الرئيس حسنى مبارك عن حكاية اغتيال السادات فى كامب دافيد فكان من رأيه : انه لم تكن هناك محاولة . وانما مناقشات عالية النبرة بين المصريين .

* * *

وفى سنة ١٩٦٣ دعا البابا يوحنا الثالث والعشرون الكرادلة الكاثوليك والأرثوذكس والبروتستانت ليناقشوا أو يشاهدوا وثيقة تقدم بها الكاردينال الألمانى بيا .. يطلب فيها تبرئة اليهود من دم المسيح — أى استئناف الحكم فى قضية عمرها ١٩٣١ عاما . فقد كان الكاثوليك يلعنون اليهود فى صلواتهم، لأنهم صلبوا المسيح ، ولكن الوثيقة تقول انهم الرومان الذين صلبوه . وحتى اذا كان اليهود هم الذين صلبوه ، فهم يهود ذلك الزمان فما ذنب يهود هذا الزمن ؟

وقرر « المجمع المسكونى » اى العالمى الذى انعقد فى الفاتيكان : براءة اليهود .

ثم اغتيل الرئيس الكاثوليكى كينيدى . والذى اغتاله مسيحى متزوج من روسية .. ثم اغتاله يهودى آخر — وضاعت دماء الرئيس الأمريكى . أى ان رئيس اعظم دولة فى العالم قد اغتالوه فى الظهر الأحمر ، ومع ذلك لم يعرف أحد حتى الآن من الذى اغتاله ، ولا لماذا ؟ وظهرت عشرات الكتب تشك فى ان القاتل الذى رايناه ليس هو القاتل الحقيقى — اذن كيف نقطع اليوم بأن اليهود وحدهم هم الذين صلبوا المسيح ؟ !

اذن فاليهود : لا صلبوا المسيح ولا قتلوا كينيدى .. ولا فكرنا نحن فى اغتيال السادات ولا حتى اغتلناه .. ولا عبد الناصر أصدر قرار الانسحاب ولا قرار الحرب — فمن يا ترى ؟ !

ومن ثمانى سنوات كتبت مقالا احكى فيه عن الذى دار بين كمال حسن على وبطرس غالى وشارون وشامير فى القدس .

كانت المناقشات عن السلام وتحسين العلاقات بين البلدين . وقال كمال حسن على : ان تطوير العلاقات يمشى ببطء .. ولكنه يمشى ..

ولكن شارون اكد ان المعلومات التى لديه عكس ذلك . وكذلك قال شامير .. ثم أخرج اوراقا قدمها للجانب المصرى وهو يقول : وهذا هو نص محضر مجلس مدينة بنى سويف يطالب الناس الا يتعاملوا مع اسرائيل .. الخ .

ولم ينطق الجانب المصرى بكلمة واحدة . ثم ان احدا لم يصدر بيانا يوضح ما حدث : لا الخارجية ولا الداخلية ولا المحافظة ولا مجلس المدينة ولا اعضاء مجلس الشعب والشورى عن بنى سويف .

ودخلت هذه الحادثة تاريخ العلاقات بين البلدين كنموذج لما يحدث يوميا دون أن ندرى : اسرائيل لها ذراع طويلة ، ومصر ابتلعت لسانها الطويل، فلم تسأل نفسها كيف حدث ، وكيف لا يحدث مرة اخرى .. ولا كم يبلغ طول ذراع اسرائيل ولا أين تلعب أصابعها وعيونها واذانها .. ولا اين ذهب لساننا ولا ان كنا قد هضمناه .. ولا حتى ان كانت لنا عيون أو اذان هناك وهنا .. صمت طويل .. تماما كالصمت على ما حدث فى ١٩٦٧ وقبلهـا وبعدها فى ٧٣ .

اما الذين كتبوا التاريخ العسكرى فهم قادة اسرائيل .. كلهم كتبوا. وما كتبوه يقرؤه الملايين فى كل اللغات .. اما نحن فمن الذى كتب ؟ وماذا كتب ؟ ومن الذى قرأ ما كتبه الجانب الآخر ؟ ومن الذى صحح اكاذيب التاريخ ؟ ومن الذى رد الى المصريين اعتبارهم ؟ ومن الذى انصف العسكريين فى ٦٧ و ٧٣ ؟ وأى نوع من العسكريين المصريين وفى اية ظروف ولأى سبب كتبوا ؟ ومن الذى راجع ما كتبوه ؟

انهم فى اسرائيل لايكتبون التاريخ الا اذا خرجوا من الوظيفة الرسمية.. فاذا كتبوا عرضـــوه على لجنة يراسها وزير العدل ، ليحذف كل ما يتعلق بالأمن القـــومى .

قال لى موشى ديان : ان وزير العدل حذف من كتابه « الاختراق » عبارة عن الملك حسين .

قال لى عيزرا فايتسمان : ان وزير العدل حذف نكتة !

قال لى اسحاق رابين عندما ذهب لاجراء حديث مع الرئيس السادات: انه يتوقع أن يبقى كتابه وقتا أطول عند اللجنة التى تقرأ مذكرات الحرب ، لأنه يتحدث مع شخصيات هامة .

وكان ما توقعه ..

وقد ناقشت كثيرا مع المشير محمد عبد الحليم ابو غزالة قصة كتابة التاريخ الصحيح أو التاريخ الرسمى للحـــروب .. وانه يمكن تجـــاوز الصعوبات التى تفرضها اللوائح العسكرية على القواد وذلك بأن يســـاعد المؤرخين بامدادهم بالوثائق ومساعدتهم من بعيد وترك كل مؤرخ لقدراته وضميره ..

واقترحت عليه أن تتكون لجنة للرد على ما جاء فى كتب جنرالات اسرائيل والمؤرخين الأمريكان ..

وأسعدنى المشير ابو غزالة عندما رأى أن نؤلف معا كتابا عن حرب ١٩٧٣ .. وتبقى مشكلة كتابة التاريخ كما هى ..

ومن نتائج النوعية الغريبة للمؤرخين عندنا اننا امام رجلين هما : جمال عبد الناصر ، ولا نعرفهما ..

عبد الناصر الذى يكتبه الدراويش والوثنيون .. والذين يرون فيه بطلا قائدا عظيما لم ينهزم قط ولم يخطىء قط .. وهو بالضبط من لا نعرف .

وعبد الناصر الذى رأيناه وعايشناه نحن الناس العاديون .. ذلك الذى وقف طويلا عريضا أسمر عملاقا يبدد الفساد الملكى ويغير مسار التاريخ .. كما غير مسار النيل عند اسوان .. وتلتف حوله العروبة لعله ينقذها مما فيها .. ولكنه لم يكن مؤهلا للبطولة العربية .. وانما كان فقط مشغولا بمجده الشخصى ولو ذبح الأمة العربية ومصر فى مقدمتها .. وأخفى اسم « مصر » فى الجمهورية العربية المتحدة مع سوريا .. ونحن أصبحنا الاقليم الجنوبى وسوريا الاقليم الشمالى .. وكنا نقول لهم من اجل الوحدة معكم صرنا اقليما ، وكنا نظن انها تضحية منا وحدنا .. وكانوا يردون علينا: ونحن أيضا صرنا اقليما — اى انهم قد انسوا اسمهم ، كما اننا انسينا أسمنا !

وقد اعتادت شعوب هذه المنطقة على ظهور الأنبياء ، الذين كفروا بهم ، وكفروا بنا أيضا ..

واكثر الناس علما يتساءلون : بالضبط ما الذى حدث منذ قامت ثورة يوليو سنة ١٩٥٢ ؟ كم دفع المصريون من ارواحهم فى اليمن وسيناء والقناة ؟ وكم دفعوا من أموال على التسليح حتى لم يجدوا ما يصرفونه على المدن والشوارع والمدارس واصلاح الأرض والمصانع ؟ وكم نحتاج من الوقت لاصلاح النفوس التى ملأها الحقد .. حقد الناس على الناس ، كراهية الناس للناس .. يأس الناس من الحاكم والكاتب والمدرس والعلماء والفقهاء؟ ومتى تزول آثار العدوان — عدوان الحاكم المطلق على الشعب الذى استسلم .. وكان استسلامه دليلا جديدا على خطورة : عبادة البطل .. اى التسليم المطلق له يفعل ما يشاء بمن يشاء فى أى وقت يشاء ..

ولم تولد « ثورة يوليو ١٩٥٢ » ثورة .. فعبد الناصر وزملاؤه لم تكن لديهم أية فكرة واضحة عن أى شىء .. بما فى ذلك طرد ملك مصر السابق .. وانما افلحوا فى تخويف الملك وتهويشه ، وكان رجلا وحيدا ضعيفا . وأطلقوا له المدافع تحية له .. وجعلوا ابنه ملكا على مصر وعينوا وصـيا على العرش .. اما الباقى فأمره سهل جدا ..

والثورة المصرية متدرجة هادئة تماما بيضاء ــ فقد كانت القيـادة جماعية . ولكن عرفت الدم ، عندما انفرد عبد الناصر بالقيادة . وهـو معذور ، فهذه اخلاقيات الحاكم المطلق .

***

وكأننا نقرأ كتابا عن مبادىء تاريخ الثورات ..

فنحن أمام الأوضاع التى لا نريدها نمر بعدة مراحل :

مرحلة التمرد : ومعناها أن يصبح السـخط أكثر تركيزا . فنكون فكل الذى نراه أو نسمعه لا يعجبنا .

مرحلة السخط : وهى مرحلة أكثر تركيزا واضـيق نطاقا .. حين لا نعجب بوضع معين .. كأن نكره الاقطاع الزراعى .. أو نكره السياسة الحزبية .. أو برامج التعليم ..

ولذلك يكون الناس جميعا غاضبين .. ثم ساخطين كل واحد حسب اهتمامه وتخصصه .

مرحلة التمرد : ومعناها أن يصبح السخط أكثر تركيزا . فتـكون ساخطين على وضع بالذات وعندنا برنامج لاصلاحه . وهذه هى البداية التقليدية لكل المصلحين فى التاريخ . انهم يبدأون باصلاح جانب ، ثم ينتقلون الى اصلاح جانب ثان .. وهكذا .. ولكن المصلحين قد عرفوا بالتجـربة والغريزة السياسية ايضا : انهم اذا اتجهوا الى اصلاح جانب واحـد ، تصدى لهم بقية المجتمع خوفا على نفسه من التغيير أو السقوط .

ولذلك كثيرا ما وجدنا المتمردين ــ اذا نجحوا ــ يعلنون أنهم سـوف يصلحون هذا الوضع ، وبعد ذلك يعودون الى مواقعهم السابقة .. وكذلك أعلن الضباط الأحرار المصريون ، انهم بعد ان يصلحوا الأوضاع السياسية

فى مصر ، سوف يعودون الى الثكنات . فلم يكن لهم هدف الا الاصـــلاح . ولأنهم يعرفون قدراتهم تماما ، فلن يتدخلوا فى السياسة . فقط يرقبـــون الساسة وهم يصلحون أخلاقياتهم . فاذا فعلوا ، عاد العســـكريون الى ثكنـــاتهم ؟ !

ورفضوا أن يبتعدوا عن الشعب .. فركبوا الترام وأكلوا سندوتشات الفول فى مجلس الوزراء .. ومنعوا اقامة السرادقات .. أما الباقى فنحن نعرفه وكان طبيعيا ان يحدث !

مرحلة الثورة : التمرد على كل وضع ، مع وجود برنامج عام للاصلاح الشامل .. ولم يكن ثوار يوليو يعرفون بالضبط ماذا يريدون قبل أو أثناء أو بعد تمردهم .. ولكنهم عرفوا بعد ذلك .. وأضافوا لأنفسهم ولحركتهم أو انقلابهم اسم « الثورة » ..

ولتكن ثورة .. فالاسم لا يهم . ولكن الذى يهم هو تطبيق هذه الثورة على الحياة العامة فى مصر ، أى تحويل الأفكار والاحلام الى واقع . وهـــذا الواقع يتحدى واقعا قديما راسخا . ثم ظهور واقع جديد .. ثم انهيـــار بعد انهيار لكل الأحلام والتحديات وبسرعة مذهلة مخجلة ايضا !

وأمام حدث ظهور عبد الناصر ، وحدث اختفائه يكون الناس ثلاث فئات : المؤيدين والرافضين والمترددين ..

أو الذين يقولون : نعم .. والذين يقولون : لا .. والذين يقولون : ربمـــا .

أو بعبارة أخرى : هناك الداخلون والخارجون والمتسللون اليه ان كان ناجحا ، والمتســـللون منه ان كان فاشلا !

ونحن لا نعرف لجمال عبد الناصر « نظرية » سياسية .. أى تفسير علمى واضح لكل المشاكل الانسانية مع وضع برنامج تطبيقى لحلها .. فليس فيلسوفا أو مفكرا . وانما هو رجل عسكرى شجاع توسم فيه العرب والمصريون خيرا عظيما .. ولكنه مع الأسف اســـاء قراءة صـــورته التى انعكست على وجوه الملايين .. لقد توهم الصمت صلوات له .. كما تصور الصراخ هتافا بحياته .. وأخيرا خدعه سكوت مئات الألوف من الشـــهداء ، فاعتقد أن السكوت علامة الرضا !

فان كان أحد يريد احياء ذكرى الزعيم الخالد جمال عبد النـــاصر ، فله ذلك ، ولابد أنه يرى عصره ذهبيا . وان احياء ذكراه هو استرجاع

لأجمل صور التاريخ المصرى الحديث .. وان كان يرى أن الرئيس عبد الناصر قدوة للعسكرى والسياسى والعامل والفلاح ، ففى بلادنا ديمقراطية تعطيه الحق فى أن يكذب وأن يصدق وأن يتوهم وأن يرفض الحرية ..

ولكن لابد أن يفسر لنا كيف أدت قرارات الرئيس عبد الناصر الى اضافة أرض جديدة الى اسرائيل : سيناء والجولان والضفة والقطاع والقدس . فهل يا ترى اذا دعا أحد الى عودة أفكار عبد الناصر يدعو أيضا الى اعطاء سيناء لاسرائيل واغلاق القناة والابقاء على الأرض المحتلة كما هى ؟ وهكذا تظل أيدينا على الزناد ، تاركين الأرض والمصنع والمدرسة والمستشفى وندخل التاريخ ان دخلناه على أننا الجياع العراة الحفاة العبيد المحاربون بلا قضية !

اذن لا نظرية ولا اتباع .. ولذلك فالذى يسمى نفسه ناصريا ، لا أعرف لماذا ؟ كيف يكون تابعا والذى يمشى وراءه لم تكن عنده خطة .. ولا فلسفة .. وان كانت فأين ذهبت به وبنا ..

ولأن أجهزة كثيرة كانت تعمل فى عصر الرئيس جمال عبد الناصر وقد أدى ذهابه المفاجىء سنة ١٩٦٧ الى تراجع هذه الأجهزة وتماسكها واختفائها تساندها دول عربية واجنبية فى مصر وفى العواصم الأوروبية .. ثم ان القفزات السياسية والاجتماعية فى عصر السادات قد أدت الى سكون الناصرين وتربصهم .

وقد برزت غضبة الدول العربية على نصر أكتوبر وفتح القناة والاستقرار الداخلى والسلام وانسحاب اسرائيل من سيناء وانفتاح مصر داخليا وخارجيا وظهور الأحزاب . فقد كان كل ذلك احراجا شديدا لكثير من الدول الشقيقة التى خافت من العدوى . والتى خافت الا تعتمد مصر عليها وقد كانت تألقت سعادة الشعوب العربية عندما دارت طواحين البلاغة فى سوريا فأخرجت لهم العبارات المناسبة للأوضاع فى مصر . عزل مصر عن العرب .. او عزل العرب لمصر .. التصدى للتردى المصرى .. ١٩٦٧ وهى النكسة العسكرية والانتصار السياسى و ٧٣ هى النكسة السياسية والانتصار العسكرى .. الى آخر التعابير الغريبة التى تدل على أن مصر تآمرت على العرب وعلى الشعب المصرى ، وأوهمت الجميع انها انتصرت .. والحقيقة انها تآمرت مع أمريكا واسرائيل على ضرب العرب ؟!

ويحاول الناصريون أن يجربوا لعبة قديمة .. وهى أن يتسللوا من داخل الحزب الوطنى — وقد فعلوا — ليقفزوا على السلطة ويصبحوا مراكز قوى موالية لقوة اجنبية — لروسيا مثلا وهم لا ينكرون أنهم شيوعيون ، ولا أن عبد الناصر كان ماركسياً .

وقد جرب جمال عبد الناصر الاستعانة بالشيوعيين لضرب الاخوان المسلمين والمسلمين وضاق بالشيوعيين وطردهم وأودعهم السجون . ولكن لا يهم ما داموا عندما خرجوا من السجون وجدوا الخبراء والقوات السوفيتية فى كل مكان !

وجرب السادات أيضا نفس اللعبة .. اى الاستعانة بمجموعة لضرب مجموعة أخرى .. واذا لم تنتصر واحدة على الأخرى فانها تخلق صراعا فى داخل الحزب ، ولابد من القضاء على الصراع فيستعين بقوة ثالثة . وبدلا من اسكات القوى الداخلية ، فانه ينعشها ويعطيها مزيدا من السلاح لتعمل ضد بعضها البعض وضده أيضا !

وهو أسلوب مستعار من عالم الحيوان والنبات : وهو توازن القوى فى البيئة . فالانسان يعيش على الحيوان والحيوان يعيش على النبات والنبات يعيش على التربة التى هى مقبرة للجميع !

ففى سنة ١٨٥٨ أدخل الانجليز فى استراليا عددا كبيرا من الأرانب للرياضة .. اى يربونها ويصيدونها .

وفجأة ودون أن يدرى هؤلاء الصيادون تكاثر عدد الارانب حتى أخذت تأكل النباتات والثمار والأشجار والبذور ..

فأقاموا لها الأسوار فكانت تقفز فوقها وتنخر الأرض تحتها .. واقاموا المصايد والشراك واطلقوا عليها النار .. ثم استخدموا السموم .

ثم أتوا بالكلاب واطلقوها عليها .. توحشت الكلاب فراحت تأكل الطيور والأغنام والدواجن .. ولم تعد الكلاب تخيف الذئاب والثعالب .

وقفزت الفئران من السفن ، وأصبح فى استراليا وحدها ستون نوعا منها فأكلت البذور والجذور . فكان لا مفر من استيراد القطط . وتكاثرت القطط فأكلت الدواجن والطيور وانصرفت عن الفئران التى توحشت .

وهى مشكلة متجددة عندما نحاول أن نتدخل لاقامة نوع من التـــوازن بين القوى ، حتى لا يطغى جانب على جانب . لأننا نحاول التوازن بعنف . ونحاوله متأخرا .

وفى حديقة حيوانات الجيزة نصف مليون فأر ، ويقال أكثر .. ولكن احدا لا يستطيع أن يقتل هذه الحيوانات بالسم أو المبيدات ، حتى لا تموت فى أقفاص الحيوانات الأخرى فتأكلها وتموت ..

ولذلك فاننا نتركها الآن ، لأن محاولة القضاء عليها صعبة وخطرة فى نفس الوقت واذا أتينا لها بالقطط ، فنحن نعـــرف الآن ما حـــدث فى اســـتراليا !

ولم يطلب أحد الى الناصريين ان يقوموا بدور القطط فى الحزب الوطنى، لمقاومة حزب الوفد أو الجماعات الاسلامية ــ فالثأر قديم ــ لم يطلب أحـــد ذلك ، ولكنهم وجدوا الفرصة .. فهاجموا الوفديين بتقديس جمال عبد الناصر أى بأغاظتهم واخراج لسانه لهم .. وكذلك هاجموا الجماعات الاســـلامية والاخوان فالثأر قديم .. وهم بذلك يحملون الحزب الوطنى ما لا يطيق .. وكيف ينسى عشرات الألوف من الاخوان والجماعات الدينية الأخرى هتـــك الأعراض : الزوجة أمام زوجها .. والبنت أمام أبيها .. ان هتلر لم يفعل ذلك .. أنه أحرق الجميع . ولو خيرنا أبا أو أما بين الهوان والتعذيب وبين الحريق ، لاختارا الموت بيد هتلر على الحياة على يدى صـــــلاح نصـــر ورجـــاله .

لقد كان صلاح نصر مدير المخابرات المصرية يتباهى أمام نسائه بأنه وحده الذى يستطيع أن يجعل عبد الناصر يغير سريره وينام فى المكان الذى يختاره له .. فقد تحول الأمن القومى عند صلاح نصر الى« أمن الرئيس » فقط .. ولذلك كان يعتمد عليه . وكان صلاح نصر يخيفه أيضا .

وفى احدى المرات ، وهى حادثة معروفة الأسماء عند الكثيرين . كان صلاح نصر يجلس فى أحد بيوت الضيافة .. أو « بيوت الأمان » بلغـــــة المخابرات .. وقال لاحدى الممثلات سوف تسمعين صوت الرئيس وسوف اجعله ينام فى مكان آخر غير بيتـــه أنه مزكوم . وجاء صـــوت الرئيس فى التليفون .. ثم فى التسجيل وهو يقول : يا أخى قرفتنى فى عيشتى ياسى زفت .. عاوزنى أنام فين الليلة .. الخ .

فطلبت احدى الممثلات من صلاح نصر ان كان جدعا أن يرجع فى كلامه ويدع الرئيس ينام فى بيته .

وفى التليفون قال صلاح نصر : لا مؤخذة يا أفندم .. انتهى كل شيء يمكنكم البقاء فى البيت .

واغلق جمال عبد الناصر التليفون فى وجهه . بينما تضاحكت الفتيات واكملن السهرة الحمراء فى احد قصور مصر الجديدة !

لقد كان هذا المزاج الشاذ المرضى هو الذى يدفع بصـــلاح نصر الى تعذيب وهتك أعراض البنات الابكار والزوجات المحصنات .. ويتضاعف العذاب واللذة ان يكون ذلك أمام الآباء والأبناء ــ ولم يكن صـــلاح نصر هو الذى ينفرد بالقرار وانما كان يهبط عليه الوحى الشرير .. فلم يكن الا قائد اوركسترا العذاب ، أما صاحب النوتة الموسيقية فهو الرئيس جمال عبد الناصر ــ قال ذلك صلاح نصر وآخـــرون كثـــيرون فى المحـــاكمات المعـــروفة !

والذين قالوا عن الملك فاروق أنه من نسل النبى عليه الصلاة والسلام، قالوا عن عبد الناصر أنه نبى لا صلاة عليه ولا سلام معه !

ومنذ انهزم نابليون فى معركة ووترلو ونفاه الانجليز فى جزيرة البـــا ثم افلح فى أن يهرب وأن يعود الى حكم فرنسا ، وكل انصـــار الزعمـــاء يحلمون بعودة الظالم ، كما عاد نابليون وحتى عندما أبعد نابليون نهائيا الى جزيرة سانت هيلانة ، لم يتصور أحد أن يموت نابليون ككل خلق الله وانما قالوا ان الانجليز وضعوا له السم يستعجلون وفاته .

وأتباع هتلر يعتقدون أنه هرب الى أمريكا اللاتينية .

تماما كالشيعة الذين يعتقدون أن الامام الغائب موجود . حى يرزق وأن عمره الآن أكثر من الف سنة . وأنه يدير حال المسلمين من بعيـــد لبعيد وأنه ســـوف يعـــود يوما ليمـــلأ الأرض عـــدلا ، بعـــد أن امتلأت ظلمـــا !

فان لم يعد عبد الناصر بجسمه ، فليعد باثمه ، وهم يحاولون ذلك فى داخل الحزب الشيوعى ، وفى داخل الحزب الوطنى .

وهم يقولون أن هناك نوعين من الناصريين انصار يوليو .. وانصار يونيو .. أنصار يوليو هم الذين يؤيدون مبادىء الثورة التى حاول عبد الناصر تطبيقها ، ولم يفلح — لقد ساروا فى موكبه بعض الطريق ..

ثم أنصار يونيو — أى الذين يرون أن عبد الناصر وان انهزم فى يونيو سنة ١٩٦٧ فلأن قوى العالم قد وقفت ضده .. فهو لم ينهزم ، وانما هزموه — فهم يمشون فى جنازته الى آخر الطريق .

فأنصار يوليو : هم الذين يمشون فى زفة الثورة .

وانصار يونيو : هم الذين يشيعون الهزيمة .

وقد حزن المصريون كثيرا على فقد الزعيم جمال عبد الناصر .

بل ان المؤرخين يرون فى جنازته واحدة من كبرى جنازات القرن العشرين — اقرأ ما كتبه أرفنسج والاس وزوجته وابنه وابنته فى كتابهم « الأرقام القياسية » — الجزء الثانى .

١ — جنازة الماريشال البولندى بلسودسكى سنة ١٩٣٥ .

٢ — جنازة الملك جورج الخامس سنة ١٩٣٦ .

٣ — جنازة غاندى سنة ١٩٤٨ .

٤ — جنازة ستالين سنة ١٩٥٣

٥ — جنازة جون كنيدى سنة ١٩٦٣

٦ — جنازة نهرو سنة ١٩٦٤

٧ — جنازة تشرشل سنة ١٩٦٥

٨ — جنازة جمال عبد الناصر سنة ١٩٧٠

٩ — جنازة ماوتسى تونج سنة ١٩٧٦

١٠ — جنازة هوارى بومدين سنة ١٩٧٨

ولقد اتسمت جنازة الرئيس جمال عبد الناصر بالبكاء والعويل ومحاولة الناس أن يحملوا النعش الى مثواه الأخير — ومن العادات المصرية القديمة أن يبكى المصريون ويلطموا خدودهم ويشقوا ملابسهم وأن يرقصوا كما قال الشاعر القديم :

كالطير يرقص مذبوحا من الألم !

ومن عجيب أمر المصريين انهم اذا انتصروا رقصوا ، واذا انهـزموا رقصوا .. فنحن نرقص فى كل المناسبات ، ولذلك فالرقص عندنا لا معنى له وهذا دليل على طغيان العاطفة ، وغفلة الشعب .

***

فلم يعرف الذل والهوان من لم يعش سنة ١٩٦٧ !

قرأت للرجل الطيب بوذا وصفا لنظريته فى الحياة . ولمـاذا من المقدر لها أن تعيش كثيرا وطويلا . يقول : ان النظرية يجب أن تكون لها صفات المحيط فالمحيط كلما توغلت فيه ازداد عمقا .

ومهما توغلت فى المحيط فانه يحتفظ بلونه وطعمه ..

ثم ان الأنهار كلها تصب فيـه .

وهذه الأنهار لها أسماء كثيرة عند المنبع وعند المصب .. ولكنهـا جميعا تندفع بحماس شديد لتذوب فى المحيط .. والأنهار لا تتـوقف عن الجريان والمحيط لا يرفضها . وكما أن للمحيط شواطىء فكل شاطىء له اسم .. ولكنها جميعا أطراف لوعاء واحد ، فكذلك النظرية الشاملة ..

وفى المحيط حيوانات ضخمة كالحيتان ، وكائنات ضعيفة مضـيئة كاللؤلؤ .

وبين الحين والحين يطفو على سطح المحيط حيوان ميت .. ولكن سرعان ما يتلاشى الميت فى بطون الأسماك الأخرى .

هذه هى صفات النظرية التى تعيش على شواطئها وعلى امواجها وعلى سطحها وفى أعماقها كثير من الكائنات الحية .

وهذه شروط النظرية التى تبقى .

ولست أجد من بينها صفة واحدة تنطبق على « الناصرية » — ان كانت نظرية أو كانت لها نظرية !

واعتقد أن دراويش الناصرية قد ارتكبـوا غلطـة الرحالة « كوك »

فعندما اكتشف جيمس كوك البريطـانى جـزر هاواى ، تساقط أهل البلاد ساجدين له ولعظمته .. فقـد جـاء فى أسـاطيرهم القديمـة ان المنقذ سوف يجىء اليهم راكبا جزيرة ـ سفينة كبيرة ـ وانه سـوف يكون طويلا أبيض ذهبى الشعر .. يأتى بالمعجزات فاذا جاء القوا السلاح عند قدميه وتوجوه ملكا مقدسا عليهم . وجـاء كوك وركعت الجـزيرة وسجدت . وتكدست الثمار بين يديه وتمرغت الفتيات العذارى أمام فراشه: شرفا لهن ومجدا للجزيرة .

وفعل كوك ورجاله كل ما يفعله بحارة عاشوا فوق ويلات الموت شهورا عديدة . ثم طغى وبغى وضرب الشباب وعصف بالشيوخ .. ولكنه لم يتنبه الى أن هؤلاء البدائيين وان كانوا أقرب الى الحيوانات ، فالحيوانات لهـا مقدسات فعندما اعتدى على شيخ من مشايخ القبيلة أطلقوا عليه السهام . فأصابه سهم فى رأسـه ونزف دما وسقط ميتـا ـ وكانوا يؤمنـون بأنه لا يموت .. اذن هو بشر . وليس آلها ولا هو المهدى المنتظـر ولا الرسول الموعود .. ولا هو الـذى يستحق القداسة . هنا فقط أدركوا أنه مثلهم وان اختلف فى اللون فأجهزوا عليه وقتلوه أكثر رجاله .

وغلطة دراويش الناصرية ، انهم يقدسون الزعيم ويعصمونه من الخطأ بينما أخطأ العالم كله وأول الذين أساءوا فهمه وتقدير دوره التاريخى هم شعب مصر والأمة العربية ـ ونسوا أنه بشر مثلنا وان خطيئة النكسة هى كالسهم الذى أصاب كوك فى رأسه فنقله من عرش الآلهة ، الى أكفـان البشـر .

ولا أظن أن قائدا انكسر ، يعتقد أنه انتصر .. اذا تظاهر بذلك ، فلكى يحمى انسحابه وتراجعه الى الظل .

فما التاريخ بعد ذلك ؟
اعرض عليك ـ أخيرا ـ عينات .
التاريخ يكتبه أخ شيوعى .
التاريخ يكتبه أخ مسـلم .
التاريخ يكتبه أخ مصرى .

□ □ □

يا جمال يا مثال الوطنية..

أغنية الإخوان والشيوعيين!



يا جمال يا مثال الوطنية..
أغنية الإخوان والشيوعيين!

كان الاحتفال العائلى بعيد ميلاد الرئيس السادات فى ميت أبو الكوم . آخـــر عيد . جلست انتظره . خرج الرئيس ليجد السيدة منى عبد الناصر قد لفت يديها حول عنقى وهى تقول : اريد أن أخنقك .. ان اقتلك !

فقال الرئيس : ماذا فعلت يابنتى منى بأنيس ؟

قلت : ياريس أنا لا اعرف لقـــد رأتنى أخـــيرا فى فرح ابن فـــوزى عبد الحافظ وحاولت خنقى ؟

أجابت منى عبد الناصر . هل يرضيك يا اونكل أن اسأله عن سبب اختياره اسم ٦ أكتوبر للمجلة التى يرأسها فيقول لى : وهل كان الأفضـــل أن اسميها ٥ يونيـــو !

ولم يظهر على وجه الرئيس السادات ما يدل على الضـــيق او الابتهاج فى مشـاركتها أو مشـاركتى ..

وبعد سـاعتين جاءت السيدة جيهان السادات تقول لى : انا أعطيت منى رقم تليفونك فى البيت ، لأنها تريد أن تعتذر لك ..

أما الشيء العجيب حقا فهو أن يتصل بى الرئيس السادات عند منتصف الليل ليسألنى : يا انيس ..

ــ ايوه يا ريس .

ــ ما الذى حدث بالضبط بينك وبين منى . لم أفهم يا أنيس !

فرويت له ما حدث .

وفوجئت بالرئيس يضحك من كل قلبه وحنجرته ويقول : يا ساتر يارب .. وتقول ان الأستاذ العقاد كان سليط اللسان يا أخى انت لسانك اطول من لسان العقاد .. هاها .. هاها ..

فالرئيس السادات لم يشأ أن يضحك أمام منى عبد الناصر !

وعندما دعوت زعماء حزب العمل الاسرائيلى الى ندوة فى مجلة اكتوبر حضر . شيمون بيريز وأباايبان وحاييم بارليف والدكاترة مصطفى خليل وابراهيم حلمى عبد الرحمن وبطرس غالى . فسألنى أحد أعضاء الوفد الاسرائيلى ولماذا اخترت اسم « أكتوبر » لهذه المجلة ؟

قلت : تيمنا بانتصارنا فى حرب أكتوبر .

وبدأ الضيق العابر على الوجوه ..

ثم عدت أقول مداعبا : ولكن عندما نصدر الطبعة العبرية لهذه المجلة سوف نجعل اسمها « ٥ يونيو » !

فزاد الضيق على وجه الوفد الاسرائيلى .. أما الوفد المصرى فاستعار ملامح وجه الرئيس السادات ، تعليقا على الذى دار بينى وبين منى عبد الناصر !

فكل حدث له وجهان : النصر هنا والهزيمة هناك.. أناس يرقصون بالشمبانيا ابتهاجا بما حدث ، وأناس تتساقط منهم القهوة السادة حزنا على ما جرى .

وقديما قال المتنبى :

فنحن فى جذل والروم فى وجل   والبر فى شغل والبحر فى خجل !

وكان الاغريق يعبدون الها اسمه جانوس . هذا الاله له وجهان . وكانوا يضعونه على باب البيت : يبارك من يدخل ، وعلى ظهر الباب يبارك من يخرج .. فالاله جانوس هو الذى يقول : حمد الله على السلامة . ومع السلامة ..

ولكن الضحايا ليس لهم الا وجه واحد .. انهم تعذبوا حتى الموت .. وبكت عليهم امهاتهم وزوجاتهم وبناتهم . سواء كان النصر حليفا لهم ، أو حليفا لاعدائهم .. فالذى شرب الشمبانيا حتى مات ـ الخديو اسماعيل والملك فاروق ـ والذى مات عطشا مثل مئات الألوف من جنودنا فى سيناء واليمن : جميعا ماتوا !

***

وهناك حيوان وحيد ينقل الناس الى الكمال والجمال اسمه : الألم !

وانت لست فى حاجة الى بطاقة شخصية لأى انسان وجدته ينزف دما على الأرض . انه ضحية ..

وانت لا تسأل ان كان شيوعيا أو مسلما أو مسيحيا أو يهوديا أو ملحدا لتقول : آه .. أنت تقولها ، كما يقولها هو . فقد جمع الألم بينكما والصدق أيضا . فكلاكما ضحية : هو ضحية لواحد ، وانت ضحية الاثنين !

***

(١)

وقد أصدر الزميل الهام سيف النصر الكاتب الشيوعى الذى اعتقلوه عشرين مرة ، كتابا سنة ١٩٧٧ عنوانه : « فى معتقل أبو زعبل » .

وفى هذا الكتاب يصف لنا ما الذى لقيه اقطاب الشيوعيين من أساتذة للجامعات وأدباء وساسة من عذاب وهوان فى داخل السجون . رآهم ينزفون دما ، ولا يعترفون على زملائهم ..

رأى د. اسماعيل صبرى عبد الله ، مستشار الرئيس عبد الناصر ، يقطعون ظهره بالسياط والشوم ويترنح على الأرض من الألم .

رأى د. لويس عوض يطاردونه بالسياط والخيول ..

وراى د. عبد العظيم انيس ومحمود امين العالم .. وشـــهيد الشهداء شهدى عطية ، ضربوه حتى مات . وجاء طبيب السجن يصدر قرارا بأنه مات بهبوط فى القلب ..

وراى د. فؤاد مرسى سكرتير الحزب الشيوعى المصاب بانفصـــال فى الشبكية يلقى مالا حد له من الهوان والعذاب ..

ويلتفت الهام سيف النصر الى السفالة واللاأخلاقية فى داخل السجن : الرشوة والفساد .. ومن يدفع يحصل على كل ما يريد من الخمـــــور والحشيش والذهاب الى مستشفى الأمراض العقلية هربا من السجن ..

كما ان الجنود أو الضباط أو مديرى سجن طره يزرعون الحشيش ويبيعونه فى داخل السجن وخارجه !

ومن أهم ما يمتاز به كتاب الهام سيف النصر : انه رجل مثقف . وانه يغتفر كل ما يحدث فى السجن له ولزملائه . لأنهم جميعا يعتقدون ان حكومة عبد الناصر حكومة وطنية ، وان كان اسلوبها فى الحكم غير ديموقراطى — تماما كما تضرب واحدا بالجزمة ويعترض على أنها غير نظيفة !

وهو يتهم كل الناس فى السجن ، صغارا وكبارا ، ولا يتهم الحكومة أو الرئيس ، كأن هؤلاء الناس يديرون السجن لحسابهم ، فى جزيرة من جزر المحيط .. ولا علاقة لهم بالادارة أو النظام او فلسفة الحكم ..

يقول : ان الأيام والتاريخ اثبتت ان عناصر فى قمة السلطة كزكريا محيى الدين وعبد اللطيف البغدادى اشتركت فى وضع الخطوط العـــامة لتعذيب الشيوعيين يساعدهم فى ذلك بعض المستشارين من رجال المخابرات الأمريكية : مثل مايلز كوبلان الذى عمل فى فترة من هذه السنوات مستشـارا لزكريا محيى الدين للأمن الداخلى ومحاربة الفكر اليسارى . حقيقة ان آخرين كعبد الحميد السراج تقدموا بخبراتهم وحقدهم ودفعوا عملية الانتقـــــام .. الا انه فى النهاية .. من هو المنفذ الأول ، والذى أوكل اليه تعذيب وتصفية الشيوعيين ، وترك له رسم الأسلوب واحكام التفصيلات ؟ اللواء حســـن المصيلحى ولا أحد غيره .

وزكريا محيى الدين فى الكتاب هو المعادى للديموقراطية والاشتراكية والموالى للغرب والأسلوب الأمريكى فى الحياة .. وهو الذى جعل مشكلة مصر هى الوجود السوفيتى وليس الاحتلال الاسرائيلى !

وكان الهام سيف النصر ومحمود امين العالم ، قد ابلغا عن مؤامرة لقلب نظام حكم عبد الناصر وتلقى الحزب الشيوعى خطاب شـــكر من عبد النــاصر .

ثم القى القبض عليهما بتهمة قلب نظام الحكم ؟ !

ويندهش المؤلف قائلا : كيف يتهم الحليف حليفه بالتآمر عليه ؟ !

ومن مظاهر السخرية بهؤلاء الزعماء أنهم كانوا يوزعون عليهم فى السجن بدلا قصيرة للطويل ، وطويلة للقصير ، وضيقة للبدين ، وواسعة للنحيل ــ ليكونوا مسخرة .. وكانوا يطلبــون اليهم نقل روث البهــائم بأصابعهم ، سمادا للأرض المزروعة .. ويطلبون اليهم نقل مياه الأمطــار فى فنجان ــ ليظلوا يفعلون ذلك طوال اليوم .. ويطلبون الى اسماعيل صبرى عبد الله أن يقول : أنا « مرة » اى امرأة !

وكان يرفض .

يقول المؤلف : رغم ان اسماعيل صبرى عبد الله لا يرى فارقا بين الرجل والمرأة .

ولكنه يرفض المعنى الذى أرادوه وهو اهانته واذلاله ..

بينما شهدى عطية ظل يقول انه امرأة حتى فقد النطق ..

اما اقصى درجات العذاب التى رفضها كل هؤلاء الضحايا فهـــو أن يرددوا اغنية أم كلثوم التى كانت تشدو بها بعد نجاة عبد الناصر من حادث الاعتداء عليه فى المنشية بالاسكندرية سنة ١٩٥٤ .

الأغنية تقول وهم لا يقولون :

يا جمال يا مثال الوطنية .. أجمل أعيادنا الوطنيـــة .. بنجـــاتك يوم المنشــية ..

ويسخر المؤلف من الشيخ الهضيبى المرشد العام للاخوان المســلمين فقد أجبروه بالتعذيب على أن يغنى : يا جمال يا مثال الوطنية .

وفى هذا الكتاب صفحات ادبية فلسفية عن العذاب والهوان وكيف : يتحول الانسان الى « لا ــ انسـان » .. آلة لا يشعر ولا ينفعل ولا يتألم .. لقد جردوه من انسانيته .. فكان ذلك انقاذا له من العذاب ..

ويقارن المؤلف بين كل سفاحى السجون فى معسكرات الاعتقـــال النازية .. ويرى ان هؤلاء السفاحين جبناء فى الحرب من امثال : شمس بدران وصلاح نصر وحسن عليش واحمد صالح وحسن طلعت .

والمؤلف يشيد ببطولة الشيوعيين عموما . فهم يرفضون العذاب من اجل قضية . ولا يتهمون عبد الناصر لا بأنه يعلم ويسكت ، ولا بأنه لا يعلم. ولكنهم يتهمون كل انسان ابتداء من الحارس على الباب الى مدير السجن ووزير الداخلية ورجال المخابرات .

مرة واحدة اشار فيها الى « السيد » ــ هذه الأقواس من عندى انا ــ ويقصد بها الرئيس عبد الناصر ..

وفى الكتاب لمحات فلسفية سياسية .. مثلا يقول ان القاعدة فى التعامل مع الناس : اكسب خصمك والا فتحييده ؛ واذا لم تتمكن ، فامض فى المحاولة. وكل انسان له نقطة خير ــ أو نقطة ضعف أو بؤرة حقد ــ يجب أن نبحث عنهـــا ..

وهو على استعداد تام لأن يقبل اى عذر للرئيس عبد الناصر . تماما كما يقول اهل العراق على ايام الحجاج بن يوسف الثقفى السفاح المعروف: ولكنه مســـلم !

أو كما قال الكاثوليك فى القرن الخامس عشر عن القسيس الســـفاح نوركيمادا الذى أدار محاكم التفتيش ضد المسيحيين والمسلمين واليهود : ولكنه مسيحى !

وقد أعجب الملك فرديناند وزوجته ايزابلا بهذا القسيس الســـفاح وحتى عندما ذهب نوركيمادا الى الدير كان يدير محاكم التفتيش لاعـــدام وتعذيب المخالفين له فى الراى : فى الدين والسياسة !

وليس غريبا ان نجد شيوعيا مشهورا قد أعجبه من جمال عبد الناصر : ابتسامته . فقال عبارته الخالدة : ولكن له ابتسامة ساحرة !

وبذلك أضاف ــ بكل تواضع ــ الابتسامة الثالثة فى التاريخ : ابتسامة السيدة موناليزا التى رسمها دافنشى . وقيل ان ابتسامتها الساحرة بسبب الفرق الموسيقية التى كانت تعزف حولها أثناء تصويرها .. وقيل لأنهـــا حامل .. وقيل لأن أحدا لا يعرف ..

اما الابتسامة الثانية فهى للفيلسوف الساخر فولتير . وقد وصـــفها اديب فرنسا العظيم هيجو فى محاضرته الشهيرة بباريس يوم ٣٠ مايو سنة ١٨٧٨ بمناسبة مرور مائة عام على وفاة فولتير . يقول هيجو : هـــذه الابتسامة حكمة . هذه الابتسامة هى فولتير . هذه الابتسامة هى ضحكة . ولكن الحزن يسكتها . هذه الابتسامة سخرية بالقوى ، ولمسة للضعيف . هذه الابتسامة تكشيرة للظالم ، لمسة حنان للمظلوم . هـــذه الابتسامة قد اضافت الصدق والعدل والخير وكل ماله قيمة وفائدة فى هذه الدنيا .. الخ .

* * *

(٢)

كنا نجلس فى فندق شيراتون عندما قال لى الزميل حسن دوح : تعرف وحق كتاب الله ان بلدنا أجمل مكان فى العالم ..

ولم أصدق أنه يعنى كل كلمة يقولها .. فقلت طبعـــا من النـــاحية الأخلاقيـــة ..

فعاد يقول : ومن الناحية الجمالية أيضا .. انها قريتنا أجمل مكان فى هذا العـــالم .

قلت : واجمل من شيراتون ؟

قال : نعم !

قلت : ومن بيروت هذه ؟

قال : نعم !

ولابد أن رجلا أقام فى السجن عشرين عاما فى سبيل الله صادق تماما عندما يقسم بكتاب الله ان بلده طفنيس مركز اسنا بمحافظة قنا هى أجمل مكان فى هذه الدنيـــــا .

حتى أهدانى كتابا بعنوان « ٢٥ عاما فى جماعة مرورا بالغابة » وقد صدر سنة ١٩٨٣ . وجاء فى الاهداء لى : أخى الحبيب السلام عليكمورحمة الله . هذا الكتيب لا يعدل كلمة مما كتبت . بارك الله فى قلمك وجعله نورا يستضاء به . وسلاحا يقهر اعداء الوطن والدين والحرية . اكرر شـــكرى لمـــا كتبت . جزاك الله عنا خير الجزاء .

وفى أول سطر فى الكتاب يقول حسن دوح : قرية صغيرة ترقد على الجانب الغربى للنيل اسمها طفنيس .. هذه القرية لا تزال تحكمنى الى اليوم فى كثير من تصرفاتى . وحكمها لا أرفضه دائما ولا أقبـــله .. علمتنى أشياء افتقدتها فى أكبر المؤسسات العلمية .. علمتنى السماحة والسهولة والصدق وقدسية الكلمة والحفاظ على العرض ..

علمتنى الديمقراطية لكن هل علمت بما علمت .. أقول اننى أحاول ».

انه واحد من الاخوان المسلمين ، من المؤمنين ومن دعاتها ..

يتحدث عن أول معارك الاخوان : فهم تمكنوا من حصار الفـــالوجة وعملوا الأهوال لانقاذ القوة المصرية التى أحكم اليهود حولها الحصار . ومن عجب المقادير ان قوة الاخوان بقيادة معروف الحضرى هى التى عملت على انقاذ القوة التى كان من بينها جمال عبد الناصر والذى لقيت ولقى معروف الحضرى على يديه الويل والعذاب ..

ويقول : ومن أروع مواقف الاخوان المسلمين فى فلسطين انهم حاولوا انقاذ فلول جيشنا الذى منى بهزيمة منكرة عند الفالوجة : وفجأة تقدم ثلاثة جنود ومنهم ضابط لا يحمل رتبته .

وقال الضابط : وهو يرفع يديه مستسلما ويقدم لى مسدســــه : مستسلم . فقال له حسن دوح : لمن ؟

قال لكم .. ففهم من الرجل أنه تصور أنحسن دوح وزملاءه من اليهود. فقال له : نحن مصريون .

وقال الضابط : لا تسخروا منا .. انتم يهود ..

ولما سألهم عن سبب استسلامهم فقال : انهم لم يذوقوا الطعام ثلاثة أيام وان ذخيرتهم قد نفدت ..

ويقول حسن دوح : ان حرب اكتوبر تشهد بشجاعة وثبات وصبر الجندى المصرى . لأن الجندى كان قد أولى ثقته لقيادته .. وعلى العكس من ذلك فان حرب يونيو سنة ١٩٦٧ تعكس نفسية الجندى المصرى الذى لم يلمس الأمانة والصدق فى قيادته .

ويقول حسن دوح : كنت آمل أن تتضامن الثورة مع الاخوان وخاصة فى حربنا ضد الانجليز . ولكن الأيام خيبت ظنى . فلم يلتزم رجال الثورة

بالخط الاسلامى ، ووقع صدام مروع بين جمال عبد الناصر والاخوان لم ينته الا بموته .. وعبد الناصر لم يكن يقبل المشاركة فى السلطة . ولا يقبل الراى المعارض .. فكان يؤمن بنفسه وبفكره فقط .. ولذلك فانه صادم جميع الاحزاب السياسية ، وصادم الاخوان ، وصادم جميع رجال الثورة، فلم يبق على واحد منهم الى جواره .. فهو حمل الأمة على دخول حرب سنة ١٩٥٦ ، ومنينا بهزيمة قلبها الى نصر ثم هو الذى حمل الأمة لتحارب فى اليمن ، ثم هو الذى خلق هزيمة سنة ١٩٦٧ .. وهو الذى حالف الانجليز سنة ١٩٥٦ ، ثم هو الذى هادن أمريكا الى أن ظهرت قضية بناء السد العالى ، ثم غير اتجاهه الى الاتحاد السوفيتى وحالفه ، ومكن بجيوشه وخبرائه وأعوانه من الشعب والجيش ..

أما كيف يؤرخ حسن دوح لعهد الرئيس عبد الناصر ؟ يرى أن أول شىء يضعه أمام المؤرخين : السجن الحربى .

وفى داخل السجن التقى بالشيوعيين يقول : لقد سمعنا من الشيوعيين الذين رافقونا قولهم انهم يتعاونون مع جمال عبد الناصر كمرحلة للوصول الى الحكم . كانت خطتهم تستهدف تصفية خصومهم بيد جمال عبد الناصر ثم القضاء عليه هو بعد ذلك .

ويروى حسن دوح كل أساليب التعذيب التى ذكرها الكاتب الشيوعى الهام سيف النصر ولكن حسن دوح رجل عفيف اللسان ولا يذكر من الأحداث البشعة الا مارآه هو ، ويسكت عن الذى سمعه مع أنه صحيح .

ويحكى حسن دوح : انهم فرضوا على شاب ان يضرب أباه بالعصا. فاذا تردد انهالوا عليه ضربا . فاذا ضرب اباه ولم يكن موجعا .. ضربوه هو .. فكان الأب يتوسل لابنه أن يضربه هو بعنف ، حتى لا يضربوا ابنه ؟!

وكانوا يضعون حجرا على صدر أحد الاخوان ويطلبون منه ساخرين به أن يردد ماكان يقوله بلال مؤذن الرسول : أحد .. أحد !

يقول عن نكسة ١٩٦٧ : « ان الكثير منا قد شمت فى عبد الناصر الذى كان يستمتع بسجننا وتعذيبنا وتمنينا له الزوال .. الا أننى كنت اغالب عاطفتى وأحاول ان اتصور عبد الناصر وقد هداه الله وانه سوف يثوب الى رشده عندما يحاول أن يدرس السبب الحقيقى لهزيمة سنة ٦٧ والهزائم التى سبقتها فى اليمن وسوريا . ولكن عبد الناصر لم يتغير لأنه يؤمن

بعبد الناصر .. وقد ألقى تهمة الهزيمة على اقرب اعوانه وهو عبد الحكيم عامر وأنصاره وتنصل من أكبر وأخطر جريمة يرتكبها حاكم فى حق أمته .. »

ويتحدث حسن دوح عن الحادث المسرحى للاعتداء على جمال عبدالناصر فى المنشية بالاسكندرية سنة ١٩٥٤ :

هل مجرد الشروع فى قتل انسان يستدعى أشد ألوان العذاب على خمسين ألفا من الاخوان المسلمين .. وقد سخر عبد الناصر كافة وسائل الاعلام من رجال الجيش والبوليس .. حتى المغنيين والمغنيات سخرهم فى هذه المعركة ضد الأخوان . فغنت أم كلثوم قصيدة كتبت لها .. واستعملت هذه الأغنية لاثارة الغضب على الاخوان .. وكانوا يرغمونهم فى داخل السجون على ترديدها مع السياط فى السجن الحربى صباح مساء .

واختار السفاح حمزة البسيونى مؤلف هذا الكتاب ليقود الاوركسترا واختار الهضيبى ومنير الدلة وعددا من الاخوان لترديد الأغنية : يا جمال يا مثال الوطنية بنجاتك يوم المنشية ..

ورغم العذاب الذى لا ينتهى ليلا أو نهارا .فانهم كالشيوعيين ، كانوا يفلتون من اليأس بالنكتة والسخرية من أنفسهم ..

وان كان الشيوعيون أكثر مرحا وسخرية ، لأنهم أكثر تقبلا لكل ما أصابهم فى السجن .. ومما كتبه الاخوان عن حسن دوح والسخرية به ومن قريتــه طفنيس هذه قالوا :

طفنيس يا ســـت القـــرى	يـــا وردة بـــين الـــورى
هـــذا فتـــاك قـــادم	للتوعيـــات قـــد انبـــرى
حق الحـــلاوة جـــاهز	ان قـــال قـــولا منـــكرا
والاهـــلا هـــلا حـــاضر	ان قـــال قـــولا نـــيرا

وتفسير ذلك : الحلاوة هى الحلاوة الطحينية : الاهلا هلا .. أى الضرب .. ثم يعود حسن دوح يفسر التفسير بقوله : ان زملاءه ســـوف يهدوننى علبة من الحلاوة اذا وفقت فى حديثى الى اهلى ، أما اذا لم أوفق فسوف يضربنى رجال المباحث العامة !

وينهى الكتاب « ببرنامج للعمل الثورى الاسلامى : فالمشوار لم ولن ينتهى وهو على الرغم من صعوبته الا أن الماضين على طريقه يستشعرون عظمته فى الدنيا ويطمعون فى ثواب الله يوم لقائه » ..

***

(٣)

أما كتاب الزميل محمد الحيوان « قصة الديون السوفيتية على مصر » الذى صدر سنة ١٩٨٧ ، فيمكنك ان تقرأه فى جلسة واحدة . فهو سريع واضح وممتع حقا . ومن الممكن أن يكون مقدمة من الف صفحة لو أراد المؤلف .

يقول محمد الحيوان فى المقدمة : ماذا أخذنا من الاتحاد السوفيتى ، ولأى غرض وبأى سعر .. ماذا قدمنا للاتحاد السوفيتى من خدمات ، ولم نحاسبه عليها .. ان مراجعة بسيطة لذلك كله ، ستكشف لنا ان مصر دفعت للاتحاد السوفيتى أكثر مما قدم لنا ، وان لنا الحق فى أن نطالبه باسقاط ما علينا من ديون وأن نطالبه بالفرق .. وليست هذه مبالغة ، ولكن اتبعنى صفحة صفحة فى هذا الكتاب ، وسأحاول بقدر ما يمكن أن نقدم الدليل على ما نقوله .. وان كانت الأدلة الأقوى ما زالت فى يد الدولة وما زالت الدولة حريصة على الا تكشف كل أسرار الاتحاد السوفيتى . لماذا ؟ — الاجابة أيضا عند الدولة » .

لقد استفاد الاتحاد السوفيتى كثيرا خلال حكم عبد الناصر .. كان السفير السوفيتى هو المندوب السامى .. يتحكم فى قرارات مجلس الوزراء . يختار الوزراء .

يقول مدكور أبو العز : أن السوفيت سألوا عبد المنعم رياض اثناء زيارته لموسكو : لماذا تأخر تعيين اللواء على بغدادى قائدا للطيران ..

لقد تحولت مرافق مصر لخدمة السوفيت .. تحولت مصر الى مركز لنشر الشيوعية فى العالم العربى وأفريقيا .

قال حسن ابراهيم عضو مجلس قيادة الثورة : ان عبد الناصر ماركسى يطبق الشيوعية تماما .

قال كمال الدين حسين عضو مجلس قيادة الثورة : ان عبد النـــاصر اراد أن يكون امبراطورا للعرب ولذلك تحالف مع السوفيت . ووضع نفسه فى خدمة الاستعمار السوفيتى فى المنطقة .

قال حسن التهامى : عبد الناصر وخالد محيى الدين شيوعيان ..

كتب محمد حسنين هيكل ان عبد الناصر لم يكن مؤمنا .

وسجل حوارا بينه وبين عبد الناصر فى ساعاته الأخيرة فى فنـــدق هيلتون ، وخلال هذا الحديث كان عبد الناصر يشك فى يوم القيامة !

وقد نشرت مجلة « صباح الخير » تحقيقا عن حوار بين عبد النـــاصر وعبد الحكيم عامر قال فيه عبد الحكيم عامر أكثر من مرة أن عبد النـــاصر غير مؤمن .

ومما قاله عبد الناصر : احنا ضعفاء فى وسط العالم وعايزين قوة اكبر منا ننتمى اليها وان الواحد لا يحقق كل ما يتمناه فى الدنيا ، ولذلك يتخيل أن هناك دنيا أخرى ..

حسن عشماوى قال عبد الناصر كان عضوا فى خلية شيوعية واسمه الحركى موريس .

المهندس أحمد عبده الشرباصى قال ان عبد الناصر عاتب كاسترو على اعـــلانه الشـــيوعية بسرعة .. وقال اننى أطبق الشـــيوعية فى مصر بلا اعلان .

وقال الشرباصى ان عبد الناصر لم يؤمم الأرض حتى لا يصدم الرأى العام الاسلامى ، ولكنه أمم الفلاح والمحصول .

وكان الاتحاد الاشتراكى تطبيقا شيوعيا لنظام الحزب الواحد وكانت منظمة الشباب معملا لتفريخ الشيوعيين .

قال عبد القادر عيد مدير مكتب المشير عامر أن القرارات الاشتراكية صدرت بعد انذار سوفيتى .

يقول محمد الحيوان : صدر الميثاق بصورة ماركسية تماما . وكان يزعم ان الأديان مجرد ثورات .. وعندما تمت مناقشته وطلب المؤتمـــر القومى تعديله ، وافق عبد الناصر على أن تكون مذكرة التعديل منفصـــلة

عن الميثاق نفسه وعندما تراجع عنها واعتذر لكمال حسين بأنه وافق لأنه كان « مزقوقا » !

حسين الشافعى يحكى قصة الخلاف بين عبد الناصر مع على صبرى قال : ان عبد الناصر تلقى تقريرا من سفيرنا فى موسكو بأن على صبرى اتفق مع السوفيت على خلافة عبد الناصر .. وعلى أن تعليمات السوفيت تصله هو شخصيا ، لأن عبد الناصر قد أسقطوه من حسابهم ..

أما عن حرب اليمن فيقول المؤلف استمرت حرب اليمن ١٨٠٠ يوم .. وخسارة مصر مليونا جنيه يوميا أى ٣٦٠٠ مليون جنيه .. الشهداء خمسون ألفا وحساب الأرصدة الذهبية التى أخذت من مصر لتوضع بين يدى زعماء قبائل اليمن ، تمثل حسابا رهيبا ..

استطاع الاتحاد السوفيتى ان يسيطر على كل مرافق مصر . وبقى الجيش وحده ضد الشيوعية ولذلك كان لابد من مؤامرة ضد الجيش وضد عبد الحكيم عامر . السوفيت يعترفون بذلك . ثلاثة منهم أصدروا كتابا عن حرب ٦٧ عرضوه فى مصر بسعر ١٥ قرشا . وبعد عرضه ، اكتشفوا أنهم فضحوا انفسهم فسحبوه .

« الكتاب يقول ان حرب ٦٧ كانت للتخلص من عبد الحكيم عامر ورجاله لأنهم يقفون ضد النفوذ الشيوعى فى مصر .

ويقول محمد الحيوان : مصر تحتفل بالمولد النبوى يوما واحدا ، والمسيح يوما واحدا ، ولكن مصر احتفلت لمدة شهر كامل بمرور مائة سنة على مولد الزعيم لينين . لم تكن مصر هى التى أقامت الاحتفالات ، ولكن الأجهزة المسئولة .. والشعب لم يشارك فى هذه الاحتفالات ولا حتى الاستماع والمشاهدة .. وهناك دليل على ذلك هو أن الكتب التى وزعت عن لينين فى هذه المناسبة لم تمتد اليها يد مشترية — لقد بيعت ١٦ نسخة !

أما علاقة السوفيت بشارع الشواربى فقد حدث عندما قرر الاتحاد السوفيتى محاربة أنور السادات بعد طرد الخبراء السوفيت ، وذلك بتوزيع الأموال على العملاء ، فقد استورد السوفيت كميات ضخمة من البضائع من بيروت فى صناديق مغلقة على أنها حقائب دبلوماسية لا يجوز تفتيشها وكان أعضاء السفارة يذهبون بالبضائع لبيعها فى شارع الشواربى والحصول على الأموال الضرورية للتآمر على أنور السادات ..

وكشفت أجهزة الأمن هذا العدد الهائل من الصناديق !

وهاجمت الصناديق الموجودة فى مطار القاهرة وجدت بهـــا الساعات والخرز والترتر !

ثم ضبطوا كميات من الذهب مهربة من مصر مع الخبراء السوفيت !

والشيوعيون يقـــارنون بين راس الامام الحســـين وبين راس لينين ويقولون راس الثانى أفضل لأن هذا الراس قد حقق الثورة الشيوعية .

ويختم الأستاذ محمد الحيوان كتابه الممتع ، الذى يدوخك بالمعلومات والأحداث الكثيرة المروعة : أخيرا . هل يقبل الاتحاد السوفيتى أن يدفع ثمنا لكل جرائمه فى مصر ؟ حتى وصل الحال بنا الى تشـــكيل جيش سرى للاغتيالات بقيادة كمال رفعت ، مهمته اغتيال كل من يعارض الســـيطرة الشيوعية فى مصر ، وباسم الولاء لعبد الناصر . فهل يجوز أن يســـــتفيد المجرم من جريمته .

* * *

(٤)

وأخيرا : ولماذا الآن ؟

كان من الأفضل أن يكون « تقييم » الرئيس جمال عبد الناصر بعـــد مائة عام .. عندما يكون المؤرخ اكثر حرية وعندما تكون الأحداث اكثر وضوحا . ولذلك يرى المؤرخون أن احسن ما كتب عن الثورة الفرنسية هو الذى جاء على اقلام الكتاب فى القرن التاسع عشر ..

والذين هاجموا عبد الناصر ايام السادات ، كالذين هاجموا السادات ايام حسنى مبارك : منافقون .. يريدون أن يؤكدوا للحاكم أنه هو الأفضل.. وأنهم انتظروه حتى جاء . فلما جاء ، انكشف الغطاء وسقطت القيود ؟ !

ثم يصدق على كل من حاول أن ينتقد عبد الناصر همسا أو رمزا أو لمزا ما قاله الأستاذ محمد أحمد النعمان احد زعماء اليمن عندما طلب اليه يوسف السباعى فى مؤتمر الأدباء ببلودان أن يكف عن مهاجمة الامام احمد فقال عبارته الخـــالدة :

هناك نوعان من الأدب فى اليمن : أدب فى مدح الامام ، وأدب فى رجاء عفـــوه !

ولم يكن مدح عبد الناصر مسموحا به ، ولا رجاء عفوه مسموعا له !

وقيل : الضرب فى الميت حرام وأذكروا محاسن موتاكم .

واذكر هنا ما قاله الأستاذ عباس العقاد فى محاضرة له فى الجامعـــة الامريكية فى ذكرى أمير الشعراء أحمد شوقى فقد استأنف العقاد الهجـــوم على شوقى . فقيل له : ولكن الرجل مات .

فقال العقاد : ان رأيى فى الرجل افضل من رأيكم ، انتم ترونه قد مات ، وأنا أراه مازال حيـــا !

فأى الناس يكتب التاريخ العسكرى والسياسى والاجتماعى والدينى للرئيس جمال عبد الناصر .

ليس هؤلاء الجنرالات الجالسين القرفصاء الذين يتوهمون معـــارك وبطولات ونكبات ، ويخترعون الأحـــداث واستحضار أرواح الموتى فكانت الحرب من صنعهم ، والهزائم والانتصارات من خيالاتهم .. انهم يشبهون أبطال قصة « الضحية ترابس » التى كتبها الأديب السويسرى ديرنمات يحكى أن عددا من القضاة أحيلوا الى المعاش فأقاموا فى فيلا لصديق لهم وراحوا يأكلون ويشربون ويتذاكرون قضاياهم واشهر أحكامهم ومرافعاتهم ويتناوبون دور القاضى ووكيل النيابة والمحامى ــ قضاء على الملل واستدراكا للمتع التى فاتتهم .

وفى يوم تعطلت احدى السيارات وجاء صـــاحب الســـيارة يطلب مساعدتهم . وهنا احس القضاة أن الزمن قد أهداهم متهما نادرا واطلعوه على سرهم . ودخل الرجل « ترابس » البرىء فى لعبة القضاة المحترفين المتمرسين وكشفوا بالحديث معه واستدرجوه الى أن يروى قصة حيـــاته ويعترف بأنه ساعد على ارتكاب جريمة احد خصومه فى التجارة ـــ وادانته المحكمة رغم المرافعات البارعة .. ثم نفذت فيه حكم الاعدام ؟ !

* * *

وفى سنة ١٩٦٧ اختفى من المسرح العالمى كثيرون .. ولكن بقيت آثارهم مات الزعماء اديناور وجيفارا .. والأدباء ساندبرج وماتسفيلد وموروا وابو القنبلة الذرية أو بنهايمر وانتحرت الزه كوخ سفاحة المعسكرات النازية التى تذكرها الهام سيف النصر عندما تحدث عن السفاح المصيلحى .. ثم اختفى الرئيس جمال عبد الناصر . لتحكم حاشيته مصر حتى جنازته سنة ١٩٧٠ .

وهكذا انتهى بسرعة « منطوق الحكم » فى قضية جمال عبد الناصر .. أما حيثيات الحكم فتلى فى مقام آخر !

□□□

وكم شهيد فى اليمن

وكم سبيكة ذهبية ؟!



وكم شهيد في اليمن
وكم سبيكة ذهبية ؟!

من ثلاثين عاما جـــاء الى القاهرة الأديب الكبير سومرست موم . ساعدتنى سكرتيرته الجميلة أن أراه ـــ كانت أسئلتى غير جميلة . أول سؤال : كيف تعمل لحساب المخابرات وانت الكاتب العظيم ؟

هل هـــذه الرعشة فى يديه وفى شفتيه ولسانه غضبا مكتوما . هل هى حيرة بين أن يجيب وبين أن يطردنى . لقد كان مريضا نصف مشلول وكنت صغيرا .. هو الكبير جدا . نظر الى سكرتيرته أن تخرج . قال : لو حدث بركان فى مكان ما من العالم ، وارادت حكومتك أن تبعث أحدا . فهل تبعث بمحام أو رجل جيولوجى .. هل لو انتشر وباء فهل تبعثون بطبيب او برجل بترول .. اذا أرادت حكومتك أن تعرف الرأى العام ، أليس من المعقول أن تبعث أديبا أو مفكرا ؟ !

(١)

تذكرت هذا المنطق عندما تلقينا دعوة من المشير عبد الحكيم عامر لزيارة اليمن . الدعـــوة تسلمناها من المخابرات . وكان وفـــد الأدباء من يوسف السباعى وصالح جودت ومحمود حسن اسماعيل ـــ يرحمهم الله ـــ

ومن د. مهدى عـــلام ونجيب محفوظ وأنا . ولم تـــكن لدينا اية معلومات عن اليمن ، ولا عن القوات المصرية فى اليمن كلها معلومات خاطفة . بدات اسأل واقرأ .

قالوا : اذا ذهبت لا تأكل ولا تشرب . فالأمراض كلها فى اليمن : فى المـــاء .. فى الهواء .. ولولا نبات القات على شعب اليمن ، لمـــات من الوف السنين (؟!) فنبات القات الذى يمضغونه ويستحلبونه يسد النفس ويفتح العين فلا تعرف النوم ، وتجعلهم فى حالة وسط بين القلق والأرق .. وهو الـــذى يقضى على حيوية الرجال فى سن مبكرة .. واشهر الأمراض تجىء من الطفيليات فى المـــاء .. وخاصة « دودة مدينا » أو « الدودة التنين » وهى تتسلل الى الجسم الانسانى عن طريق المـــاء ويصبح طولها مترا ومترا ونصف . وكلها من الاناث أما الذكور فضئيلة جدا ، وتموت مباشرة بعد اللقاح .. واذا دخلت هـــذه الدودة الجســـم استقرت فى الأمعـــاء .. وتتسرب فى الـــدم ، حتى تنتقل الى الخلايا « الضامة » فى الجسم ويقال تخرج من تحت الأظافر ، فاذا قطعتها عادت وخرجت مرة أخرى .. وهكذا أما القوات المصرية فمنتصرة . وقـــد ذهبت الى تأمين النظام الجمهورى ضد حكم الأئمة الفاسد .. ومن اجل ذلك تهون كل التضحيات المصرية .. وقيل تضحيات تافهة من الممـــكن أن تقع فى أية مظاهرة من الطلبة والعمال . واليمن امتداد للثورة المصرية وتهديد لكل الدول القبلية على حدود اليمن .

ذهبت فورا الى الزميلة د. نوال السعداوى وكانت مديرة لمكتب وزير الصحة : ساعدينى !

ــ كارثة ؟!

ــ أريد اسعافات أولية لكل الأمراض التى سوف تصادفنى فى اليمن .

وأعطتنى صـــندوقا يضـــم كل ما هو ضرورى من حبوب واقراص ومساحيق وصبغة يود وليزول وحقن . ومعها ورقة طويلة عريضة لدواعى الاستعمال . وكيف . واحتفظت بنسخة فى جيبى ، اعطيت يوسف السباعى نسخة اذا أراد أن يستعمل « الصندوق السحرى » فى غيابى . وكان السفر من السويس فى احـــدى السفن المصرية التى تنقل الجنـــود ذهابا وايابا . واصطدمت بالباب الحـــديد لغرفتى . وســـال دمى . وانطلقت الى الصندوق السحرى . لقـــد نسيت د. نوال السعداوى ان تكتب ما الذى

يمكن عمله فى حالة الجروح ــ مثل هــذه الجروح . وانطلقت الى القبطان عادل ... وبسرعة التفت حوله وضرب يــده على جبهتى . لقد سد الجروح بالبن . وكان ذلك اعلانا بعدم جدوى الصندوق السحرى وأى دواء آخــر .

قلت : ما معنى هــذا ؟

قال : معناه (وأشار الى البحر) الق بالصندوق فى البحر الأحمر ، فلن نحتاج اليه .. فهناك من الأمراض ما يحتاج الى مائة صندوق كهذا .

وتركت الصندوق السحرى فى الباخرة .

وفى سوق الحديدة وجدنا الناس بملابســهم التى عرفناها أيــام العصر المملوكى فى مصر . العمامة والأحزمة العريضة والخناجر .. والسوق لبيع نبات القات .. أهم ما يتعاطاه أهل اليمن . والوجــوه صفراء والأجسام نحيفة ومعلوماتنا قشــور . ولم نعرف ان كان الذى نراه أمامنا يبعث على الخوف أو الضــيق .. أو كانت محــاولة الحديث أو التفــاهم أو التقارب لها أى معنى .. من المؤكد أن أحدا لم ينظر الينا، ولم يبادلونا هذه الدهشة.

والطريق من الحديدة الى صــنعاء ناعم ، رصــفته حكومة الصين الشعبية . أما صــنعاء فمرتفعة . وكل شىء فيهــا قديم .. وظهرت القوات المصرية . ولم نسمع طلقة واحدة . فأين مكان الحرب .. وللمصريين فى ذلك نكت ــ نكتة واحدة من اختراعى .. وانتشرت وعندما عدت الى القاهرة بادرت بالاعتراف بها قبل أن تستفحل ويضيف اليها المصريون ابعادا سياسية أو يجعلونها خاصة بالزعيم جمال عبد الناصر !

اذن يجب الا نشرب الماء وانما نشرب المياه الغازية المتوافرة فى زجاجات وعلب . لا طعام وانما بسكو مصر والجبنة . لا استحمام وانما اســتخدام القطن المبلل بالكولونيا . وعندما كان يدعونا المشير السلال الى غداء أو عشاء ، كان بعضنا يتظاهر بالمرض حتى لا يأكل : أسوأ طعام فى أفخر الآنية : الأطباق ماركة ليموج والملاعق والشوك ماركة كريستوفل والأكواب ماركة باكارا ..

جلس المرحــوم صالح جودت الى جوار المشير السلال وقال له : نريد بعض هــذه الأطباق والشوك والسكاكين وخصوصا الاكواب تذكارا لهــذه الزيارة !

ولم يفهم الســـلال النكتة . ولم يعلق بشيء . وذهبنا الى قصر الامام احمد .. وتجولنا بين مخلفات القصر .. ووجـــدت نســـخة من « رباعيات الخيام » نشرها صاحب المطاعم الأمريكى الأرمنى تاريان . أهـــدى نسخة منها الى آمام أحمد . النسخة رقم ١٤ .. والقصر منهوب . لم يتركوا فيه الا ملابس السيدات ولعب الأطفال والصناديق والدواليب .

وكان لابد ان نعود الى مصر بعد أن جئنا . ورأينا .وفهمنا . ولابد أن نعود لنساعد الدولة على فهم الأوضاع فى اليمن . فهذا واجب الأديب الى جـــوار صاحب القرار . وكانت سعادتنا بالعودة بلا مرض . وسعادتنا بحمامات المياه وحلاقة اللحية . والجلوس على ظهر الباخرة نأكل الديوك الرومية وصـــوانى البطاطس والمكرونة والحلويات والفاكهة من كل نوع والأحاديث والنكت الأدبية والمطارحات الشعرية بين صالح جودت ومحمود حسن اسماعيل عندما لمحنا ان تحت عيوننا يوجد عـــدد من الجنود والضباط العائدين .. يغسلون ملابسهم ويعلقونها ويأكلون ما لا نأكل ويشربون ما لا نشرب .. والارهاق واضح على الوجوه والعيون لديهم ما لانعرف من الأسرار .. ودعوناهم ليشاركونا الطعام الفاخر والحديث .

وكانت أول صـــدمة لنا فقد تقدم الضباط شاب اسمه النقيب محمد فريد حجاج ــ لـــواء الآن . وشرح لنا الأوضاع السياسية والعسكرية فى اليمن واحتمالات النجاح والفشل . وكانت لديه قدرة هائلة على سرد التاريخ وتحليل الأحـــداث . لقد ضربنا على أدمغتنا وجعلنا نفيق من النشوة الكاذبة.

يا نهار اسود ومنيل : قلناها جميعا فى نفس واحد !

ان هـــذا الضابط قد فضـــحنا أمام أنفســـنا : فلا عندنا معلومات ذهابا وايابا ولا نحن قادرون على أن نقول شـــيئا أو ننصـــح بشيء .. فالصورة عنده غير الصورة عندنا . وهو ضـــابط حارب ومارس ورأى وسمع وقاتل وقتل .

وهى حرب غير متكافئة من جميع النواحى : جيش نظامى يحارب العصابات التى لديها اسلحة وعندها الكهوف والجبال . وعندها الدراية الكاملة ببلادها ودروبها وكهوفها وجبالها . ثم ان الجندى اليمنى يستطيع أن يعيش أياما على حفنة بلح . وكل الجنود المصريين الذين قتلوا ، تكون اصابتهم فى منتصف الرأس ــ الجندى اليمنى لا يخطىء . بل ان الطيارين

الذين أسقطهم القناصة اليمنيون أصابوهم فى منتصف الراس . فالواحد منهم يضع البندقية بين أصابع قدميه . ثم يطلق النار فلا يخطىء .

وفى مدرسة الرهائن فى مدينة صـنعاء رأينا الأطفال يصيبون الأهداف وقد عصبوا أعينهم ؟!

وسمعنا أن القبائل التى تعلن أنها « جمهرت » مساء أى انضمت للحكم الجمهورى الجديد ، تعود الى الوقوف ضـد السلال ومصر .

أما الفلوس التى تدفعها مصر لشـيوخ القبائل فهى ليست بالجنيهات المصرية ولا بالدولارات ، فالقبائل لا يعـرفون الورق — لا يعرفون الا « الظلط » والظلط معناه الفلوس . والفلوس اليمنية ريالات من الفضة . الريال عليه صـورة الأمبراطورة النمساوية ماريا تريزة . ونسبة الفضة فى الريال ٢٨ قمحة ، أما الباقى فمن النحاس — الفضة تجعله لامعـا ، والنحاس يجعله صلبا وهم يحملون فلوسهم فى جوالات ، والبنوك يعطون الفلوس للعملاء على صينية من البلاستيك او النحاس . لأن العملات ثقيلة جدا . ولذلك دفعنا مئات ملايين الجنيهات ذهبـا — نعـم ذهبا نقلناها من البنك الأهلى المصرى حتى أصـبح الجنيـه المصرى عاريا ملطـا لا يساوى وزنه ورقا !

(ملحوظة : لا يعادل الذهب الـذى دفعناه فى اليمن ، الا مادفعناه قبل ذلك من الدولارات فى سوريا) !

وكنت قد عرفت من رجالات اليمن فى مؤتمر الادباء فى بلودان الزعيم اليمنى احمد النعمان ، رئيس الوزراء ونائب رئيس الجمهورية بعد ذلك ، ثم اللاجىء السياسى الى السعودية ومصر .. وهو رجل خفيف الظل طويل اللسان . واذا جلست اليه روى لى شعرا طويلا عن شاعر اسمه الزبيرى . وكنت أعتقد أن الزبيرى شاعر لا وجـود له . وانه هو الذى ينظم هذا الشعر . وفاجأنى بالشاعر الزبيرى . فهو حقيقة .

وهو من أعظم شـعراء اليمن . وفى مؤتمر الأدباء فى بلودان كان الأستاذ النعمان شخصية لامعة مقلقة . فهو لا يكف عن رواية شعر الزبيرى ، وعن مهاجمة الامام أحمد — فلم تكن ثورة اليمن قد وقعت . وكان يوسف السباعى ينبه الىَ عـدم مهاجمة الامام احمد ، ولكنه كان يحتال على ذلك .

وفى احدى الليالى القمرية فى بلــودان وقف النعمان يلقى قصائد للشاعر الزبيرى . وكانت كلها تبدأ هكذا :

مشانق علقت :

وكان يوسف السباعى يرجوه أن يكف . فكان يرد عليه : ولكننا فى اليمن نبدأ كل شىء بالمشانق .. الأكل والشرب والنوم .. والامام عندما يذهب للصلاة وعندما يفرغ منها .

وكان يقول : كان فى اليمن ستة من القراء ، قتل الامام خمسة ولم يبق ســـواى .. الخ .

وعندما اطلق الروس قمرا به كلبة الى الفضـــاء الخارجى فاجأنى الأستاذ النعمان فى ساعة مبــكرة من الصــباح : يا سيدى الصحف عناوينها الحمراء عن الروس الذين اطلقوا قمرا به كلبة الى الفضاء .. بينما لم أقرأ سطرا واحدا عن أن الامام احمد الذى ارسل ابنه « البدر » ومعه خمسة « خيول » الى بريطانيا ؟ !

وكان سريع البديهة حاضر النكتة ، تســـعفه الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والشعر .. وطال لسانه على الرئيس جمال عبد الناصر الذى يساند السلال الذى يرفضه الشعب اليمنى كله !

وفى يـــوم استدعاه الرئيس عبد الناصر . وقدم له الرئيس علبة من الشيكولاته . وطلب اليه أن يفتح الشيكولاتة ويقرأ ما فيها من بخت . وأخرج الأستاذ النعمان الورقة المكتوب عليها البخت وقدمها للرئيس . الورقة تقـــول : عدو عاقل خير من صـــديق جاهل !

وضحك الرئيس . ومد الرئيس يده واختار شيكولاتة وقرأ وضحك : اتق شر من أحسنت اليه !

وفجأة غاب الأستاذ النعمان فى السجن دون محاكمة . وبعد تسعة شهور ليكتشف أن الشاعر الزبيرى كان فى الزنزانة المجاورة . ونظم النعمان أول قصيدة فى حيـــاته . وكانت من أروع وأعنف ما نظم أحد فى الرئيس جمال عبد الناصر !

وكما بدأت حرب اليمن غامضة انتهت كذلك . فلا احد يعرف لمـــاذا ذهبنا ؟ ولماذا ضحينا بسبعين ألفا من الجنود والضباط ؟ ولا كم دفعنا

ولا كم اقترضنا ؟ ولا كيف ولماذا عدنا ولماذا لا نقدم الحساب حتى الآن .. ولا تساءل احد عن شيء من كل الذى حدث .. وانما اختفت هزيمة اليمن فى هزيمة الانفصال فى سوريا فى النكسة . واصبحت حرب اليمن هى « الحرب المنسية » أو التى يجب نسيانها !! وكانت حرب اليمـــن نموذجا للفوضى والاستبداد ومحاولة المستحيل جوا وبرا ، عسكريا وسياسيا .

ودخلت حرب اليمن ضمن التهم الظـــالمة التى وجهت الى الرئيس جمال عبد الناصر :

فأنور السادات هو المسئول عن هزيمة اليمن ، وحافظ الأسد مسئول عن الانفصال ، وعبد الحكيم عامر هو المسئول عن نكسة يونيو ، والسادات مسئول عن هزيمة اكتوبر سنة ١٩٧٣ ــ فقد قال « الناصريون » : ان خطة حرب أكتوبر قد وضعها عبد الناصر ــ فهو الذى انتصر عسكريا ،والسادات انهزم سياسيا .. أى كل الحروب التى حضرها عبد الناصر قد انهزم فيها، ولكنه انتصر فى الحروب التى غاب عنها ــ اى انهزم حيا ، وانتصر ميتا ؟!

ولكن الشيء المؤكد : اننا خسرنا الوف ملايين الجنيهات وسبعين الف شهيد .. واننا قتلنا عشرات الألوف من اليمنيين . نقتلهم ونعطيهم « بسكو مصر » ولشيوخهم الذهب .. بينمـــا الروس يقدمون لهم الأرز والأفـــلام السينمائية .. اما اسرائيل فقد نقلت يهود اليمن معززين مكرمين . لم يمت منهم واحد .. قدمت لهم السرير الذى كانوا ينامون تحتـــه ، قدمت لهم السكاكين ليأكلوا بها فكانوا يضعونها حول خصورهم .. يوم رفض يهود اليمن ان يركبوا الطائرة قراوا عليهم آيات من التوراة تقول : ويوم يجيئون على أجنحة النسور .. والنسور هى الطائرات . فركبوا . وفى داخـــل الطائرة اشعلوا نارا للتدفئة — لقد حملوا معهم الحطب للتدفئة . ولكن احدا من يهود اسرائيل لم يقتل أحدا من يهود اليمن !

(٢)

ولم تعرف الأمة العربية من المحيط الى الخليج وفى المهجر فى أمريكا واستراليا وكندا منشورا عنيفا كالذى تناقلناه سرا من نظـــم الشـــاعر نزار قبانى . انها قصيدة بعنوان :

« هوامش على دفتر النكسة » وجهها الى « السلطان » عبد الناصر .. لقد كانت فى كل جيب .. فى كل بيت .. فى كل صحيفة ومجـــلة عربية .

اعنف واقسى وافضح وافدح ما عرفت الأمة العربية . يقول :

أنعى لكم ، يا أصدقائى ، اللغة القديمة
والكتب القديمة
أنعى لكم :
كلامنا المثقوب كالأحذية القديمة
ومفردات العهر ، والهجاء ، والشتيمة ..
انعى لكم ..
انعى لكم ..
نهاية الفكر الذى قاد الى الهزيمة
مالحة فى فمنا القصائد
مالحة ضفائر النساء
والليل ، والأستار ، والمقاعد
مالحة امامنا الأشياء ..
يا وطنى الحزين
حولتنى بلحظة
من شاعر يكتب شعر الحب والحنين
لشاعر يكتب بالسكين ..
لأن ما نحسه
اكبر من أوراقنا ..
لابد ان نخجل من اشعارنا
اذا خسرنا الحرب ، لا غرابة
لأننا ندخلها
بكل ما يملكه الشرقى من مواهب الخطابة

بالعنتريات التى ما قتلت ذبابة
لاننا ندخلها
بمنطق الطبلة والربابة ..
السر فى مأساتنا
صراخنا أضخم من اصواتنا
وسـيفنا ..
أطول من قاماتنا ..
خلاصة القضية
توجز فى عبارة
لقد لبسنا قشرة الحضارة
والروح جاهلية ...
بالناى والمزمار
لا يحدث انتصار ...
كلفنا ارتجالنا
خمسين الف خيمة جديدة ..
لا تلعنوا السماء
اذا تخلت عنكم
لا تلعنوا الظروف
فالله يؤتى النصر من يشاء
وليس حدادا لديكم
يصنع السيوف ..
يوجعنى أن اسمع الأنباء فى الصباح
يوجعنى ..

ان أسمع النباح ..
ما دخل اليهود من حدودنا
وانمـــا ..
تسربوا كالنمل من عيوبنا ..
خمسة آلاف سنة ..
ونحن فى السرداب
ذقوننا طويلة
نقودنا مجهولة
عيوننا مرافىء الذباب ..
يا أصدقائى :
جربوا ان تكسروا الأبواب
ان تغسلوا أفكاركم
وتغسلوا الأثواب
يا أصدقائى :
جربوا ان تقراوا كتاب ..
ان تكتبوا كتاب ..
ان تزرعوا الحروف ..
والرمان ..
والأعناب ..
ان تبحروا الى بلاد الثلج والضباب
فالناس يجهلونكم ..
فى خارج السرداب
الناس يحسبونكم

نوعا من الذئاب ..
جلودنا ميتة الاحساس
ارواحنا تشكو من الأفلاس
أيامنا تدور بين الزار ..
والشطرنج ..
والنعاس ..
هل (نحن خير امة اخرجت للناس) ؟؟
لو أحد يمنحنى الأمان
لو كنت استطيع أن أقابل السلطان
قلت له :
يا سيدى السلطان
كلابك المفترسات مزقت ردائى
ومخبروك دائما ورائى ..
عيونهم ورائى ..
أنوفهم ورائى ..
اقدامهم ورائى ..
يستجوبون زوجتى ..
ويكتبون عندهم أسماء أصدقائى ..
يا حضرة السلطان
لأننى اقتربت من أسوارك الصماء ..
لأننى حاولت أن أكشف عن حزنى وعن بلائى
ضربت بالحذاء ..
ارغمنى جندك أن أكل من حذائى ..
يا سيدى .. يا سيدى السلطان
لقد خسرت الحرب مرتين
لأن نصف شعبنا ليس له لسان
ما قيمة الشعب الذى له لسان ؟

لأن نصف شعبنا محاصر كالنمل والجرذان
فى داخل الجدران ..
لو احد يمنحنى الأمان
من عسكر السلطان
قلت له : يا حضرة السلطان
لقد خسرت الحرب مرتين
لأنك انفصلت عن قضية الانسان
لو اننا لم ندفن الوحدة فى التراب
لو لم نمزق جسمها الطرى بالحراب
لو بقيت فى داخل العيون والأهداب
لـمـا استباحت لحمنا الكلاب ..
نريد جيلا غاضبا
نريد جيلا يفلح الأفاق
وينكش التاريخ من جذوره
وينكش الفكر عن الأعماق
نريد جيلا قادما مختلف الملامح
لا يغفر الأخطاء .. لا يسامح
لا ينحنى .. لا يعرف النفاق
نريد جيلا ، رائدا ، عملاق ..
يا أيها الأطفال :
من المحيط للخليج ، انتم سنابل الآمال
وانتم الجيل الذى سيكسر الأغلال
ويقتل الأفيون فى رؤوسنا

ويقتل الخيال ..
يا ايها الأطفال :
أنتم — بعد — طيبون
وطاهرون ، كالندى والثلج ، طاهرون
لا تقرأوا عن جيلنا المهزوم ، يا أطفال
فنحن خائبون
ونحن : مثل قشرة البطيخ ، تافهون
ونحن منخورون ..
منخورون كالنعال ..
لا تقرأوا أخبارنا
لا تقبلوا أ[illegible]ارنا
لا تقتفوا آثارنا
فنحن جيل القيء .. والزهرى .. والسعال
ونحن جيل الدجل ، والرقص على الحبال
يا أيها الأطفال :
يا مطر الربيع ، يا سنابل الآمال
انتم بذور الخصب فى حياتنا العقيمة
وأنتم الجيل الذى سيهزم الهزيمة !

(٣)

وتلقيت من الصديق والفنان الكبير مدحت عاصم :

اسمح لى أن أصحح ما كتبته فى مقالك المعنون « البطل » فى عـــدد اخبار اليوم الصادر بتاريخ ١٩٨٧/٣/١٤ بأن الفريق عزيز باشا المصرى قال ، وهو فى المستشفى عقب أن زاره أعضاء مجلس قيادة الثورة : ان هؤلاء الشبان سوف يخربون مصر .

والحقيقة أن الفريق عزيز باشا كان بمثابة الأب الروحى لشباب ضباط الجيش الثوريين ولم يكن منطقيا أن يتهم ابنـــاءه بقوله هذا . ولكن عبارته التى قالها كانت عن « جمال عبد الناصر » فقط وكان محمد نجيب حاضرا ..

اذ قال بعد انصرافهم : « ان هذا الرجل الأصفراوى » ــ يقصــد جمال عبد الناصر ــ سوف يعطى خازوقا ــ واشــار بأصـبعه ــ لهذا الرجل الطيب ــ يقصد محمد نجيب ــ وسيستولى هو على الحكم ، ومصر حتروح فى داهية .. سوف .. يخربها ..

واشهد انى ومن كان معى قد صدمنا هذا القول فقد كنا جميعا فرحين بهذه « الحركة » متوقعين الخــير منها لبلدنا .. ولم نكن نعلم ما تخبئــه لنـــا الأيام .. !

ولم يكن الفريق عزيز باشا المصرى ليطلق الحكم على هؤلاء الشبان وكان فيهم « أنور الســـادات » والذى كان بمثـــابة الابن المقرب منه .. رحمهم الله جميعا .

أرجو أن تصوب عباراتك ملتزما أمانة التاريخ .. مع تحيتى ..

(٤)

وجاء من د. صلاح رواى أستاذ النحو والصرف بكلية دار العلوم ــ جامعة القاهرة :

ورد بمقالكم الرابع عن « عبد الناصر المفترى عليه والمفترى علينا » المنشور بجريدة « أخبار اليوم » بتاريخ ١٩٨٧/٣/٧ تحت عنوان « ولكن لا حياة لمن تنادى » تساؤل من جانبكم تقول فيه : فبالله عليك ما الذى يشعر به انسان يذهب للصلاة فى مسجد عبد الناصر وهو يعلم أن صاحب الضريح لا يؤمن لا بالمسجد ولا بالسجود ولا برب هذا البيت ؟ !

ولمـــا كنت من ابناء حى حدائق القبة ، وقد عاصرت بناء هذا المسجد الذى يدعى ــ زورا وبهتانا ــ انه مسجد عبد الناصر . فانى أرى أنه من واجبى واحقاقا للحق أن اضع بين يديك الحقيقة برمتها فى صحة نسبة هذا المسجد الى عبد الناصر من عدمه ، وهذه شهادة أحاسب عليها أمام الله تعالى يوم تقوم الساعة ، والله على ما أقول شهيد :

فقد شهدنا هذه القطعة من الأرض التى أقيم عليها المســـجد وهى تسوى وتعد للبناء وبسؤالنا علمنا ان اللواء شرطة مصطفى الشـــعراوى رئيس جمعية كوبرى القبة الخيرية ومكانها خلف محطة بنزين كوبرى القبة قد تقدم بطلب للسلطات المسئولة لمنح الجمعية قطعة الأرض هذه لبناء مسجد عليها بالجهود الذاتية من التبرعات التى يقدمها اعضـــاء الجمعيـــة وانه

سيتحمل شخصيا قسطا وفيرا من نفقات البناء .. واقيم المسجد بوصفه الحالى من دورين : الأول خدمات عامة عبارة عن مستوصف للعلاج ، ومشغل ، ومعهد تفصيل ، والدور الثانى مسجد ومكتبة عامة ، وتولى اللواء مصطفى الشعراوى امامة المصلين والقاء خطبة الجمعة والعيدين به بعد أن تم افتتاحه بمعرفة الشيخ شلتوت شيخ الأزهر آنذاك — وكنت ضمن الحاضرين — وظل الأمر على هذا الوضع لسنوات طويلة ، وكانت تعلق عليه لافتة كبيرة تحمل اسم « جمعية كوبرى القبة الخيرية » .

ثم فوجئنا بموت عبد الناصر . وان المسئولين لم يحسبوا لذلك حسابا ولم يخصصوا المكان اللائق ليكون ضريحا للفقيد ، فاستقر رأيهم على أن يكون ذلك المسجد ضريحا له . وتم لهم ما أرادوا ، ومن يومها تنحى اللواء مصطفى الشعراوى عن الامامة والخطابة ، وعين له امام وخطيب جديد ، وانتزعت ملكية جمعية كوبرى القبة الخيرية ودخل المسجد فى حوزة الدولة ليطلق عليه اسم « مسجد عبد الناصر » .

ولعل القول المشهور « مسجد سيدى المفترى » سببه انه قد استولى عليه افتراء وغصبا دون وجه حق .. ولذا وجب التنويه .. والله على ما أقول شهيد .

(٥)

وجاءنى من مهندس زراعى على على العزبى . وكيل وزارة الاصلاح الزراعى سابقا .

أصدقك القول اننى اعتزمت ان ابعث اليك برسالتى منذ بدات أقرأ مقالاتك ، فى مثل هذا اليوم من ٢٥ عاما ، فقد كان اعجابى شديداً بما سطرته من وقائع وما استخلصته من اقوال الفلاسفة خلال المحنة التى المت بك .. ثم جاءت مقالاتك « عبد الناصر المفترى عليه والمفترى علينا » آية من آيات البلاغة ولوحة معبرة عن فترة من أهم فترات التاريخ التى مرت بنا وخاصة امام المخضرمين أمثالى ممن جاوزوا الحلقة السابعة من اعمارهم .. ومرت عليهم او مرت بهم مواكب العهد الملكى ثم ثورة يوليو وما تبعتها وصاحبتها من حوادث واحداث ؟ !

ولكنى لم أستطع بعد ان انتهيت من قراءة الحلقة الرابعة الا ان امسك بالقلم لأسطر لك تعليقا او تأكيدا لمـــا جاء بمقالك من ان « الغيبوبة » الأولى

التى اصابت جمال عبد الناصر كانت بعد الوحدة مع سوريا حيث قلت « انه بها ارتفع وابتعد عن الناس وتعالى على المصريين ثم على السوريين واصبح مشغولا بما يقال عن مجده وعظمته » فاذا سمحت لنفسى ان أؤكد لك هذه الظاهرة فلأنى كنت واحدا من شهود العيان عليها .. ذلك انه عقب صدور قانون الاصلاح الزراعى لسوريا .. شكلت بعثة من هيئة الاصلاح الزراعى فى مصر لمتابعة تنفيذ القانون فى الاقليم الشمالى « سوريا » وكنت انا وكيلا لهذه البعثة وكان يراسها المهندس محمد عزت عبد الوهاب وكيل وزارة الاصلاح الزراعى .. وقضت البعثة ثلاثة اشهر تشرف على تنفيذ القانون وتعالج ما اعتوره من ثغرات وضعها حزب البعث عن قصد لتكون أول اسفين فى هيكل الوحدة وبداية النهاية لهما ..وهذه تفاصيل كثيرة ليس هذا موضعها لأنها ستكون ضمن كتاب اعكف على الانتهاء منه قريبا باذن الله كواحد من شهود العصر منذ عام ١٩٥٢ عندما تسلمت عملى كأول مدير للاصلاح الزراعى فى الدقهلية وحتى عام ١٩٧٢ وهو تاريخ تقاعدى .. يوم أن كنت وكيلا لوزارة الاصلاح الزراعى ..

واعود للصورة التى رسمتها فى مقالك عن الغيبوبة الأولى للرئيس جمال عبد الناصر بعد الوحدة مع سوريا فقد شاهدت الاستقبالات الحافلة والمظاهرات الحاشدة التى كانت تغمر جماهير الشعب السورى وهى تستقبل الرئيس بما لم يكن يتصوره احد .. أملا فى تحقيق وحدة العرب التى طالما حلموا بها وسعوا اليها ..

واذا كنت اتفق معك فيما ذهبت اليه من انه تعالى على المصريين ثم على السوريين واصبح مشغولا بما يقال له عن مجده وعظمته ـــ فانى أود أن اضيف أن ما رآه من ترحيب من الشعب السورى لم يقف عند التعالى على المصريين بل فى يقينى أنه غرس فى نفســــه احتقارا لهم وحقدا عليهم ومرارة منهم لانه لم يجد فيهم هذا التقدير والترحيب ودليلى على ذلك هذه القرارات الاشتراكيةالتى صدرت فى شأنالمصريين عقب الانفصال مباشرة ؟! ولم يكن لهم فى هذا الانفصال من ذنب جنوه ؟ !

ولعلى هنا أسمح لنفسى ان أضيف واقعة سمعت بها من رجل شهد له الجميع بالأمانة والصدق . وهى ما نقل للرئيس عبد الناصر عن الشيخ الباقورى رحمهما الله انه فى احد مجالسه يوم أن كان مبعدا بعد عزله من وزارة الأوقاف والاشاعات التى احاطت به .. قال عن عبد الناصر وعـــدم

تقدير الشعب له العبارة المأثورة : لا كرامة لنبى فى وطنه .. فلما نقلت هذه العبارة للرئيس عبد الناصر فك قيده وأعاد له كرامته ونصبه فيما أظن رئيسا لجامعة الأزهر ؟ !

بقى بعد هذا رجاء لى أن تعيد قراءة الخطــاب الذى القــاه جمال عبد الناصر عقب النكسة وهو يتحدث عن الخسائر التى لحقت بنا وعن عدد الشهداء الذين استشهدوا فى الحرب وعن المعدات التى اســتولت عليها اسرائيل ؟ !

وبعد أسطر قليلة من هذه المآسى وفى نفس الخطاب يقول « واذا نفذت اسرائيل القرار ٢٤٢ يبأه ما خسرناشى حاجة » ؟ !

بالله عليك كيف تكون بعد هؤلاء الشهداء الذين لم تخل أسرة فى مصر من شهيد منهم ..

وهذه النكبة التى لم تر مصر مع تاريخها الطويل مثيلا لها وعلى فرض التزام اسرائيل بالقرار ٢٤٢ .. « يبأه ما خسرناشى حاجة » .

أنا واثق من أن هذه العبارة تحتاج الى محلل نفسى ليشرح لنا أبعادها واغوار قائلها ولهذا فأنا احيلها عليك فأنت اقدر من أعرف من المحللين النفسيين . والسلام عليكم ورحمة الله .

(٦)

حدث كثيرا فى التاريخ أن راجعت الشعوب رجالها وقادتها والذين أصلحوها والذين ضللوها .

فمن حق الشعوب أن تنظر وراءها فى غضب ، وأن تنظر امامها فى أمل .

فالسوفيت ، وهم أساتذة التفسير المادى للتاريخ ، والكافرون بالبطل وبعبادة الانسان قد هدموا ابطالهم بعد أن كشفوا كذبهم .

فماذا حدث للرجل الذى أعلن انه نصف اله ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ـــ ماذا حدث لستالين ؟

ستالين حكم روسيا من ١٩٢٩ حتى سنة ١٩٥٣ حتى وفاته . ولكنه

قبل ان يموت نهض ببلاده نهضة صناعية وأغلق الأبواب باحكام على روسيا كلها وربط الأدباء والشعراء والفنانين بالسلاسل والحديد والنار .. وقتل خمسة ملايين روسى . وجعل من نفسه أعظم عظماء التاريخ الثورى فى روسيا .

وفى سنة ١٩٥٦ اعلن خروتشيف خليفته فى الحكم تجريد ستالين من كل الصفات التى اعطاها لنفسه . فليس الا سفاحا دمويا فأزال اسمه ورسمه من الكتب ودوائر المعارف وازال صوره وتماثيله .

وقامت معارضة عنيفة ضد خروتشيف وكان من رايهم : وايه يعنى.. نفرض ان ستالين كان سفاحا وارهابيا ، لقد كانت مرحلة ضرورية من اجل بقاء الحكم ضد التيارات الانحرافية التى تهب على روسيا من داخلها وخارجها — وهذا ما قاله الشيوعيون المصريون عن عبد الناصر ايضا الذى عذبهم ومسح بهم ارض سجون مصر — وثاروا على خروتشيف واسقطوه سنة ١٩٦٤ . وكان خروتشيف قد فشل فى قضية الصواريخ الكوبية ضد كيندى .. وفشل فى مواجهة التمرد الصينى .. ثم أنه فضح الشعوب السوفيتية كلها يوم ذهب للأمم المتحدة وخلع حذاءه وراح يدق المنصة — ورأى العالم كله فلاحا فظا يحكم نصف الكرة الأرضية .ويهدد النصف الباقى!

وتركوه يموت فى احدى الحدائق بعد أن مسحوا اسمه وازالوا رسمه من كل الكتب والمتاحف . ولما مات دفنوه فى مقابر الفقراء .

وجاء من بعده برجنيف الذى توفى سنة ١٩٨٢ فقد استولى على كل السلطات التى يمكن أن ينالها اى أحد فى روسيا : رئيس الدولة ورئيس الرياسة وسكرتير الحزب ورئيس الجيش — آخر الزعامات الشاملة فى التاريخ كله .

والآن يجرى الاعداد والاستعداد لمسح اسمه ورسمه أيضا للجرائم التى اقترفها فى حكمه الطويل .

والصين حطمت معبودها والصنم العظيم « ماو » .. وشردت زوجته، وكثيرا من الدراويش .

طبيعى ان يغضب بعض النـــاس اذا صـــدموا فى الزعيم جمـــال عبد الناصر .. فلم يعرفوه طاغية ولا معذبا ولا قاتلا لمئات الألوف من ابناء وطنه بلا قضية ، ومبددا الوف الملايين من الجنيهات فى حروب شخصية — من اجل كبريائه والصـــورة المزيفة التى كانوا ينقلونها اليـــه ، عن عبادة الشعوب له . كل الشعوب .

تماما كما تفاجأ انت ايضا بان الرجل الذى اعتقدت طول عمرك انه ابوك . ليس اباك .. انه تبناك — اى انك لقيط .. ابن حرام — صدمة فظيعة رايناها كثيرا فى الأفلام المصرية !

طبعا صدمة مؤكدة !

والذين ولدوا من عشرين عاما او ثلاثين عاما ، ما الذى يعرفونه عن الذى حدث فى مصر .. انهم قراوا الكتب التى الفها عبد النـــاصر تمجيدا لشخصه ، وتركها السادات كما هى .. ولكن فتحت عيونهم على صعوبات مصر فى ايام السادات — أكثرها قد تولدت بسبب الحروب الفادحة الثمن. التى كسرت وسط مصر . عنقها ونكست كرامتها واطالت يديها تقترض من كل الشعوب .. لم يعايشوا السبب ولكنهم عايشوا النتيجة .. عايشوا الطبيب الذى حاول ان يعالج مضاعفات المرض والمرض .

فعندما كانوا صـــغارا لم يعرفوا ما حـــدث ، ولا كيف حدث . عندما صاروا كبارا سمعوا عن الذى حدث ولكنهم عايشوا المصاعب والمشاكل والكوارث .. وهم حريصون على حلها . وليس أمامهم الا الحاكم هو وحده الذى يحل ولا يهمهم كثيرا ان كان هو السبب، او كان هو الوارث للكوارث — ولذلك كان من الطبيعى ان تصدمهم الحقيقة .

ثم اننا نقدس « الأولياء » — اولياء السياسة واولياء الدين ، والذين لا ولاية ولا ولاء لهم .. وانما يكفى ان نجدهم كبارا ، فنجعلهم اكبر ، وان ندور حولهم ، ونلقى بهمومنا عند ابواب اضرحتهم !

لقد اكتشفت د. البهى وزير الأوقـــاف الأسبق ان ٧٥٪ ممن نسميهم « اولياء » الله الصالحين . ليسوا كذلك .. بل بعضهم لصوص وقطاع

طرق وأناس عاديون اقاموا لأنفسهم هذه الأضرحة وتكفل الناس الطيبون بالباقى — من اختراع قصص المعجزات والبركات .. فهم يشــفون من المرض وهم يولدون العاقر ، وهم يجبرون الخواطر وهم يقضون الحوائج وهم ينجحون فى الامتحانات ! وكلنا يعرف ذلك !

وقد خطر « لأخبار اليوم » فى ذلك الوقت أن تدفن حمارا ونقيم عليه ضريحا .. ونترك الناس . ثم نصدمهم بالواقع — وعدلت عن هذه الفكرة العلمية . فالناس احرار يختارون ما يريحهم . واكذوبة مريحة ، خير من حقيقة موجعة !

(٨)

وقام المرحوم الزميل عبد العاطى حامد — الشــيخ عطعوط — بهذه التجربة ، فارتدى ملابس واحد من هؤلاء الذين يتظاهرون بتحقيق المعجزات، والتف حوله الناس الطيبون ودفعوا مالا كثيرا .

فلدى الناس الطيبين من الشيوخ والشبان مثل هذا الاستعداد لتصديق من يدعى القدرة الخارقة ، ومن يحاصر الناس ببركاته ومعجزاته .

ولذلك يعتمدون عليه .. ويجعلونه وسيلة بين الأرض والسماء ..

شىء من ذلك شعر به بعض الناس أمام الزعيم جمال عبد الناصر . صدقوه . وعندما انهزم فى كل مجال ، لم يصدقوا انه هو الذى انهزم ، وانما الأصــدقاء هزموه .. وعندما عــذب وذبح ، قالوا : الذين حوله .. وفى غياب من رحمته ..

ومن الصعب على من اقام فكره وشخصيته على عبــادة البطل ، ان يقبل من أحد أن يقول له : لقد كنت ساذجا عبيطا مغفلا !

ولذلك كان التمسك به رغم كل ذلك ، حرصا على الكرامة وماء الوجه بين الأصحاب والأقارب .. !

ومن فضل الله تعالى على الاسلام فى مصر ، بلد الأزهر الشريف والوف المساجد ومئات الألوف من الدعاة وملايين المؤمنين ، ان أحدا من اهل البيت

لم يمت أو دفن فى مصر .. ومن فضـــل الله العظيم انه لا احد من الخلفاء الراشدين قد مات ودفن فى مصر — او حتى اشيع ذلك !

فلو حدث لجعل المصريون ضريحه كعبة تشغلهم عن الكعبة !

ففى مصر أولياء لم يدفنوا هنا — سيدنا الحسين مثلا — ولا يوجد اى دليل على أنهم دفنوا ، أو اى شىء من أجسادهم الطاهرة . ومع ذلك فأنت ترى ما الذى يفعله المصريون !

وهذه العصا التى يمسكها حراس قبر الرسول — لا يصح ان تقول مسجد الرسول — انما يضربون بها المصريين الذين يقبلون الحديد والنحاس والحجر . وهذا حرام . ففى ذلك وثنية يرفضها الوهابيون السعوديون . ولكن المصريين يصرون على أن يفعلوا ذلك ، ولو كان الضرب بالكرباج — ولا يزالون يصرون على أن يفعـــلوا ذلك لمن ضربهم بالكرباج والحـــديد والنـــار والعار ؟ !

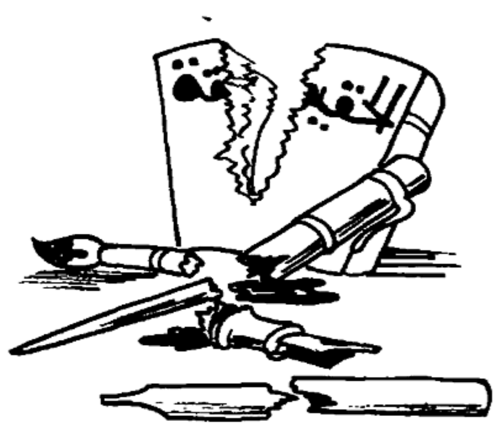
(٩)

اخيرا .. لابد أن أناقش موضوعيا ماذا حدث وكيف ولماذا وأى ثمن .. ما للرئيس جمال عبـــد الناصر ، وما عليـــه .. فالذى له كثير ، والذى عليه أكثر ..

□□□

تحريف الحاضر لبناء الماضي

مأساة!



تحريف الحاضر لبناء الماضى مأساة !

التاريخ هو مسرح الارادة الانسانية من أجل أن نتحرر من الخوف والجوع والمرض والجهل والظلم .. من أجل المزيد من الحرية ..

ولكننا أوقفنا التاريخ . جعلناه الماضى فقط . فلا حاضر ولا مستقبل، واخترنا من الماضى أتعس ما فيه .. واستوقفنا التعاسة وأقمنا مناحة كبرى على الذى اصابنا .. فهل ذهبنا الى ما بعد النكسة العسكرية ؟ نعم قليلا جدا .. فقط لكى نراها أوضح . ثم نعود اليها نبكى الذى كان والذى ما يزال يهد كيان مصر من أولها لآخرها .. فأقمنا السرادقات نتلقى فيها العزاء .. نعزى انفسنا فى أنفسنا .. نمد اليد اليمنى نشد على اليد اليسرى .. نطوى عقولنا على قلوبنا ونقول : منه لله الذى كان السبب .. ولا يزال السبب !

— هل نقول عليه العوض ؟

— نعم . قلها ولا تخف !

فقد ضاع الكثير . ولا عوض الا فى وجه الله . أما الذى ضاع ، فهو

« النظرية الفلسفية » أى الرؤية لحياتنا .. كيف نفكر كيف نعمل .. كيف ننجو من الخسائر المتلاحقة .

ــ هل نعلن افلاس الفلسفة السياسية والاجتماعية والأخلاقيــــة التى يجب أن نعيش وفقا لها ؟ هل نقول اننا استنفدنا عدد مرات الرسوب .. ولذلك يجب أن نبحث لنا عن مكان آخر تحت الشمس أو تحت الأرض أو عن طريق آخر .. أو عن نظرية أخرى !

ــ نعم . قلها ولا تخف !

فما الذى أضاع من أقدامنا الطريق .. ما الذى اضاعنا من انفسنا ؟ انه فهمنا الخاطىء للتاريخ ..

وأمام النكسة العسكرية التى امتصت حاضرنا عشرين عاما وعشرين أخرى سوف تجىء ، استراح بعض الناس ..

استراح بعض الناس فقد وجدوا ينبوعا لا يجف من الحزن والأسى .. وعذرا قويا لأن يتوقف كل شىء عن الحركة .. فقد سقطنا جميعـــا فى مستنقع الهوان والذل والشلل . أصبحنا مثل سفن « الف ليلة وليـــلة » التى شدتها جزيرة المغناطيس .. فسحبت مسامرها وأعوادها الحديدية .. فاذا هى الواح خشبية .. واذا قادة السفينة وملاحوها مثل ركابها غرقى فى بحـــر الدموع !

واستراح دراويش النكسة العسكرية الى التفاف الناس حولهم والبكاء فى حلبات الذكر .. واذا بهم يقدسون أبطال النكسة القادرين على توحيد الأمة المصرية والأمم العربية فى يونيفورم أسود .. فى فعل واحد هو البكاء .. ورد فعل واحد هو محاربة كل من يحاول سحبهم من الحداد الأبدى وضرب النفس بالجزمة .. والدراويش يرون فى هذه القدرة الفذة على توحيد الزى واداء نشيد قومى وهتاف واحد : بالروح بالدم نفديك يا جمال .. بغبغنات تفدى من قتل مئات الألوف وشرد مئات الألوف ومحا حاضر ومستقبل مصر وجعل ماضينا ممتدا .. واوقف التاريخ وهدم المسرح والمعبد على رؤوسنا كشمشون الجبار .. ومثل رومولوس العظيم آخر اباطرة روما الذى قرر أن يصفى الجيش وأن يحاكم الامبراطورية وأن يدينها . وأن يدخل الشعب كله فى قفص الاتهام لـــماذا ؟ لأنه قرر أن يحاكم الناس وأن يدين التاريخ قبل أن يحاكموه ويحكموا عليه ! .

ثم اننا أوقفنا التاريخ مرة أخرى عندما صدقنا ما قاله عبد الناصر من انه اشتراكى ، وان اشتراكيتنا نابعة من ذاتنا — أى أنها شىء جديد لم نعرفه ولم يجربه أحد من قبل . كيف ؟ أسألوه .

وجاء من بعده السـادات يبحث عن ذاتنا .. فاستعصى عليه أن يفلت من الاشتراكية الذاتية ، أو أن يجد هذه الذات .. حتى انتصارات اكتوبر سنة ١٩٧٣ لم تفلح بكل عظمتها وجلالها أن تهون علينا الهزيمة .. وانما جاءت مثل جاكتة جديدة أنيقة على جسد مقطوع الذراعين .. انها تسترت على الخسارة الفادحة ، ولم تعوضنا عنها !.

احسن ما قيل فى هذا المعنى ما قاله توفيق الحكيم عندما سألته ونحن فى جنازة ولده الوحيد : وكيف حالك يا سيدى ؟.

قال الحكيم ، وهو حكيم فعلا : ولا حاجة .. انها عاهة أصابتنى ، وسوف أعيش بها !.

وكانت نكسة سنة ١٩٦٧ عاهة مصر ولا نزال نعيش بها .. وان كانت هذه العاهة ما تزال أكبر منا ، بل نحن عاهة تعيش بها هذه النكسة.. فهى ما تزال الأقوى !..

ومما يؤسف له حقا أن العسكريين قد اعتصموا بالصمت عن تصحيح الاخطاء أو توضيح الحقائق . هل لأنهم لا يقدرون ؟ هل لأنه لا يصح لهم أن يقولوا شيئا .. هل لأن عندهم قانونا يمنعهم من الخوض فى السياسة ؟ وكلها اعذار .. فليس اسهل من ان يعطوا المـادة العلمية والتاريخية لأى كاتب أو مؤرخ فيروى لنا ما هو صحيح . وينفى عن حاضرنا ما هو كذب وتضليل وتهويش وتخريف ووثنية !.

ثم ان قادة اسرائيل جميعا قد كتبوا مذكراتهم وأوضحوا وفضحونا فى كل اللغات .. أما نحن ، فالعسكريون لا ينطقـون وهواة التاريخ ودراويش النكسة يكتبون ويكذبون ويقدسـون الخطيئة الأولى فى عصرنا الحديث .. وضاع الماضى وضاع الحاضر وارتبكت عقول الشباب بين الذى يصدقونه وبين الذى لا يصدقون.. وضلت عقول وقلوب الشباب .. فقد تكومت أمامها الأحجار وامتدت ايديها الى الأحجار تريد أن ترجم عبد الناصر أو منظمة التحرير الفلسطينية أو اسرائيل .. أو القومية العربية — اما السادات فقد اغتالوه ..

والأحجـــار ما تزال فى كل مكان .. والملايين تبحث عن ابليس الأمة العربية .. بعضهم اضاف احجارا الى الاحجار .. وبعضهم صعد فوق الأحجار والقى بنفسه من فوق عاجزا عن الفهم .. فبدلا من أن يقتلوا القاتل وانبياءه الكاذبين ، قتلوا انفسهم !

هل ترى فداحة الخسارة ؟!

لقد خسرنا أجيالا من الشباب .. كلهم حيوية وأمل وارادة وشجاعة مستعدون لأن يصنعوا تاريخا . ولكن عندما أخذوا وضع الاستعداد لم يجدوا الطريق .. أو وجدوا الطريق ولم يجدوا الطريقة ..أو وجدوا الطريقة ولم يجدوا سيقانهم .. أما عيونهم فلم تعد ترى ، فمن كثرة الظلام فقدت وظيفتها .. وعقولهم من كثرة الضباب لم تعد تفكر .. أما قلوبهم فمن نقص الحياة تحولت الى حجر ..

ارايت الذى اصابنا ؟ لقد تحولت ساحاتنا وحقولنا ومعاهدنا الى ما أصاب مدينة « بومبيى » الايطالية .. ثار عليها البركان والقى عليها الحمم فكانت نوعا من الصمغ القاتل .. فتجمد كل الناس فى مواقعهم ، فكانت لوحة صارخة بارزة للموت الرهيب .. أما الرسام الحقيقى فقد نسى أن يوقع على لوحته .. انه جمال عبد الناصر ..

اذن لقد آمنا ايمانا مطلقا بأننا انهزمنا . ولكن المصيبة أننا ذهبنا الى أبعد من ذلك فقد آمنا بأننا مهزومون .. لا مرة واحدة ولكن ألف مرة .. لا فى الماضى ولكن فى الحاضر والمستقبل أيضا .. فنحن الهزيمة . وهذا الايمان جعلنا لانساهم بشىء فى شىء . ولا نريد . لقد حررنا أنفسنا من مؤهلات العمل . وحيثيات الحياة ، ومسوغات التعيين أعضاء عاملين فى المسرح المتحرك العائم القائم الدائرى الذى اسمه التاريخ ! .

وفى نفس الوقت تسلطت علينا هذه السلبية المطلقة حين رفضنا الواقع المصرى والواقع العربى والواقع الدولى .. رفضنا كل محاولة لانتشالنا من وهدة الفشل والاحباط واليأس .. رفضـــنا أن يكون لنا دور .. أو أن نستأنف دورنا فى القاء اطواق النجاة للاجيال القادمة .. فى اقامة الجسور واضاءة الطريق والتوزيع الموسيقى لبناة المستقبل .

***

شىء خطير قد حدث كنوع من الرفض والانسحاب والهروب : فبدلا من أن يقف الناس أمام غول الهوان العسكرى والذل النفسى واقامة حائط للصواريخ .. للتيارات المعادية وتنشيط المضادات الحيوية للموت القومى ، فقد انفرط الناس .. تفككوا .. تكوروا .. داروا حول انفسهم بعيدا .. كل واحد فى نفسه .. كل واحد لنفسه . ياالله نفسى .. ياروح ما بعدك روح .. وأنا مالى — « وأنا ماليزم » : هذه هى النظرية الجديدة فى مصر!

كل واحد قفز من السفينة .. سابحا الى الشاطىء .. الشاطىء الحقيقى أو الشاطىء الوهمى .. المهم أنه قرر أن ينجو بنفسه .. فهو يعيش لنفسه ، ويموت فى نفسه !.

وأصبحت علاقة الناس بالنـــاس هى أن يتقاربوا فى حذر .. وأن يتباعدوا فى راحة .. واذا تقاربوا فلكى يخطفوا ويجروا .. وكل واحد يخطف اللقمة والقرش والمقعد .. واذا استطاع فانه يخطف أنفاس الآخرين ، ويسحب الأوكسجين من هوائهم وكريات الدم من عروقهم .. ويسرق جهاز المناعة ليعيش ويموتوا .. المهم أن يعيش وحده على خرائب الآخرين !.

حتى تكوين الجمعيات والاتحادات والشلل الصغيرة ، ليس سببها ان الانسان لا يستطيع أن يعيش وحده وانما بالآخرين ومعهم وضدهم ، وأما سبب هذه التكوينات الصغيرة ليس الا تضخيما للفرد .. تعاظما للأنا فى مواجهة الادارة والمؤسسة والسلطة والحكومة والدولة .. وليست هذه الجمعيات الا دعوة عامة لأن تتفكك كل المؤسسات الى شركات صغيرة .. الى شراذم .. الى عصابات .. تواجه الدولة وتعارضها وتعتدى عليها .

ولكن يجب الا نسىء فهم هذه الفردية الصاعدة .. أو هذه الأنانية الاجتماعية .. أو هذه الذاتية النفسية .. هذه « الأناماليزم » فهى تدل على أن الفرد قوى .. وأنه متين .. قادر على أن يقوم بنوع من الحكم الذاتى .. فى مواجهة الدولة .. والحقيقة انه اسوأ من ذلك كثيرا جدا ..

فمثلا : ما هذه الدروس الخصوصية فى المدارس والجامعات .. لمـــاذا هى حيوية ضرورية . بغيرها لا نجاة ولا نجاح ؟ لمـــاذا هى اقوى من فقر الأب ، وصحة الأم ، وسلطان الدولة ؟ لسبب هام جدا هو اننا قررنا أن يكون أطفالنا « عالة » علينا .. أن يظلوا اطفالا يرضعون ولا ينفطمون .. ان يظلوا عاجزين عن الاعتماد على أطرافهم، ليبقوا مدى الحياة جالسين على

حجر المدرس وصدر الام .. مقعدين .. معوقين .. يمتصون مرتب الأب وعلاواته وحوافزه حتى يقترض ويرهن الدولاب والتليفزيون ومصوغات الأم والأخت ويمد يده الى أيدى الآخرين !

والدولة لا مانع عندها . فهى لا تستطيع أن تعطى لأى مدرس الوف الجنيهات التى يبتزها من أولياء الأمور .

فالدروس الخصوصية هى علاوة يقبضها المدرسون من الطلبة .. والدروس الخصوصية هى « البوليو » شلل الأطفال الذى يصيب الشباب والرجال بالطفولة الدائمة .. بالكساح .. بالتواكل والسلبية .. حتى اذا تخرج الشباب فى الجامعة ظلوا مثل عرائس الريف ينتظرون ابنَ الحلال لكى يحملها على حصان أبيض من بيت أبيها الى « بيت العدل » أى بيت الزوجية السعيدة .. فالشباب يتخرجون وينتظرون أن تعينهم الدولة فى غير تخصصهم ، بعد أن يكونوا قد اشتركوا مع الدولة فى أكذوبة اسمها : الخدمة العامة .. فلا هى خدمة ولا هى عامة .. وانما هى « الخدعة » العامة .. الدولة تخدع الشباب ، والشباب يخدع نفسه بأنه قد عمل شيئا من أجل الدولة .. أو من أجل نفسه .. أى تهيئته لأن يكون عاملا — لا شىء من ذلك !

فكأننا قررنا سرا : انه لا عمل فى أى مجال .. ولكن لابد أن نملأ فراغا .. وأن يكون لهذا الفراغ اسم ورقم ودوسيه وكادر وان يكون اسمه : العمل .. فكل واحد منا « عامل انه يعمل » .. « فالخدمة العامة » أصبحت مثل المسرحيات والأفلام .. أكذوبة اتفق عليها المؤلف والممثل والمتفرج .. أى أنها شىء ليس حقيقيا .. شىء لم يقع ..

ولكن الممثل سوف يجعلنا نشعر أنها قد حدثت وأنه سوف يهزنا بعنف حتى البكاء . وبعد أن نبكى نصفق لبراعته وقدرته .. والخدمة العامة هى هذه المسرحية .. هى هذه الأكذوبة ولأنها ركيكة فاننا لا نبكى ولا نصفق !

ففى الأفلام والمسرحيات يتزوج الممثلون وتكون زفة وراقصة وطبل وزمر .. ثم يكون الموت للعروسين فى حادث — وكل ذلك لم يحدث . ولكن استطاع المؤلف والممثل والمخرج أن يقنعنا بكل ذلك فنصفق فى النهاية

للذين ضحكوا علينا وادخلونا فى حياتهم دون ان ندرى . ولكن « الخــدمة العامة » هزيلة التأليف سيئة الاخراج .. ثم شبابنا هو الممثل والمتفــرج على خيبته .. ملايين المرات !

***

ابشع من ذلك ان الشباب أحس فجأة انه غريب عن أهله .. عن بلده أنه « لا ينتمى » .. ولذلك فهو يقول : وأنا مالى — مع أن المــال ماله — ويقول : وهل أنا الذى نكست الجيش ومصر كلها ، هل أنا الذى خربت البيوت وهدمت النفوس .. هل أنا الذى حبست الألوف وقتلت مئات الألوف وكدست الديون .. هل أنا الذى حذفت اللون الأبيض من علم مصر فاذا هو أسود دموى أو هو دم حزين .. اننا ورثة العار وأبناء الهوان .. أحفاد الخطيئة .. فمن هذا الذى يطلب منا أن نرتفع فوق الألم .. كيف .. ان الذين يطلبون من الشباب هذا التسامى .. هــذا التنامى .. هــذا التعامى .. لم يفلحوا هم أنفسهم فى أن يكفوا عن لطم الخدود وشـــق الجيــوب ..

ولذلك فهم يقولون : وأنا مالى أعالج مريضا فى مراحله الأخيرة .. وأنا مالى أزرع أرضا حرثتها دبابات النكسة ودبابات النصر أيضا .. كيف أســدد ديون والد سكير وأم غانية .. انهم لم يوفروا لنا القهوة الســادة نشربها حدادا ابديا .. أين نجد لسانا يتذوق ، بعد أن ضاعت وظيفته كعضو ناطق بالألم .. كيف ؟ لمــاذا ؟ متى ؟ أين ؟

ولذلك أسند ملايين الشباب ظهورهم للحائط .. لسور المدرســة والجامعة والمسجد .. ونظروا الى مواكب الحياة فى مصر ، لا يشــاركون فيهــا !

***

قضية الشباب فى العالم كله واحدة .. لقد عزلوهم عن الحيــاة ، وعزلوهم عن المشاركة ، وأخفوهم فى بطون أمهاتهم وانتهزوا غيابهم فهدموا كل صروح الحضارة والانسانية .. ومن هول الحرب وفداحة النكســات العسكرية فى كل مكان أجهضت الأمهات فكان هذا الجيل المبتسر الذى يجب ان ينمو بسرعة .. يقف يبنى الذى لم يهدمه .. يروى الذى لم يزرعه .. يحصد الشوك الذى لم يبذره .. وان يبتسم من اجل الغد ، حتى يكون قادرا على صناعة المستقبل .. وتكفيرا لخطايا والديه ؟ ! كيف ؟ !

ولما تعددت النظريات والمذاهب وظهر الأنبياء الكاذبون .. والمسيح الدجال فى السياسة والاقتصاد .. ولم يفهم الشباب شيئا لأن رؤوسهم اصغر من الأكاذيب الضخمة والاجتهادات الأبهة . كانت الدروس الخصوصية فى الأحزاب والندوات والمؤتمرات الشعبية .. لابد من الدروس الخصوصية .. فقد اعتاد الناس ، الا يفكروا ، والا يدبروا .. فقد كان يهبط عليهم التفكير من فوق ، وينزل عليهم التدبير من فوق أيضا .. وبذلك يتأكد عجز الشباب عن الفعل ورد الفعل .. ويتأكد أنه ليس له فى نفسه شىء ، ولا فى جسمه ولا فى ارادته ولا فى حياته ولا مستقبله ولا فى شهادة الميلاد .. فالكبار الذين يملأون له « خانات » الميلاد .. فيلدونه فى أى وقت ويجعلونه ذكرا وأنثى ، وشرعيا ولقيطا .. ثم يتفاءلون به ويدعونه هو الآخر الى أن يتفاءل !

وبعد ذلك نتقاذف التهم .. نحن نقول ان الشباب متطرف .. اى أنه يقف على طرف بعيد عنا .. ومن حق الشباب هو الآخر أن يقول اننا نحن الكبار متطرفون أيضا ، ولنفس السبب .. فنحن نقف على طرف بعيدا منه .. ولكننا الكبار نملك وسائل ادانته فى الاذاعة والتليفزيون والصحف وعلى المنابر وهو لا يملك الا أن يشكونا الى الله .. يدعو .. ويستعدى علينا عدالة السماء .

ولما تعددت الكتب المقدسة فى ايدينا .. أناجيل عبد الناصر ومزامير السادات .. وخطب حسن البنا « وكاسنات الخومينى » وبروتوكولات ماركس ، تساقط الشباب ساجدين أمام الكتاب الواحد الأوحد الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ..

ولما تعددت الزعامات المشروخة والأنبياء النصابون وقف الشباب طابورا حول الشخص الواحد الذى هو على خلق عظيم ، الذى هو خاتم الأنبياء وسيد المرسلين .. ولما ضاق الشباب بنفسه ، وضاق الذين حوله به ، احتشدوا .. فى المكان الواحد .. أنبل واشرف مكان فى قبلة واحدة ، يدعون ربهم خوفا وطمعا مهاجرين الى الله ، كافرين بهذه الأمشاج من الناس فى البيت والمدرسة والحزب !

***

وافظع من كل ذلك أن لديهم شعورا بالنهاية .. نهاية القرن .. نهاية الطريق .. نهاية الحياة .. بأن القيامة سوف تقوم .. وكأن هؤلاء الشبان

لم يكفهم ما يلقون من عناء وعنت ، فانهم راحوا يستعدون للعذاب بالقراءة عنه .. فانتشرت كتب عذاب القبر والعذاب فى ساحات القيامة . وعذاب البعث والنشور .. وعذاب الصراط المستقيم .. ونسوا أن يقرأوا عن الجنة والسعادة فيها وعن الراحة السامية « لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما الا قيلا سلاما سلاما » .. ولكن أحدا لم يكتب عن الجنة .. كأنه لا جنة .. وانما عذاب مقيم .. كأن العذاب هو نصيبهم فى الدنيا والآخرة .. أليسوا شـــبابا ؟

انهم مثل الذين وقفوا فى المحطة فى انتظار آخر أتوبيس .. قلقــون .. يتزاحمون .. يتضاربون .. يدوس بعضهم بعضا .. يحشرون أنفســهم فى أضيق باب .. آخر فرصة .. ولذلك فهم لم يفهمـوا شـيئا .. فقط انتظروا .. أحرقوا أعصابهم .. دماءهم .. لم يأكلوا لم يشربوا .. لم يفكروا ، أحيانا يتوهمون أنه آخر أتوبيس .. ويتوهمون أنه جاء .. وانهم وجدوا مقعدا .. فاذا جاء مات بعضهم من الفرحة .. ومات بعضهم من الزحام .. والسائق هو الآخر يريد أن يفرغ من هذه الشحنة الثقيلة .. فلا يتوقف .. وهو لا يسمع الصرخات .. يسابق السيارات ويصطدم بها ويدوس الناس .. فالكل يجرى .. يسابق .. ينهش .. يلعن .. يصرخ . انها النهاية .. نهاية كل شىء .. وليس بعد ذلك أى شىء !

فكل شىء مخيف .. واذا لم يجد الناس ما يخيفهم فانهم يخترعون المخاوف .. يضعونها ويبكون أمامها .. لقد اخترعنا الموت الذرى ورحنـا نلعنه .. اخترعنا التلوث وجعلنا نفزع منه .. اخترعنا الأمراض فى دمائنا ونحاول التخلص من دمائنا وجلودنا .. نقلنا الخوف من خارجنا الى داخلنا .. لقد اسكنا الموت فى عروقنا ، ونعمل جاهدين على اخراج الموت لكى نحاربه فى ساحات القتال ..

ولكن الشعور بالنهاية يتعمق عند الشباب فهم على يقين من أن الموت قادم من داخلهم ومن خارجهم .. قادم لا محالة . وكما أن الفلكيين يتوقعون نهاية الحياة بأن تقترب الأرض من الشمس فتحترق ، أو تبتعـد الأرض عن الشمس فنموت من البرد .. فالموت حارا أو باردا قادم لا محـالة . ولذلك يجب أن يعيش الشباب ، فى حالة انتظار للنهاية .. وانتظـار الموت هو موت يسبق الموت !

***

أفدح من ذلك أن يشعر الشباب بتفاهتهم .. فراغهم .. خوائهم بأنهم قد أفرغوا الحياة من المعنى والدور .. تماما كما أن حاضرهم قد أفرغ من المستقبل .. فالحاضر ماض قريب ، والماضى حاضر بعيد ..

بل ان لديهم شعورا بتآكل المستقبل .. خائفون .. مضيعون .. مبددون .. شظايا .. شظاياهم ..

أما وسائل النجاة المزيفة فهى البطولات الوهمية السينمائية والمسرحية .. ففى الأفلام يجدون قصصا رائعة وقصورا .. وحياة سهلة .. ومسارا منطقيا لكل الأحداث .. وله بداية ونهاية سعيدة .. يعيشون هذا الكذب الجميل ، ويتعلقون بالأبطال الخرافيين والخرافات .. ويجدون فى هذه المعايشة نوعا من التعويض .. هذا التعويض النفسى والمادى ساعة أو ساعتين .. وبعد ذلك يعودون الى حياة النهاية .. أو نهاية الحياة أو انتظار الفرج أو التفريج الذى يجىء فيبعدهم عن كل شىء .. فى انتظار موت هذا الزمان ..

أو بالمخدرات التى تحقق لهم ما هو أروع وأبدع وأهدأ من كل ذلك .. فاذا لم يجدوا المخدرات ، اراقوا الدماء من أجل الحصول عليها .. فكأنهم عندما كرهوا النكسة العسكرية وكرهوا الضحايا واستنكروا الدم ، كان لابد من دماء المدنيين لكى ينسوا بها دماء العسكريين !

ما الذى يريدونه ؟ . ما هى آخر رغباتهم قبل النهاية ؟ . انهم يريدون أن يتركوا أثرا ، أى أثر ، بعدهم .. صرخة . آهة .. بقعة دم .. انهم يمدون أيديهم الى ما بعدهم ، ويلقون ظلالهم الى ما وراءهم ..

هل تذكر لوحة الفنان العظيم ميكل أنجلو فى قبة الفاتيكان .. أنه قد رسم صورة لله — سبحانه — وهو يخلق الكون .. فامتدت ذراعه .. وخرجت من يده احدى أصابعه .. وهذه الأصبع لمست السحاب فخرجت من السحاب كل الكائنات .. وكذلك الشباب .. يمدون أصبعا من كف من ذراع الحاضر لعلهم يبلغون المستقبل ..

هل هناك أمل ؟

نعم . كيف ؟

لا سبيل الا أن نتوقف فورا عن « تجريف » الحاضر من أجل بناء الماضى !

□□□

خرجت اليابان من هيروشيما..
وخرجت أمريكا من فيتنام.
ولكننا لم نخرج من يونيو!.



خرجت اليابان من هيروشيما..
وخرجت أمريكا من فيتنام.
ولكننا لم نخرج من يونيو!.

مجموعة من الشباب الألمان كتبوا مذكراتهم عن رحلة فى مصر فى العام الماضى . جعلوا مذكراتهم على شكل خطابات بعثوا بها الى أصدقائهم فى القاهرة والأقصر والاسكندرية والعلمين .. الكتاب عنوانه « وسوف نبقى أصدقاء » .. أى أنهم رغم النقد المرير لكل الذى لم يعجبهم فى مصر ، ستبقى الصداقة بينهم ولا داعى لأن أكرر ما نعرفه جميعا عن النظافة - انعدام النظافة - والنظام والأخطاء الاملائية فى اللافتات الرسمية والأهلية.. وعن فوضى المرور وعن العمارات التى تنهار فور الانتهاء منها .. وعن الضوضاء والتلوث بكل أنواعه .. وعن أبشع منظر يراه انسان فى كليات مصر : كلية الآداب جامعة القاهرة نموذج للقذارة .. الأرض والأبواب والنوافذ والسلالم والبوفيه .

وقد اندهش أحد الطلبة الألمان عندما زار احد زملائه من كلية الهندسة فقد لاحظ ان البالوعة مسدودة .. وان هناك « ماسا » فى بعض الأسلاك.. وادهشه اكثر ان يظل هو وصديقه يتحدثان عن هذا الخلل ، ثم لا يفكر صديقه المصرى فى اصلاح شىء .. وانما استدعى شابا بجلباب أصلح البالوعة والسلك الكهربائى .. واعطاه مبلغا من المال .. وراح يشكو من

ارتفـــاع اجـــور الأســـطوات والعمـــال الفنيين الى اضـــعاف ما يتقاضاه المهنـــدس .. ثم الشـــكوى العـــامة من كل الأوضـــاع فى مصر والوجود الاسرائيلى فى قلب الأمة العربية .

أما الذى لم يفهمه الطالب الألمانى فهو ان زميله المصرى يستطيع أن يصلح البالوعة .. ويستطيع ان يصلح الأسلاك الكهربية وبمنتهى السهولة.

أما تعليقه على ذلك فهو أن العمل اليدوى لايزال غير محترم فى مصر. ولم يفهم الطالب الألمانى كيف يكون الانسان مهندسا ثم لا يستخدم يديه .. وما العيب فى أن تتسخ يداه ؟ لم يفهم !

ومعه حق . ولكن هناك سببا أهم من ذلك هو أن لدينا احساسا عاما بأن شيئا « يغرق » .. أو بأن كل شىء يغرق . وانه لا أمل فى علاج أو اصلاح . وأن المصريين يفضلون الشكوى والبكاء ..فنحن لا نصلح البالوعة ولا الأسلاك وانما نأتى بمن يفعل ذلك وندفع له .. ثم نشكو من ارتفاع أجور الاسطوات .. وبدلا من أن نصلحها نحن بأيدينا لتبقى أطول ، فاننا نختار من يصلحها بالفلوس ، ويبقى الاصلاح وقتا قصيرا فنشكو ونستدعيه وندفع ونشكو أكثر وأطول .. فكأننا نساعد السفينة على أن تغرق وتغرق.

وأحيانا نرفض اصلاح الأشياء وانما نتركها . لا لأن اصلاحها صعب.. ولكن لأن عدم اصلاح أى شىء « يتمشى » مع عـــدم اصـــلاح كل شىء فى الاقتصاد والسياسة والزراعة والتعليم .. فهناك شعور عام بأن كل شىء قد فسد ولا أمل فى اصلاح .. بل ولا داعى للاصـــلاح .. فقـــد وصلت الأشياء الى أسوأ حالاتها .. وانما الأمل أصبح نوعا من الترف .. وننسى أن « غرق » كل شىء هو « غرق » لنا أيضا .. واذا أردنا أن ننجو فليس بالهرب من السفينة والقفز الى المحيط ، وانما باصلاحها معا حتى نبلغ أى شاطىء للأمان .. ونبدأ فى الاصـــلاح المكثف أو بناء جديد للسفينة وبناء لنفوس البحارة والقيادة والمسافرين !

وقد لاحظ الطلبة الألمان ان المصريين على درجة كبيرة من الغرور وانهم ســـادة العالم وســـادة العرب بصـــفة خاصة .. وانهم لم ينهزموا فى كل الحروب مع اسرائيل !

والملحوظة صحيحة . ولكن لأسباب أخرى غير التى ذكروها . فهذا الغرور أو هذه النغمة الكاذبة ، سببها شعور عميق بالاحباط والفشل ..

فالمصرى قد انسحب من المعارك الى داخل مدينته ، ومن المدينة الى داخل الأسرة ، ومن الأسرة الى داخل الذات .. فهو قابع فى داخله .. وعندما وجد نفسه مع نفسه ، أحس انه فى أمان وانه قوى .. وانه عظيم .. وانها لم تلد غيره .. أمه لم تلد غيره وكذلك اسرته ومدينته ومصر والأمة العربية.. فهو مثل مخمور وقع فى الوحل ويقول : انا جدع — هو الذى يقول ، ولكننا لا نراه كذلك . فهذه النفخة أو هذه « العظمة » هى نوع من التعويض دفعه لنفسه ، عن الاهانات الشخصية والعائلية والقومية التى لحقت بنا بعد النكسة العسكرية بصفة خاصة . ومازال يعانى هو وأولاده لأجيال قادمة — ما لم نجد له حلا أو علاجا هو الحل ، أو حلا هو العلاج !

وبعض الحيوانات والطيور تفعل ذلك .. فنجد أن الطائر عندما يتعرض للخطر فانه ينفخ ريشه ويشغل مساحة اكبر وتتطاول رجلاه وجناحاه وعنقه ومنقاره .. ان الخوف يدفعه الى التظاهر بأنه كبير قوى مخيف . والحقيقة أنه ليس كذلك . وانما يوهم غيره ونفسه بذلك !

فهذا الغرور وهذا الامتلاء بالذات والزهو ليس الا فهما خاطئا للأشياء والعلاقات — فهم خاطىء لنفسه ولما حوله .

* * *

ولابد من هذه الأسطورة الاغريقية التى تساعدنا على فهم أنفسنا : يقال أن شابا جميلا اسمه « نارسيس » .. ابدعت الآلهة فى صنعه .. وفى صنع اخت له جميلة جدا . ولسبب ما ماتت الأخت . وحزن الأخ عليها. وفى يوم جلس الى نبع من الماء فرأى صورة على الماء .. فظن ان الذى يراه فى الماء هى صورة « روح » هذا الينبوع .. أو هى صورة « الحورية » التى تحرسه .. أو هى صورته هو .. ولأنه شبيه بأخته ، فهو يرى فى صورته ما يذكره بأخته .. وكلما حاول ان يمسك الصورة اهتز الماء ، واضطربت الصورة .. وظل يحاول وقد امتنع عن الطعام والنوم . ولما يئس قتل نفسه يأسا وحزنا . ولما سقط جسمه فى الماء اختفى الجسم الجميل وظهرت زهرة النرجس ، بيضاء ناصعة وعليها موجات من اللون الأحمر .. وملأ عطرها المكان .. ومن تناثر الماء الى الشاطىء نبتت زهرات النرجس التى لا عطر لها .

ولما جاءت امه وابوه واقاربه ينقلون الجثمان ليدفنوه فى مكان آخر، لم يجدوا الا هذه الزهرة .

وكانت الآلهة قد حذرت الأم من أن ينظر ابنها نارسيس — ومعناه نرجس — الى صورته فى الماء .. وسوف يطول عمره اذا لم ير نفسه . وقد افلحت أمه فى ابعاده كثيرا عن الأنهار والمرايا حتى كبر ، ولكن عندما ماتت أخته ظل هائما يبحث عنها حتى وجدها فى صورته هو فى الماء !

وتقول اساطير الاغريق ايضا ان كل من يحمل اسم نرجس تحل به هذه اللعنة .. فقد كان للامبراطورة مسالينا سكرتير اسمه نرجس .. هذا السكرتير استولى عليها وعلى السلطة ، ومازال يتسلط عليها حتى اقنع الحاشية بقتلها .. وقتلوها . وقد جاءت أختها ، فانتقمت فقتلته . اما جريمة نرجس هذا فهى انه كان يرى أنه احق الناس بالملك .. بل أنه اول رجل فى التاريخ أعلن أنه لن يتزوج وانما سوف يكتفى بنفسه .. فهو الزوج والزوجة معا .. وعندما كان يحس بحاجته الى امراة ، كان يرتدى ازياء النساء . وعندما كان يحس بأنه فى حاجة الى رجل كان يرتدى ملابس الرجال . وكان يقول : أنا فى حالة اكتفاء ذاتى .. انني غنى عن الناس .. وعن كل شىء !

وكان يقول : انا البداية والنهاية !

وهذه هى « النرجسية » .. اى الأنانية المطلقة .. اى عشق الانسان لذاته ، وكراهيته لغيره من الناس .. بل انه يرى الآخرين وسيلة يحقق بها رغباته .. أو انهم « أداة » آلة .. وانه فاشل اذا اتصل بالآخرين .. ولذلك ليس امامه الا نفسه .. والا احساسه ..والا رغباته.. وارادته .. فهو لم يفلح فى التعامل أو التوافق مع الناس ، فهرب منهم الى نفسه .. وفى نفسه وجد الحضن الدافىء والكنز الذى لا ينفد ..

والانسان — عادة — لا يرتد الى نفسه الا فى أعقاب الهزات النفسية العنيفة .. فالنرجسية من مظاهر اضطراب الشخصية .. فالانسان ليس سويا اذا كان يتصور انه هو العالم .. أو وحده فى العالم ، وانه يستطيع ان يفعل وأن يكون كل شىء بنفسه ودون حاجة الى احد .. أو انه لا أحد سواه !

* * *

فهل درسنا وحللنا وفهمنا ماذا اصاب المصريين من الزلزال العنيف الذى حدث فى ٥ يونيو سنة ١٩٦٧ وبعده حتى اليوم ؟ هل ذهب علماء النفس يسألون الجنود والضباط : ماذا حدث ؟ وكيف حدث ؟ واذا كنت نجوت من الموت ، فهل نجوت نفسيا ايضا ؟ ما الذى تراه فى نفسك ومن نفسك وما الذى تراه فى أهلك وفى بلدك ؟ خسران أنت أو كسبان ؟ هل حاربت ؟ هل انتقمت من عدوك ؟ هل انتقمت ممن هزمك ؟ هل تحارب مرة أخرى من اجل مصر التى لا أعطتك ولا احترمتك ولا قدرتك ولا سألت عن الذى اصابك وأولادك وزوجتك وشرفك ؟ هل ما تزال تعتقد أنك أفضل من عدوك ؟ هل تعتقد أنهم هزموك ، أو انك أنت الذى انهزمت قبل أن يهزموك ؟

لم نسأل رجال القوات المسلحة العائدين من النكسة . ولا عرفنا ما الذى أحسوا به يومها وبعدها بأيام وشهور وسنين !

ولكن اسرائيل فعلت ذلك . فقد انتهت حرب الأيام الستة بسرعة مذهلة . حتى كأنها لم تكن حربا وانما كانت تدريبا عمليا على القتال . ورغم ان اسمها حرب الأيام الستة ، فبعض الجنود حارب يوما وبعضهم حارب يومين .. فقد بدأت الحرب فى مصر واستمرت فى الأردن وانتهت فى سوريا.

لم تكن حربا شاملة ، وانما كانت حربا دفاعية — قامت بها اسرائيل ضد قوات عربية اقوى واكثر عددا واستعدت للابادة الشاملة — هذا ما يقوله العلماء الاسرائيليون للعسكريين والمدنيين .

ووجد علماء اليهود من اسرائيل ومن أمريكا ان الحروب تسبقها عادة مشاعر ودوافع قوية تجعل القتال راحة كبرى للجنود الذين استعدوا طويلا للقتال ، والذين شعروا بالملل من الانتظار والذين يحنون لعائلاتهم ، ويريدون استئناف حياتهم العادية . وفى اسرائيل نوعان من الجنود : المنظمون والمتطوعون .. والمتطوعون لهم حياتان : عسكرية ومدنية .

وعند الجندى الاسرائيلى عقيدة انه اما ان ينتصر أو يموت .. لابد أن ينتصر والا تكاثر عليه الأعداء من كل مكان وقضوا عليه .. ولذلك استعدت اسرائيل بأن جعلت الوحدات العسكرية وحدات عائلية . فالجندى ينضم الى وحدة عسكرية لا يتركها حتى الموت .. فهم يعرفون بعضهم البعض تماما. ولا توجد فوارق بين الضابط والجندى .. ولذلك فالوحدة كأنها جندى واحد

قوى . والجندى فى دفاعه عن الوحدة ، والوحدة فى دفاعها عنه ، انها تحمى الفرد والدولة أيضا . وهذه الوحدة العائلية تهون عليه الخوف والشعور بالخطر .. وفى نفس الوقت تجعله لا يفزع اذا راى الموت والدماء .. فان لم يقاتل ويقتل فسوف يلقى نفس المصير .. ثم شىء آخر : هو يجب الا يعرض نفسه أو زميله للخطر .. واذا اصابه شىء فلا خوف ، فسوف يصلون اليه مهما كان .. ان كان جريحا نقلوه أو حملوه بالطائرات ، وان كان قتيلا فسوف يعيدونه الى أهله .. وان يعيدوه كله .. فخصلة من شعره أو أصبع من قدمه .. أو حتى حذائه .. لن يتركوه مهما كانت اصابته .

ولاحظ العلماء ان هذه الحرب قد افلحت فى تذويب الفوارق بين اليهود الشرقيين والغربيين .. كلهم حاربوا وقاتلوا وتفرقوا ..

ولاحظ علماء النفس أن الجنودالاسرائيليين قد أصيبوا بصدمة عنيفة.. فهم لم يتصوروا أن تنتهى الحرب بهذه السرعة . ولم يتصوروا انهم بهذه القوة.لقد أخافتهم قوتهم. وبعضهم قد تعلم ان اسرائيل دولة تريد أن تعيش فى سلام . وأن دينهم يدعو للحياة والسلام وليس للقتل والدمار .. ولذلك عاد كثير من الشباب الى مستعمراتهم لا يتكلمون ولا يريدون . وعندما ذهب اليهم علماء النفس يسألونهم رفضوا الكلام . رفضوا أن يقولوا شيئا عن الذى حدث .. وانهم كرهوا بلادهم وأنفسهم ودينهم أيضا ، والأكاذيب الطويلة التى عاشوا بها ومن اجلها.. وان قادتهم السياسيين والدينيين قد خانوهم!

وقد اطلقوا على هؤلاء الجنود : الجيل الصامت !

اما اكبر مشكلة واجهها علماء النفس فهى ظاهرة الغرور والنفخة والزهو والتعالى .. الغرور الفردى والغرور القومى والغطرسة السياسية والنرجسية الدينية . أحس العلماء ان هذه اكبر كارثة .. وان هذه كلها تدل على مصيبة قد حلت باسرائيل كلها .. فسوف يؤدى هذا الغرور الى حرب اخرى .. واذا انهزم اليهود فى هذه الحرب فسوف تكون اكبر كارثة حلت بالغرور الفردى والغرور القومى والعنصرى — ان اسرائيل كلها بعد حرب ١٩٦٧ أصبحت هى ثلاث ملايين نرجس الذى راى صورته فهام بها ومات فى سبيلها .. لقد انتفخ حتى انفجر — هذه هى المصيبة الكبرى . ومعنى هذه المصيبة ان اسرائيل قد انتصرت عسكريا ، ولكنها انهزمت نفسيا وفرديا وعائليا وقوميا !

وكلما بالغت اسرائيل فى عظمتها وبراعتها وعبقريتها ، ازدادت رغبة العرب فى الانتقام .. وزاد التعصب الدينى لليهود وللصهيونية العالمية ولأمريكا . ولذلك لابد ان يتدارك العلماء هذا الموقف بسرعة .. وأن يلقوا بعض الماء البارد على رؤوس هؤلاء الذين أسكرهم النصر .. والذين وصفوا شارون بأنه الملك شنارون .. ووصفوا عودتهم الى مصر ، بعودة موسى الى الأرض التى طرد منها .

وظهرت رواية تقول بأنه لابد من نسف السد العالى واغراق مصر كلها .. وبدلا من القاء اليهود فى البحر ، فانهم سوف يغرقون المصريين فى نيلهم .. وهنا تجىء سفينة نوح من اسرائيل لانقاذ المصريين .. وبدلا من القاء اليهود فى البحر ، فان اليهود سوف يأتون بالبحر لكل العرب .

وظهرت الأغانى والنكت والقصص والمسلسلات كلها للسخرية من مصر والعرب .. وهنا فزع العلماء من نتيجة كل ذلك !

ولما انتصرت مصر على اسرائيل يوم ٦ اكتوبر سنة ١٩٧٣ كان ذلك اسوأ يوم فى تاريخها .. فقد ضربتهم مصر فى عيد الغفران .. وبكت جولدا مائير ومعها كل القادة .. فقد انهزموا بالزهو فى سنة ١٩٦٧ ، وبايمانهم المطلق بأن نصرهم هو النهائى ، وأن مصر قد وجدت لتنهزم ووراءها ومعها كل العرب .

وكان الرئيس السادات قد حطم أعصاب اسرائيل عندما كان يبعث لهم من حين الى حين بجثة وجدناها فى البر والبحر .. فهذه الجثة كانت تجدد الأحزان فى اسرائيل .. وبقدر سعادتهم بأنهم وجدوا جثة ، بقدر حزنهم على انها حركت الأوجاع النائمة والآلام المبرحة .

وقبل انسحاب اسرائيل من سيناء ذهب سفير اسرائيل موشى ساسون الى الرئيس السادات يطلب اليه : سيادة الرئيس أرجو الا تجعل يوم الانسحاب يوما حزينا فى اسرائيل .. ارجو ان يتم الانسحاب بهدوء بلا طبل عنيف وزمر مدو .. !

ولذلك كان الاحتفال برفع العلم المصرى هادئا .. وكان السادات يقول : تكفينا هزيمة اسرائيل فى اكتوبر سنة ١٩٧٣ .. ولنفتح صفحة جديدة للتعايش الهادىء والسلام !

* * *

اما أمريكا فقد درست حال الشباب بعد اكبر نكسة عسكرية فى تاريخها فى فيتنام . فقد اصطدمت رؤوس الشبان فى أمريكا بناطحات السحاب وتمثال الحرية وتمثال واشنطون .. واحس هؤلاء الشبان ان دولتهم كذبت عليهم.. فعلى تمثال الحرية كتبت الشاعرة ايما لازاروس تدعو المضطهدين والمعذبين فى العالم الى احضان امريكا التى هى أم المساكين والمظلومين .. أم التسامح بين الأديان والألوان .

لقد أحس الشبان ان أمهم كاذبة .. كيف تبعث بقواتها تقتل الأبرياء فى فيتنام دفاعا عن أمريكا ، تقتلهم حبا فيهم ، تشوههم اعجابا بهم ، تضع السموم فى المياه وتقتل النباتات والحيوانات من أجل أن يبقى شعب فيتنام.. كيف ضربت بالقنابل الذرية شعب اليابان .. ثم تدعى بعد ذلك انها حصن السلام ، درع الأمان كنز الفقراء ، جنة الخاطئين .

لقد كفر الشباب الأمريكى بهذه الدولة الجبارة ، بهذا العملاق الذى طار عقله ، بهذا العبقرى المجنون الذى يبدد البلايين على الصواريخ وسفن الفضاء ، بينما لو اعطاها لملايين الفقراء فى العالم ، لأصبحت الدنيا جنة حقيقية .. ولقضت بذلك على الشيوعية التى تكسب أرضا وشعوبا بتعميق كراهيتهم لأمريكا وتناقضاتها السياسية والفلسفية .. كفر الشبان .. تركوا المدارس وهربوا من الخدمة العسكرية .. وهاجروا من البيت وناموا فى الغابات يقلدون جثث القتلى فى فيتنام .. ثم هاجروا من امريكا الى غابات الأمازون ينتحرون معا .. فقد كرهوا الحياة معا فى امريكا .. وكرهوا أن يموتوا على ارضها !

واتسعت لهم الحانات والمواخير والاصطبلات .. وارتفعت من افواههم سحب الدخان الأزرق .. لقد قرر هؤلاء الشبان ، بمئات الألوف، ان ينسحبوا من الحياة ومن العائلات ومن المعامل ومن الجيش .. وأن يضعوا انفسهم فى قائمة الهاربين من الحياة .. وحذفوا انفسهم من الأحياء فى بلادهم .. ان بلادهم تقتل أبناء فيتنام بلا قضية ، فلماذا لا يقتلون أنفسهم بأيديهم فداء لأهل فيتنام .

وظهر العنف بكل أشكاله .. والسرقات والخطف..وهتك الأعراض.

وفى احدى المحاكم سأل القاضى طالبا صغيرا : كيف تعتدى على فتاة صغيرة تحبها ؟

قال الطالب : اننى لم اعتد عليهـا .. اننا اتفقنـا على ذلك .. اما السبب الحقيقى فهو أن والدها قسيس .. وهذا الاعتداء على ابنته هو اهانة له .. وفضيحة له أمام الطائفة المسيحية : اذ كيف يدعو النـاس الى الفضيلة بينما هو لا يستطيع أن يحمى ابنته .. فأنا لم أعتد على ابنته، وانما عليه هو .. على مذهبه .. وعلى دينه .. وعلى الدين كله الذى لم يمنع أمريكا من قتل الأبرياء .. فلا أحد من أهل فيتنام قد اعتدى على أمريكى واحد فى أى مكان ؟ !

ونهض علماء النفس والاجتماع والتربية لدراسة هذه الحالة المروعة التى انحط اليها الشباب الأمريكى .. وكيف يمكن علاجها .

وتشكلت لجان حقيقية ذات صلاحيات عريضة وذات فترة محدودة لتقديم التشخيص والعلاج . وقدموا تقارير علمية لرئاسة الجمهـورية . فالموقف خطير . والخطر شامل . وهذا الشمول يهدد المؤسسات العسكرية والمدنية . فالشباب ضد الدولة : ضد الادارة بكل اشكالها .. وهذا الشباب هو المستقبل . وحتى لا يضيع المستقبل لابد أن يتداركه الحاضر بسرعة .

ومن أعجب التقارير وأمتعها التى قدمت للرئيس الأمريكى تقرير عنوانه: التقرير المصور المقدم لرئيس الجمهورية من لجنة بحث الخلاعة والصور العارية .. التقرير فى ٣٥٠ صفحـة كل صفحـة من ثلاثة أعمدة وبالبنط الصغير .. وهو من أعمق وأجمل والطف الدراسات التى قرأت فيها . فقد لاحظت هذه اللجنة بعلمائها المائة والأربعين .. ان ظهور الاباحية والصور الانحلالية العارية والأفلام الجنسية دليل على أن الشباب مُصِرٌ على أن ينسحب من الحياة ، وأن يستغرق فى الجنس دون أن يشـارك فى الحياة الايجابية .. ويساعده على ذلك الكثير من المخدرات .. وأهم ما يساعده على ذلك : اهمال الأب والأم ويأس المدرسين ورجـال الدين واستهانة الحكومة بكل ذلك .. وابتعاد علماء النفس والتربية عنهم .. فقد تركوهم يفكون عقدهم ويخففون توترهم وحدهم .. أما العلاج فيبدأ بأن تمتد الأيدى اليهم . وأن نعانقهم بحرارة وبعد ذلك نفسر لهم هذا المسلك الأبوى الذى يجب أن يسبقه الاعتذار الشديد عن الاهمال لهم .. وبعد ذلك يبدأ الحوار .

ومما اهتدت اليه هذه اللجنة ان عددا كبيرا من الشـباب يصنعون التماثيل ويضعونها فى مكان مرتفع . اما المعنى فهو نوع من تقديس الذات . كرد فعل عن اهمال الدولة لهم ، واحتقار المجتمع لسلوكهم .. فهم ليسوا

عظماء هكذا ، وانما هم ينتقمون لأنفسهم ، ويعوضون أنفسهم بأنفسهم عن خسائرهم المادية والمعنوية — وهى قمة النرجسية !

ووجدوا التشخيص وعرفوا العلاج واستأنف الشباب دوره الايجابى فى حياته وحياة بلده !

* * *

أما نحن — وهذا هو الأهم — فلم ندرس ما الذى أصاب المصريين بعد النكسة العسكرية ؟ !

أول غلطة وقعنا فيها اننا تكلمنا عن الهزيمة ووصفناها نكسة وعن الذين نكسونا وأسرفنا على انفسنا فى ذلك حتى مللنا .. وضقنا بأنفسنا . ورحنا نطالب بأن نكف عن لطم الخدود وشق الجيوب .

وهى غلطة لأن الملل سوف يدفعنا الى ان نسكت .والسكوت الى أن نتجه الى شىء آخر غير فهم وتحليل ما حدث ودراسة أثره العميق فينا ثم علاج ذلك — كما حدث فى اليابان بعد ضربها بالقنابل النووية ، وبعد نكسة أمريكا فى فيتنام ، وبعد انتصار اسرائيل فى يونيو وهزيمتها فى أكتوبر .

والغلطة الثانية : أن ظهرت كتب « الاعترافات » .. والذين اعترفوا كانوا عسكريين .. اعترفوا بأخطاء غيرهم من العسكريين .. أى أن العسكريين هم الذين ارتكبوها . وليكن ؟ فما هو أثر ذلك على الجنود وعائلاتهم وأولادهم وعلى المدنيين وعلى مصر فى السنوات التى جاءت بعد الهزيمة .. وعلى العشرين عاما الماضية !

فلم نكن نعرف أن العسكريين أيضا ، مثل المدنيين ذئاب يهاجمون بعضهم بعضا .. ولم نكن نعرف ان حقد العسكريين على العسكريين يجعلهم هكذا يفضحون مصر على أعلى مستوياتها العسكرية ويعرضون أمنها للخطر .. لقد قال لى قائد عظيم ان ما كتبه الفريق فلان الفلانى يرقى الى مستوى الخيانة العظمى لأنه بما كتبه قد عرض مصر لأكبر خطر فى تاريخها — ولكن احدا لم يحاكم الفريق الفلانى على خيانته العظمى رغم اقتناع رئيس الجمهورية بذلك !!

الغلطة الثالثة : ان احدا من القادة العسكريين قد صحح أخطاء القادة الذين اعترفوا بأخطاء غيرهم وبراءة انفسهم ! وفى ذلك الصمت دليل على

القبول .. أو دليل على العجز .. وفى الحالتين نحن أمام خيانة عسكرية ارتكبها الذين نكسونا والذين فضحونا !

الغلطة الرابعة : ان المدنيين من هواة التاريخ والمؤرخين والأدباء قد تفننوا فى السخرية من الجميع .. فقد لاموا العسكريين ، ولاموا المدنيين على انهم سكتوا .. ومازال المدنيون ساكتين ، وفى ذلك تأكيد للعجز العام عن فعل شىء او فهم شىء !

واذا حاولنا اليوم هذه الساعة ، ان نصحح التاريخ فسوف تواجهنا مشكلة كبرى وهى ان كتب الفضائح العسكرية قد سبقت الى النشر باللغات الأجنبية .. وسبقتها ايضا الكتب التى أقامت المهرجانات للجيش الاسرائيلى والتحقير للجيوش العربية .. فقد أضعنا على أنفسنا فرصة أن نصحح وان ننصف أنفسنا من أنفسنا .. فقد أقفل باب التصحيح ! والتاريخ غير قادر الآن على استئناف الحكم فى الهزيمة العسكرية التى هى وكسة مدنيـة وكارثة نفسية وردة حضارية !

الغلطة الخامسة : هى اننا لا ندرى تفسيرا لهـذا التشرذم الدينى والسياسى فى بلادنا . ونظن أن سببه نقص الحريات الدينيـة ، أو انه الأزمة الاقتصادية .

أما أن هناك سببا دينيا فليس صحيحا . فنحن لا نشكو من نقص فى الدين أو الايمان بينما « الجرعة » الدينية المتزايدة تنهال علينا من كل القنوات والبرامج والصحف .

فالدولة هى التى تتزعم التطرف الدينى .. فالتطرف الدينى تطرف رسمى ، أما الذى تراه فى الشارع فليس الا « رد فعل » .. أما الفعل فهو عشرات الساعات فى الاذاعة والتليفزيون والصفحات عن الدين وأهوال القيامة .. اما أن هناك عناء اقتصاديا وخللا اجتماعيا فلا شك فى ذلك .. ولكن « التشرذم » والتعصب .. والعصابات .. ليس الا بسبب النكسة العسكرية .. التى أصابت كل انسان بالهزيمة فى نفسه وفى بيته وفى بلده وفى جيشه وفى أمته بين كل الأمم .. انهزمنا .. قهرونا . مسحوا بنا الأرض وهتكوا العرض . وقالوا لنا : اشربوا من البحر الأبيض والأحمر والأسود .. واشربوا مياها ملوثة .. وموتوا بغيظكم .. فانتـم الذين جعلتم حكامكم فراعنة عليكم .. يضربونكم بالجزمة .. ثم تبكون على ذلك .. فأنتم قد اعطيتم والآن أخذتم ما تستحقون .. فلماذا الشكوى ؟

وأمام القهر الشخصي والعائلي والاجتماعي والقومي ، يتراجع المواطن .. ويتراجع حتى ينكمش في ركن من بيته .. وحتى تنكمش نفسه في ركن من جسمه .. وبعد ذلك يقوم بعمل تعويض لكل ذلك فيقول : أنا .. عائلتي وحدها .. مدينتي وحدها .. ديني وحده .. مصر وحدها .. نحن العرب وحدنا .. نحن المسلمين .

وهكذا يخرج من تعصب الى تعصب .. وكل تعصب يحمل في طياته سلوكا فرديا شاذا ،وعداء اجتماعيا : عداءللآخرين .. وللعائلاتالأخرى.. والديانات الأخرى .. والشعوب الأخرى .. وكراهية للغرباء رغم احتياجه لهم — وهذا هو اضطراب الشخصية الفردية والعائلية والدينية والقومية.. وانه كفرد على حق والمجتمع غلطان .. او ان الجماعة على صواب والجماعات الأخرى على خطأ .. ودينه هو الأصح ، وكل الديانات ضالة مضللة .. وقومه هم القوم ، ومن عداهم برابرة وحوش .

والفرد مليان بنفسه .. واذا كان في الجماعة . فلا يشعر بهم .. واذا كان لاعبا في فريق ، فهو وحده الذي يأخذ الكرة ويجري بها ليضعها وحده في الشبكة .. فلا روح للفريق .. ولا روح للجماعة .. ولا روح للدين .

ومثل هذه « النرجسية » من علامات الطفولة أيضا .. فالطفل عندما تنمو شخصيته ، فهو يريد أن يكون وحده .. يلعب وحده ، يأكل وحده .. هو الذي يقرر وهو الذي يعارض الآخرين .

أما دور التربية والتعليم بعد ذلك فهو تحويل هذا الحيوان الصغير الى حيوان اجتماعي يعتمد ويتعاون ويواجه الآخرين ثم يعيش معهم .

فهل يا ترى نحن المصريين نريد أن نظل أطفالا ؟ ..

هل نريد أن نبقى هكذا منفوخين قد امتلأنا غرورا وفي نفس الوقت عجزا ، دون أن تمتد أيدينا الى أنفسنا نعالجها ؟

هل نحن المصريين آسفون على القدر المتعاظم من الحرية ، ونتعمد افساد هذه الحرية فنحولها بسرعة الى لعب بالنار ، هل نحن نريد أن نستدرج الحاكم الى أن يبطش ويسجن .. والى الغاء الحرية وفتح أبواب السجون .. وبذلك يريحنا من الحرية .. حرية الاختيار وحرية القرار .. والانتقال من البكاء الدائم على الماضي الى الحاضر والمستقبل .. هل نحن

نحفر قبورنا بأظافرنا من أجل أن يظهر فرعون يلهب ظهورنا بالكرباج .. وبعملية حسابية نجد أن الكرباج الرسمى أرحم كثيرا من كرباج الضمير ومن مشقة ممارسة الحرية ؟

هل لو ظهر الفرعون نستريح الى اننا نرى فيه انفسنا : عظيما يبتلع كل العظماء — أو الذين يظنون فى أنفسهم العظمة .. حين تكون عصا موسى التى تبتلع الثعابين الصغيرة .. هل المصريون لسبب جهلهم بما حدث ، اى بجهلهم بأنفسهم وما أصابهم ، يريدون أن يريحوا أنفسهم وعقولهم بالتطلع الى واحد يلغى العقل ويمحو النفس .. الى واحد يطهر الأجسام والعقول بوضعها جميعا فى النار .. فنموت أطهر وانظف موتة — ولكننا نموت !

هل هذه رغبة مجنونة عميقة فى نفوسنا ، لميلاد من يحمل عنا كل الذنوب والندم ويكون مرة اخرى أكبر مجرم فى حق مصر والشعوب العربية ؟

اننا لا ندرى .. فلم يتبرع أحد من علماء النفس فيضع أصابعه على الداء الذى عمره الآن اكثر من عشرين سنة !

□ □ □

المثل الأعلى يدخل قلبك
ويروق كلبك!



المثل الأعلى يدخل قلبك ويبرق كلبك!

قال شاعرنا حافظ ابراهيم يعيب على الفلاحين المصريين انهم يحلمون بأن يكونوا افندية باكوات باشوات ، ومن اجل هذه الألقاب يهون كل شيء وكل احد .. ولكنه يريد لبلاده أن تكون من المخترعين .. كاليابان مثلا :

وهــل فى مصــــــر مفخــــــرة
ســــوى الألقـــــاب والـــرتب
أرونى نصـــــــف مختــــــرع
أرونى ربـــــــع محتســــــب
أرونى ، ناديـــــــا حفـــــلا
بأهـــــــل الفضـــــل والأدب
ومـــــاذا فى مدارســـــكم
من التعــــليم والـــــكتب ؟
ومـــــاذا فى مســـــــاجدكم
مـــن التبيـــــان والخطب ؟

ومـــــــاذا فى صـــــــــــحائفكم
ســـــــوى التمـــــويه والكذب ؟
فهبـــــــوا مـــــن مراقـــــدكم
فـــــان الـــــوقت من ذهـــــب
فهـــــذى أمـــــــة اليـــــابان
جـــــازت دارة الشـــــــــهب
فهـــــــامت بالعـــــلا شـــــغفا
وهمنـــــــــا بابنـــــــــة العنب

ففى ذلك الوقت كانت نوعيات المصريين : اتراكا وموظفين وفلاحين .. باشوات وأفندية وذوى الجلاليب الزرقاء . وكان المثل الأعلى هو أن يخلعوا الجلباب ويلبسوا البدلة والطربوش والا يمسكوا فأسا وانما قلما .. ليكونوا فى خدمة الأتراك من الأسرة المالكة أو حاشيتها .. فالمصريون لا فيهم أديب ولا فيهم خطيب .. ولا هم من أمثال أبناء اليابان تقدموا الفلاحين والصيادين واخترعوا . لقد كانت اليـــابان ولا تزال مثـــلا أعلى لكل دولة ناشـــــئة ناهضـــــة ..

وعندما قامت ثورة ١٩١٩ كانت من أجل انصاف ذوى الجلاليب الزرقاء من ذوى الياقات البيضاء ، أى الباشوات وحاشيتهم من الموظفين ..

وكان المثل الأعلى عند الفلاح أن يكون ابنه « أفندى » .. وأن يتوب الله عليه من الطين والترعة والشادوف . وأن يجلس على المكتب الى جوار النافذة وأن يبقى فى القاهرة حيث الأتراك والبكوات والباشوات . من يدرى ربما صار واحدا منهم . فالمثل الأعلى عند الفلاح الذى صار « أفنـــدى » أن يكون « بك » .. والبك أن يكون باشا بشرط أن يأكلوا جميعـــا من الريف من بعيد لبعيد .. أن تكون لهم أطيان ليعيشوا فى القصور ..

وبعد ثورة يوليو ١٩٥٢ الغيت الألقاب .. ولم يبق منها الآن الا لقب « باشا » نطلقه على كل الناس .. وفى توسيع استخدام هذا اللقب اصبح تافها .. أصبح حاجزا بيننا .. فبدلا من أن تقول لأى أحد اسمه الحقيقى تقول له : يا باشا .. وبدلا من أن تقول فلان بك .. وقد يكون هـــذا وزنه أو حجمه فأنت تقول له : يا باشا .. وبذلك تعمل على اضـــاعة وزنه

وحجمه .. وفى نفس الوقت « تمييع » صورته عندك .. لأنك تريد ذلك ، ولأنك لا تعرف لأحد وزنا حقيقيا .. ولأن الناس جميعا باشوات ..

سمعت من الملكة السابقة فريدة أن بوابا كان ينقل لها احدى لوحاتها فسألها : أين أضع هذه اللوحة يا مدام ؟

فقالت له : لا تقل لى يا مدام .. قل لى أفندم .. أو قل لى جلالتك .. فقد سمعتك تخاطب بوابا آخر وتقول له : يا باشا .. فكيف يكون هو باشا وأنا مدام ؟ !

وأصبحت كلمة باشا تساوى : فلان الفلانى .. فأنت باشا يعنى : أنت أى انسان .. فهى ليست تحية لك .. وانما هى ابعاد وتجهيل لك !

وفى السنوات الأولى للثورة كنا نقول لبعضنا البعض : يا سيد .. وكنا نطلقها بصورة مضحكة مهينة .. حتى ماتت على السنتنا ونبتت مكانها كلمة باشا .. ويا باشا !

وبعد ثورة يوليو انفتحت أبواب القرية على المدينة ، والعكس .. وانفتحت المدارس لكل الناس .. ابن الخفير وابن الوزير .. كلهم يريدون تعويضا أدبيا وماديا عن الذى أصابهم .. كلهم يريدون أن يتعلموا وأن يتوظفوا .. فالوظيفة حق ، لأن التعليم حق .. والتعليم هو الطريق الى الوظيفة .. وبدأ المجتمع المصرى يزحف ويتعالى ويتسامى على الأرض وعلى الطين وعلى الزراعة من أجل الوظيفة .. والفلاحون هم أيضا تركوا الريف الى المدينة .. وما زال النزيف الريفى يصب فى المدينة .. حتى ابتلعت المدينة كل القرى .. وبدلا من أن تأكل المدينة من أيدى الفلاحين ، جلس الفلاحون الى موائد الأفندية ينتظرون الرغيف والخضار والفاكهة .. فالفلاحون تنكروا للأرض ، والأفندية تنكروا لآبائهم من الفلاحين .. وأصبحت الأغلبية الساحقة من الريفيين أى من الأفندية أولاد الفلاحين ! فالفلاح هو الذى يضرب الأرض بالفأس ، والريفى هو الذى أبوه فلاح ولم ير الفأس الا على شاشة التليفزيون !

سألت طفلة صغيرة أباؤها من الفلاحين ان كانت قد رأت القبقاب فأجابت بسرعة : نعم مع طانط شجرة الدر !

تقصد انها شاهدت ذلك فى فيلم شجرة الدر التى قتلت زوجها وقتلوها بالقباقيب !

وفى السنوات الأولى لثورة يوليو كان المثل الأعلى عند الشباب الى جانب أن يكون طبيبا وطيارا ان يكون ضابط غواصة .. ليس فقط أن يكون فى الجيش وانما أن يكون ضابطا لا على الأرض ولا فى الجو ولكن تحت الماء . ليحارب العدو من أجل مصر . ولم يكن المثل الأعلى لأى أحد أن يعيش فى دمشق وبغداد .. أى ينتقل من مصر لأى سبب ، رغم دعاوى الوحـــدة العربية بين كل الدول . ولم تكن أحلام أحد ان يهاجر . كيف يترك العظمة المصرية وأحلام امبراطورية صلاح الدين من المحيط الى الخليج ؟

ولكن بعد هزيمة ١٩٦٧ كانت كل احلام الشباب أن يهاجروا . الى أين ؟ الى أى مكان .. المهم أن يتركوا مصر .. الجمل بما حمل .. فلم تعد الحياة تطاق . وأقسى ما فى الحياة فى مصر : الكذب .. كله كذب .. لم يعد للكلام معنى .. لم تعد للخطب اية دلالة .. فالرجل الذى كان بطل ابطال العالم ، صاحب الأرقام القياسية فى وزن الهموم الثقيلة صـــار فى الحضيض السياسى .. كيف صدق الناس جمال عبد الناصر .. كيف ابتلع الناس الطعم خطبة بعد خطبة ، كيف أنام الناس ومغنطهم ؟ !

ان بعض الذين يديرون تسجيلات لصوته يندهشـــون كيف أنهم لم يكتشفوا هذه « الخنافة » الثقيلة فى أنفه .. كيف لم يكتشفوا هـــذه المرارة فى شفتيه ، كيف لم يتبينوا هذا الحقد فى عينيه ، كيف لم يدركوا أنه ليس الا تمثالا نصفيا بعيد الكتفين والصدر يمشى على ساقين نحيلتين .. ولكنه الخوف والفزع والارهاب والبطش جعل الناس يقفون عند عينيه ولا يدعون الله الى الخلاص منه .. والذين لديهم تسجيلات لخطب هتلر أيضا يندهشون كيف أن هذا الرجل الحاد الحركات والملامح الأجش والذى ليس عميق الصوت والنبرة ، استطاع ان يصيب شعبه كله بالجنون ، فيمشى وراءه حتى الموت سعيدا بذلك .. كيف ؟ أنها الرغبة العميقة عند الشعوب فى أن تمشى وراء من ينقذها ومن يخلصها .. فرغبتها العميقة وخوفها الغريزى ، هو الذى يجعلها لا تفرق بين الانبياء والدجالين .. فكان المثل الأعلى لكل مصرى هو أن يهرب من مصر .. فمصر لم تعد مصر .. وانما مصر قد احتلتها قوات مصرية ، لها طعم القوات الأجنبية ، لها عنف الانجليز ، وبطش اليهود ، وان كانت تتكلم العربية بلهجة مصرية . لم تعد مصر هى البلاد المصرية . لقد أحس المصريون بأنهم غرباء فى بلادهم .. فلماذا لا يختارون بلادا أفضل.. وسوف يبقون فيها غرباء أيضا . ولكنهم فى بلادهم غرباء بل أمل ، وفى البلاد الأخرى غرباء عندهم أمل !

سألت صديقا مصريا يعيش فى موسكو : كيف حالك ؟

قال : غريب هنا وغريب فى مصر .. اقلية هنا واقلية فى مصر .. ولكن احدا هنا لا يجعلنى أشعر بأننى غريب !

وهناك نوعان من الهجرة : الهجرة الطويلة فى أمريكا وكندا واستراليا .. والهجرة القصيرة فى البلاد العربية . فالمهاجر الى البلاد العربية عنده رغبة فى ان يعود وقد امتلأت جيوبه ، ليستأنف حياته فى مصر .. أو توطين نفسه فى وطنه .. فيتزوج وتكون له شقة وثلاجة وسيارة ويكون قادرا على تربية أولاده .. وبعضهم رأى أن الهجرة الى البلاد العربية كانت اقسى واوجع .. فهذه الهجرة قد جاءت بعد الهزيمة العسكرية التى صدمت المصرى والعربى .. وكشفت كم هو « فشار » ذلك المصرى الذى أعلن انه سوف يدخل تل ابيب فى ساعات ويستولى على القدس فى دقائق ويلقى باليهود فى البحر الذى جاءوا منه .. وينتهى كل شىء .. وبذلك يكون جمال عبد الناصر هو الطبعة المنقحة الأنيقة من صلاح الدين الأيوبى أو الاسكندر الأكبر أو نابليون .. أو هو افضل من كل هؤلاء لأنه نابع من أرض مصر ، التى لا تنبت الا القطن والدودة .. فهو خارق لكل قوانين الزراعة المصرية .. فهو « هبة » السماء الى الأرض .. وبسرعة جعله المصريون نبيا او كأنه نبى .. وان لم يكن مثل الأنبياء فهو خامس الخلفاء الراشدين . وهذه وظيفة ومرتبة يدخرها المصريون لكل حاكم خدمهم ، حتى يلقى مصير ثلاثة من الخلفاء الراشدين هم عمر وعثمان وعلى : فيموت قتيلا !

وكان المصريون قبل الهزيمة العسكرية قد اجمعوا على أن المثل الأعلى هو أن يكون كل شاب ضابطا طيارا ، اى ضابطا فى السماء يقتل العدو ويهرب ، وكان ما كان مما نعرفه . وقلنا فى ذلك الوقت أن الطائرات الاسرائيلية التى محقت الطيران المصرى ، كانت تقودها سيدات حوامل ؟ ! اى أن السيدات اليهوديات انتصرت على الرجال المصريين .. ولم يكن سيدات فى غاية اللياقة البدنية ، وانما سيدات مريضات بسبب الحمل وانتظار الولادة . أى سيدات فى أضعف حالاتهن . وكان ذلك امعانا فى تعذيبنا وتحقيرنا لأنفسنا !

ولم نكتف بذلك وانما صدقنا اننا استولينا على قطار ملىء بالأسرى اليهود .. انتصار عظيم .. ولكن لكى نسلب هذا الانتصار من أنفسنا ، قالت الشائعات أن القطار كله مجندات .. اى أن اسرائيل حاربتنا برا

وجوا بالنساء — أما الرجال فلم تجد داعيا لتعبئتهم ضدنا — استمرار فى تعذيب أنفسنا وامتهان ذاتنا وتحقير قيادتنا وزعيمنا !

ولذلك كان على المهاجرين المصريين فى كل البلاد العربية ان يسمعوا الشتيمة وينظروا الى الطعام الجيد الذى يأكلونه والسيارات المكيفة . وان يقارنوا بين الذى هم فيه ، والذى هو فى مصر .. وكانوا يقررون جميعا أن يأكلوا العيش بالجبن !

وأصبح المثل الأعلى عند المصريين فى الخارج : **لا شأن لنا بالسياسة .** نحن خبراء مصريون . أو خبراء يجب أن ننسى اننا مصريون !

وكان المصريون بعد الهزيمة العسكرية يسمعون الأشقاء يقولون لهم : يا بتوع الفول .. يا بتوع الطعمية .. يا بتوع البلهارسيا !

والشاعر القديم يقول :

ولأم المخطىء : الهبل !

ما دام قد أخطأ فهو عبيط وامه وابوه !

ويقولون المثل : العجل وقع فكثرت السكاكين !

وكنت أقول : اذا انهزمنا فنحن مصريون ، واذا انتصرنا فنحن عرب ..

ونحن منهزمون دائما .. فراعنة .. فلاحون .. وفى نفس الوقت نحن بالنسبة للعرب كالزواج : شر لابد منه . لابد منا ولابد منهم !

ولا احد فى مصر على كل مستوياتها يعرف عدد المصريين المهاجرين .. انهم لا يقولون عند خروجهم من مصر ان كانوا مسافرين أو سائحين أو أن عشرات البلاليص قد انكسرت وراءهم حتى لا يعودوا . هم الذين اشتروا البلاليص !

وكأن الدولة لا تريد أن تعرف عددهم .. فهى لا تريد أن تبدى اهتماما بالذين تركوا لها البلاد وما عليها ومن عليها .. فهى لا تعترف بأن هؤلاء المهاجرين غاضبون ساخطون هاربون .. او أن الدولة سعيدة بذلك .. فالباب يسع الجمل وما حمل .. أو السكة التى تودى .. فالفلاحون هجروا القرية الى المدينة .. ثم هجروا القرية الى المدن الأجنبية ، دون أن يتوقفوا لحظة فى اية مدينة مصرية ! الفلاحون هاجروا الى العراق .. يقال مليون ويقال اثنان ويقال ثلاثة. .والصيادون المصريون هاجروا من دمياط الى الجزر اليونانية .. والصيادون اليونانيون تركوا لهم البحر ليعملوا سائقى تاكسى .

وسائقو التاكسى ليعملوا جرسونات فى الفنادق التى هجم عليها المصريون هربا من مصر . فاليونان ارخص وأنظف وأجمل !

لقد كانت الهزيمة العسكرية مثل طوفان نوح ، خربت بعده الأرض ونجا القليلون مع نوح .. فنوح عليه السلام هو « آدم الثانى » الذى بدأت به البشرية حياة جديدة .. وتفرق أولاده بين القارات .. تماما كما حدث بعد « سيل العرم » فى اليمن تفرقت بعده قبائل خزاعة وغسان والأزد والأوس والخزرج . ولكن المصريين المنكوبين فى عقولهم وقلوبهم وأحلامهم تفرقوا وتشرذموا على أرضهم .. فاذا كان لابد من الهوان والاهانة فلتكن اهانة وطنية .. اهانة أخوتهم المصريين لهم أوقع وأوجع . والشاعر يقول : وظلم ذوى القربى أشد مضاضة .. والمثل الشعبى يقول : الدخان القريب يعمى .. والعيار القريب يدوش .. وقد اشتدت مضاضة ومرارة المصريين الذين أعماهم دخان ونار أقاربهم . ولكنه أرحم من دخان ونار الأشقاء العرب !

وكل الجماعات الدينية مهاجرة من مصر الى مصر .. كلهم رافضون ساخطون غاضبون .. اقتلعوا جذورهم بأيديهم من الأرض الخصبة . وأعادوا زراعتها وشتلها فى الكهوف المظلمة وعلى أطراف الصحراء .. انهم مهاجرون من مصر اليها .. تماما كما تضرب طفلك فيلوذ منك اليك !

فما المثل الأعلى ؟

عند الفلاح : أن يكون « أفندى » .

وبعد الثورة : أن يكون الأفندى جامعيا ..

عند الجندى : أن يكون ضابطا ..

عند جندى الشرطة أن يكون : أمين شرطة .. عند امين الشرطة أن يكون ضابطا .. عند ضابط الجيش أن يكون مثل ضابط الأمن لا يحال الى المعاش فى الخمسين ؟ !

جاءت ثورة يوليو واقتلعت ملكا واحدا وعينت مائة ملك .. الف ملك .. وضعت على رءوس كل المؤسسات ملوكا وأمراء من لابسى الكاكى .. لماذا ؟ انهم الذين أشعلوا الثورة ولابد من المكافأة . والمكافأة أن يظلوا فوق .. فوق كل المدنيين ، دون ثقافة أو علم او كفاءة !

ولذلك كره المدنيون أن يكونوا مدنيين .. فلا أمل عندهم . لأن السقف قد هبط فوقهم كتلة من الخرسانة المسلحة ، لا يحق لهم ان يخترقوه أو يتطاولوا اليه أو عليه .. وكرهوا أن يكونوا عسكريين . فما الذى فعله العسكريون بمصر .. فالعسكريون بعد الهزيمة العسكرية قد اهينوا مرتين: مرة فى الحرب عندما واجهوا اسرائيل ومرة عندما عادوا يواجهون الشعب ..

ولكن العسكريين شعروا بالارتياح عندما خرجت المظاهرات «المفبركة» من المدنيين تطالب الرئيس جمال عبد الناصر ان يبقى رغم الهزيمة .. لقد شمت العسكريون فى المدنيين الذين ارتضوا الهزيمة .. وطبلوا وزمروا ورقصوا : فداك ألف هزيمة وهزيمة يا ريس ! وكانت المظاهرات نوعا من « الزار » القومى .. ألوف يضربون أنفسهم بالجزم والسيوف حزنا على النكسة ، وحزنا على أن قائد النكسة فكر لحظة واحدة فى ان يلقى المصير الذى يستحقه من الشعب .. كيف يفكر فى ذلك ؟ صحيح أنه هو الذى انفرد بالتفكير لكل الناس والتدبير لهم .. فهو الذى خلع الملك وخلع العقل أيضا .. لقد ترك الأمر للشعب . والشعب لا أمر له ولا رأى . فالرأى رأيه والأمر أمره . ولذلك كان قرار الشعب هو قراره هو . وامره هو . فقال بلسان المتظاهرين : يجب أن أبقى . وبقى وأحس الناس الطيبون أن المظاهرات استفتاء شعبى حر بعودته الى قيادة مصر من هزيمة الى هزيمة.. ومن كفر به الى كفر بأنفسنا . وضاعت كل الطرق وكل القيم ثم مدلول الكلمات والشعارات .. وعجز الناس عن التفكير والتدبير والتفرير .. وعن البقاء وعن الهجرة . فكان الحل الوسط الذى هو انعدام القرار أو هو تعليق الحكم : أن يبقوا وكأنهم ليسوا فى مصر ، وأن يهجروا مصر الى مصر !

وداخ الأطفال والشباب بين بابا جمال والبطل جمال وبين مهندس الهزيمة ونقص المناعة النفسية والجسدية والقومية . ضاعت الحقيقة . وما تزال ضائعة . ماذا حدث ؟ كيف حدث ؟ ماذا قلنا للأطفال ماذا بقى للشباب ؟

وجاء أنور السادات يصحح كل الأخطاء والخطايا .. وفى ثلاث سنوات عرفت مصر أعظم انتصاراتها .. واروع أمجادها العسكرية . ولكن كان النصر مثل زفاف عروسين فى غرفة الانعاش .. صدمة قوية بعد صدمة اقوى .. لكمة فى الراس ولكمة فى القلب .. حضن حار حطم الضلوع ..

وتوالت انتصارات السادات داخليا وخارجيا .. وكانت مثل باقات الورد فى غرفة مريض .. العطور قوية ولكنها خانقة ؟!

قال شوقى : الموت بالزهر مثل الموت بالفحم !

اى دخـــان الفحم قاتل ، مثل الزهـــور الـــكثيرة اذا تنفست ثانى اوكسيد الكربون . فهو قاتل أيضا !

واغراق انسان فى طمى النيل ، مثل اغراقه فى بانيو من الشمبانيا . كلاهما مميت !

وارتبك الناس مرة أخرى . ما المثل الأعلى ؟ ماذا تريد لنفسك ولأولادك ولبـــلادك ؟

انفتحت أبواب مصر .. دخلت البضائع والفلوس .. انتعشت التجارة والصناعة . كل الناس يريدون أن يكسبوا .. الفلوس .. صنم جديد كنـــا قد نسيناه .. أحسسنا كأننا بنو اسرائيل تركهم موسى ليكلم ربه .. ثم عاد موسى ومعه وصاياه العشر : لا سرقة .. لا قتل .. لا زنى .. ولكن وجد قومه قد اهتدوا الى سر الكون : جمعوا الذهب وصنعوا منه تمثـــالا يعبـــدونه !

وأمام الذهب يذوب الحديد والحدود . وتناولت القصص والمسرحيات والأفلام عريس المستقبل .. العريس المثالى : وكان على الفتاة الجامعيـــة وعلى الأسرة كلها أن تختار بين الأسطى الغنى صاحب الشقة والفيـــديو وبين الجامعى المفلس الا من آماله الكاذبة وغضبه النبيل وايمانه بتدخل السماء عند آخر لحظة . واختارت اسرة الفتاة : الأسطى صاحب العمارة القادر على أن يكون أبا لأولاد يتعلمون فى مصر وخارجها !

وكان ذلك بداية وتعميقا لأزمة ثقة بين الشباب وبين الدولة :

هل زواج الجامعية من غنى جاهل معناه أن التعليم لا قيمة له .. وأن المثل الأعلى عند الشباب بأن يـــكون جامعيـــا كلام قـــديم .. كلام فارغ ؟! فكأن الدولة تعلم الناس مجانا لتخلق منهم ساخطين متعلمين وكافرين جامعيين .. ثم تطل عليهم من تليفزيون الدولة وصحفها وتخرج لسانها وتقول لهم : كما مات آباؤكم بغيظهم ، عيشوا انتم بغيظكم !

وبسرعة انقسم الجميع نصفين : اناس عندهم فلوس ، ولذلك فعندهم

كل شيء آخر .. وأناس جامعيون مفلسون وليس عندهم أي شيء ، الا السخط على الدولة وعلى أنفسهم .. والا التربص بالجميع !

لقد وقف رجلان في مواجهة الشعب المصري والعربي :

عبد النـاصر والســادات ..

أيهما البطل .. هل المنهزم كان على حق ، والمنتصر كان خائنا .. الذي أعطى اسرائيل كل الأرض وكرامة مصر وعزة العرب .. أو الذي استرد الأرض والعرض والكرامة والثراء ووعد بالسلام والرفاهية ..

وعبد الناصر مات مسموما ؟

والسادات قتيـلا !

فما هو الثواب وما هو العقـاب !

وما هذا البلد الذي يقتل أبطاله ويبكيهم ؟ وما هذا الشعب أيضـا ؟ وما هـذا العنف في رواية التاريخ ؟ وما هـذا العنف في مسح التاريخ ؟ وما الذي يريده الشباب لنفسه ولبلده ومن بلده ؟ من الذي قهره على أمره ؟ من الذي أكرهه على دينه ؟ من الذي أطال أظافره خناجر ، وجعل دينه « ديناميت » ؟.

ولمـاذا كل ناجح غشاش ؟.

ولمـاذا كل غني لص ؟.

وكيف ينجح الناس وكيف يصبحون أثرياء .. ما هي قواعد النجاح ؟ ما هو هدف النجـاح ؟.

النجـاح : فلوس وشهرة وسلطة ..

والنجـاح : يشتري كل السبل من اجل استمراره . ولو كان ذلك على جثث الآخرين من الفقراء والأبرياء ..

الفلوس من اى طريق ومن كل طريق .. والفلوس كالأسمدة لابد من نثرها في كل مكتب ، وبذرهـا في كل أرض .. ولابد من الرشوة وشراء العلاقات والخطوات وكل المواصلات الى الشهرة والسلطة !

واختلط على النـاس كل شيء :

لقد جاء عليهم وقت يقولون ان الهزيمة العسكرية وفرت لهم الطعام والشراب .. اى أن الهزيمة العسكرية كانت خيرا على الفقراء ؟!

وكانت الهزيمة كالانفتاح الاقتصادى أيام السادات : الدكاكين مليئة بالبضائع والجيوب مليانة بالفلوس ..

ولكن الهزيمة كانت افضل فلم تكن لنا صلة باسرائيل ، أما الانفتاح فقد ملأ البيوت بكل أنواع الأطعمة ولكن جعلنا نتفق مع اسرائيل فيغضب كل العرب ..

مغالطة كبيرة وقعنا فيها ، وعندنا استعداد للوقوع فى المغالطات لأننا لا نفكر .. لأن عقولنا قد نزعت منا منذ وقت طويل .. هى الأخرى اموها وصادروا معها الأمل فى اى شىء وأى أحد .. فقد صدرت الأوامر بملء أفواه الناس بالطعام .. واذا امتلأ الفم استحت العين أن ترى ، واذا رأت أن تقول ، واذا قالت أن يكون همسا .. وألا تكون نكتا ، فالرئيس عبد الناصر هو أول حاكم فى التاريخ طلب من الشعب الا يطلق نكتا على الجيش .. ولم تكن على الجيش وانما على قيادة الهزيمة العسكرية والخديعة الوطنيـــة !.

ارتبك الناس واختلطت عقولهم وتداخلت آمالهم وهذيانهم ، وتحيرت فى ايديهم أدوات اغتيالهم لزعمائهم .. وتلعثمت الأقلام تلطخ تاريخ مصر الحديث بين العدوان على عبد الناصر سنة ١٩٥٤ والعدوان على السادات سنة ١٩٨١ .. وقبل ذلك بعد اغتيال النقراشى باشا والامام حسن البنا .. ثم اغتيال اجهزة الأمن القومى ، وزراء الداخلية !

ياناس يا هوه .. لقد توضأنا ونريد أن نصلى : أين القبلة ؟ أين الامام ؟ ما الصواب ما الخطأ ؟ ما الوطنية ؟ ما هى الخيانة ؟ ما هى الأمانة ؟ ما النجـــاح ؟ ما السعادة ؟ ما الحـــل ؟.

لقد حاول عبدالناصر والسادات أن يحققا نوعا من التوازنات العنيفة .. استعان عبد الناصر بالشيوعيين لضرب الاخوان .. لقد اختل التـــوازن بعد الهزيمة .. واستعان الســـادات بالاخوان لضرب الشيوعيين فقد اختل التوازن بعد النصر .. انها قصة الفئران والقطط فى استراليا .. عندما استشرت الفئران تأكل الطيور والحقول ، استوردت استراليا القطط تأكل الفئران .. فأكلت الفئران وانتقلت تأكل الطيور والأطفـــال الصغار ..

فأتوا لها بالكلاب تطارد القطط ولكنها تأكل الارانب ، وتحولت الكلاب الى ذئاب .. ولم يتحقق التوازن العاقل بين قوى البيئة .. وفى الهند عندما انتشرت موضة الشنط والجزم من جلد الثعابين فى أوروبا وأمريكا ، هجم الهنود على ملايين الثعابين يقتلونها ويبيعونها .. وفجأة أحس الهنـــود أنهم ارتكبوا غلطة قاتلة لملايين الهنود .. فالثعابين كانت تأكل الفئران التى تأكل حبوب القمح والذرة .. فلما اختفت الثعابين انفردت الفئران بكل المحاصيل .. ولذلك حرمت حكومة الهند قتل الثعابين لكى تأكل الفئران فلا يموت ملايين الهنود من الجـــوع ..

لقد قام عبد النـــاصر والسادات بتقليب المجتمع وتأليب فئاته بعضها على بعض . لعبة خطيرة . وأخطر من هذه اللعبة أننا انتقلنا من حرب مع اسرائيل الى حرب مع مصر .. انتقلنا من حرب محدودة معروفة الملامح ، الى حرب داخلية سرية حدودها بين الانسان ونفسه ، وبينه وبين أسرته وجامعته ومجتمعه وبلده .. بين دينه ودنيـــاه . فطالت لحى الشباب وتبرقعت الفتيـــات ..

ولكن المثل الأعلى لهذا المجتمع التجارى الصناعى — أو الذى يحاول أن يكون كذلك — هو الخطف .. الخبطة .. اللطشة .. المكسب السريع .. والهرب بعد ذلك .. واصبح الخطف معادلا للشطارة .. والشطارة هى الذكاء .. وأصبح اللص الفاشل هو الذى يقع فى قبضة البوليس ، أما اللص الشاطر فهو الذى يشترى أمنه وأمانه ، ويبقى بعيدا عن العيون والآذان .. فاللص الضعيف هو الذى يجب الا يكون ، وانما اللص القوى ، هو أيضا اللص الشريف ، لأن أحدا لا يدرى به ..

وامتلأت الدنيا باللصوص من التجـــار والشطار والساسة . ولهم جميعا صفة واحدة : خداع الناس !

وعند الأغريق أن للتجار واللصوص والخطباء والساسة ربا واحدا ، هذا الرب اسمه : عطارد .. هذا الرب عنده قدرة فريدة على أن يظهر وان يختفى .. وأن يتخذ أى شكل : انسان حيوان نبات جماد .. وهذا الاله الأغريقى هو الذى اخترع القيثارة بأوتارها .. فهو قادر على أن يخدع وأن يكذب وأن يغالط وأن يقنع وأن يبهر .. وان يسرق أيضا .. وشعاره : أن يدخل قلبك ويسرق كلبك ! وعيده هو شـــهر يونيو من كل عام ، ففى ذلك الشهر يمشى التجار واللصوص والساسة فى طوابير يقدمون القرابين لهذا

الرب ويستغفرون لأخطاء عام مضى ، ويطلبون معاونته على خطايا عام قادم .. وكان يعدهم بذلك . فهو يعلم أن اللصوص لا يتوبون وانه هو شخصيا يسرق الكحل من العين ، والبريق من النجوم ، والحرارة من الشمس والرحمة من القلوب .. وهو القادر على ان يحول الوردة تلقيها الى من تحب ، الى سهم يصيب القلب !

* * *

ما الذى أصاب الناس ؟

تسأل اى واحد : ماذا تريد ؟

ويكون جوابه : وحياتك ولا حاجة .. الستر .. وأربى العيال !

كأنه غلطان لأنه تزوج وكأنه غلطان لأنه انجب أطفالا .. وهو لا يطلب الا ان يكون مستورا أمام اولاده فلا تفضحه ملابسهم الممزقة ، ومصاريف الدروس الخصوصية ، وان يجدوا عملا بعد التخرج . فقط أن يجد شباكا يقفله اذا نام ، وبابا يغلقه اذا اكل ، وان يضع أولاده على أول الطـريق والباقى عليهم .. فقد قام بما عليه .. ويا الله حسن الختام !

وكما ترى فهو لا يعمل ولم يعمل ولا يريد أن يعمل .. فقط أن يعيش على الحد الأدنى من اى شىء .. وان اراد اولاده أن يعيشوا أفضـل فهذا شأنهم . ولكن كيف يعيش الأولاد افضل ، واذا كانوا غير قادرين على أن يغيروا دنياهم ؟ فلا دخل لهم فى الذى حدث .. فكيف يغيرون ما لم يرتكبوا ؟ وكيف ينجحون وقد انسدت أمامهم كل ابواب الأمل فى شىء أو الى شىء !

قيل : الأمل فى الأرض ..

قيل : الزراعة كنز لا يفنى !

وما أوسع أرض مصر . ولكننا نحن الذين نضيقها .. ونشـدها علينا ونخنق بها انفسنا .. نحن نأكل الأرض المزروعة ونبنى فيها البيـوت أو نبنى عليها البيوت .. واذا اعطينا الشباب ارضا وأملا ليزرع ، عـدنا وخنقناه فى ارضه وعلى ارضه .. فكأنه فاتنـا ان نخنقـه على الأرض المزروعة ، فانتظرناه حتى يصلح ارضا جديدة لنقطع عنه المـاء والنـور ونطلق عليه جراد الضرائب والمجتمعات الجديدة والاصلاح والكهرباء والرى وهى الآفات الجديدة لكل المجتمعات الشابة .. وتبقى الأرض ، كما كانت من ملايين السنين .. أما الذى يذبل شكلا ومعنى فهم الشباب .

يا ناس يا هوه .. ارفعوا ايديكم عنهم واتركوا أيديهم تعمل وتزرع.. واتركوا عقولهم تفكر ، وقلوبهم تخفق ، وآمالهم ترفرف .. اعيدوهم الينا ، حتى لا يهجرونا ويكفرونا .. اعيــدوا لهم « المثــل الأعلى » .. والقيم الأخلاقية والاجتماعية والاقتصادية ..

ان الاغريق قالوا قديما : ان الحجر المتحرك لا ينبت عليه العشب !

وأرضهم تتحرك يمينا وشمالا وأعلى وأسفل ، وهم أيضا . فبــالله كيف ينبتون على أرضهم .. وكيف يثمرون أملا ونورا فى مستقبل مصر ؟ !

□□□

حتى يعود زمن عمر بن عبد العزيز !



كان ذلك فى نوفمبر ســـنة ١٩٤٣ فى طهران . وكان المتحدث هو ستالين . قال كثيرا عن بلاده وعن استعداد القوات السوفيتية لخوض كل أنواع الحروب . وانه سوف ينتصر حتى لو انهـــزم الحلفاء جميعا .. واقترب من تشرشل اكثر واكثر وقال : حتى لو انسحبت بريطانيا من الحرب .. فان الجيش السوفييتى ســوف يجتاح أوروبا كلها وسوف يدق باب مكتبك ويوقظك من نومك السعيد !

واحس تشرشل أن ستالين يكذب ، وانه يريد أن يوهم تشرشل أن روسيا قوية لهذه الدرجة . وانه لا يثق فى الانجليز . فقال له تشرشل : اسمع يا سيدى ان الحقيقة ثمينة جـــدا لدرجة انه من الضرورى أن تحشد لها جيشا من الأكاذيب لحمايتها !

ومعنى ذلك انه يقـــر ستالين على كل هــــذه الأكاذيب . ويراها ضرورية فى الحرب . وهـــذا ما فعله تشرشل نفســـه . فعندما هاجمت القوات اليابانية حامية بريطانية فى سنغافورة لم يجد اليابانيون الا ثلاثة جنود .. بينما كانت الاذاعة البريطانية تؤكد انها حامية القـــدر .. وان اليابان سوف تفنى جميعا عند ابوابها ولن تدخلها !

ولكن الـــذى قاله تشرشل كان مجرد احساس الزعيم السياسى الذكى بالأزمة التى تعانيها بريطانيا والحلفاء .. وامام الاستعداد الهائل للألمـــان كان على الحلفاء أن يحاربوا بهذين الجيشين : قواتهم المســلحة وأكاذيب الدعاية التى تحمى حقيقة هذه القوات !

وفى ذلك الوقت كان الألمـــان قد اهتـــدوا الى نظرية جـــديدة فى السياسة والدعاية والحرب . هـــذه النظرية هى التى ابتدعها وزير الدعاية النازى جوبلز . النظرية تقـــول : اذا كانت هناك أزمة ، فمن الضرورى جعلها أعمق واقـــوى .. حتى يشـــعر المواطن بأن هـــذه الأزمة مزمنة ، وأنه لا خروج منهـــا . فاذا كان هـــذا احساسه فمن الواجب اظهـــار المعجزة . والمعجزة هى الحل . فاذا انحلت عاد اليقين الى الشـــعب بأن القيـــادة ما تزال قادرة على المعجزات . قادرة على النصر على العدو ..

أو بعبارة أخرى : انها نظرية الشحن والتفريغ .. أى شحن الناس بالأزمة حتى تتفجر جوانبهم أو تكاد .. ثم حلها . ويكون لهذا الحل دوى . ويكون الدوى دليلا على القدرة والانطلاق !

ففى سنة ١٩٤٢ استطاع مونتجمرى ان يتغلب على القوات الألمانية فى العلمين . انها بداية النصر الانجليزى والهزيمة الألمانية !

والقيادة الألمانية أمامها عـــدة بدائل :

اما ان تعلن أنها انهزمت تماما ..

واما أنها تتراجع لتنظم خطوطها ، وانها سوف تنتصر حتما ..

واما أن الانسحاب وبداية الهزيمة الألمـــانية فى شـــمال أفريقيا هى سياسة عليا لتتمكن القوات الألمانية من مواجهة الحلفاء فى أوروبا .

ولكن وزير الدعاية الألمـــانى كان لديه بديلان فقط :

ان يعلن ان الهزيمة تمت وكان روميل على رأس القوات الألمانية .. أو يعلن أن الهزيمة تمت وكان روميل غائبا فى أوروبا يفتش على الاستحكامات ويدعمها .. أى ان الهزيمة وقعت بسبب غيابه عن الجبهة ولو بقى روميل فى الجبهة ما استطاع مونتجمرى وجنوده أن ينتصروا على الألمان !

ولم يتردد هتلر فى ان يعلن أن القــوات الألمــانية تنسحب لأنها انهزمت . دون ذكر لغياب روميل !

أما المعنى فهو أن هتلر يريد أن يقول أنه انهزم مع وجود روميل . فالهزيمة لاشك فيها . وان على الجنود أن يدركوا أن روميل الاسطورة من الممكن أن ينهزم . وقــد انهزم !

وكان ذلك هو القـــرار الصحيح . لأنه لو أعلن أن الهزيمة تمت فى غياب روميل ، لتساءل الجنود ، ولمــاذا غاب ؟ ومن هــذا الجاهل الخائن الذى أصــدر قرار غيابه ؟ ولابد من عودة روميل ليحقق النصر . وعلى ذلك يطالب الجنود بضرورة أن يعود القائد الاسطورة . فلماذا لم يعــد القــائد ..

والحقيقة أنه غاب عن الجبهة .. ولكن ليس من المصلحة أن يقال ذلك . وانما الكذب أسلم . لقد انهزمت المــانيا . وليس من الضرورى أن يعرف الناس ما الــذى حــدث بالضــبط .. وانما سوف يجىء وقت ليعرف الناس تفاصيل ما حدث !

هذه النظرية هى القاعدة الأولى لنظرية أوســع اسمها : نظــرية ادارة الأزمات .. فن ادارة الأزمات ..

وقبل أن أقارن بين الــذى حــدث فى هزيمة سنة ١٩٦٧ عندنا ، يجب أن أشير الى ما فعله الأمريكان فى ادارتهم لأزمة فيتنام — هزيمتهم فى فيتنام . لقد استخدم الأمريكان قــوات ضــخمة وأحــدث أسلحتهم الفتاكة للانسان والحيوان والنبات . ورغم كل ذلك انهزمت أمريكا .

فكيف أدار الأمريكان هــذه الأزمة ؟

كان عندهم هــدف أهم من الحرب . هو أن يظل الشعب الأمريكى والعالم كله يصدقهم . يجب أن يصدقهم النــاس مهمــا حدث . فالهزيمــة والنصر تجىء فى الدرجة الثانية . أما الــذى يجىء فى المقام الأول فهو أن أمريكا لم تكذب . ولن تكذب . وانها سوف تصارح العالم بما حدث .. يجب أن يصدقها الناس فى الحرب القصــيرة والسلام الطويل .. يجب أن يصدقها العالم كله .. التاجر الأمريكى والمهنــدس والمدرس ورجل الدين والسياسى والرئيس ورجاله .. يجب أن يصدقهم الناس اذا تحدثوا عن الهزيمة وعن ويلاتها وأثرها العميق على الشباب وعلى صــورة البطل الأمريكى والأمل الأمريكى .

وهكذا خرجت أمريكا منهزمة عسـكريا منتصرة سياسيا فى معارك فيتنام . وعندما ثار عليهـا الشـباب وتظاهروا ضـدها ، أعلنت أن الشباب على حق وانها هى التى اخطأت فى احـدى عمليات الحساب ، لا فى كل الحسـاب .. وانتهت أزمة فيتنام لصـالح الحكومة الأمريكية والشعب الأمريكى أيضا !

بينما فشلت أمريكا قبل ذلك فى معركة خليج الخنازير ايام الرئيس كنيدى . فـكان الذى يهم الرئيس كنيـدى أنه انتصر وسـوف ينتصر . أما الحقيقة فلم تكن تهمه . فكذب ورجاله أيضـا . ولم تؤد الصـواريخ السوفيتية فى كوبا الى اختلال فى توازن الرعب النووى بين الشرق والغرب !

فماذا كان يحدث لو أعلن الرئيس عبد الناصر اننا انهزمنا عسكريا سنة ١٩٦٧ ؟ وأنه هو المسئول عن الهزيمة . أو أعلن اننا انهزمنا . وترك لنا أن نفهم أنه هو الـذى انهـزم — أى هو ورجاله وكل استراتيجية الحرب وتكتيكات الدفاع .. وأن الهزيمة ليسـت نهاية مصر ولا نهاية الصراع بين مصر واسرائيل .. وان الحـرب لابد منها ، وأن التعبئة العامة مؤجلة ... الخ .. وترك حـكاية الفاعل الحقيقى للهزيمة الى ما بعد سنة أو سنتين .. لو حـدث لتغير الكثير جـدا فى ظروف مصر العسكرية والسياسية . وأهم من ذلك ما تركته هـذه الصاعقة الصريحة الجريئة من اثر على حالتنا الاجتماعية والنفسية .

ولكننا لم نكن نعرف نظرية تشرشل ولا فلسفة جوبلز .. وانما كان الارتجال والحداقة والفهلوة هى التى جعلتنا نشير الى عبد الناصر الذى يشير الى عبد الحكيم عامر الـذى يشير الى صلاح نصر الذى يشير الى اعتماد خورشيد — اقرأ مذكراتها ؟ ! .. فلا أحد فيهم مسئول عن الذى حدث .. ولكنه شخص ما ، رجل أو سيدة ، مصرى أو أجنبى أو عفريت هو الذى أدى الى الهزيمة العسكرية .

ولو كان جوبلز وزيرا للاعـلام المصرى ، لقام بتعميق الشعور بالأزمة .. حتى تتمـكن الأزمة من كل النفوس .. ومع الأزمة حزن الزعيم على الـذى كان .. على الخيانة الأمريكية للشعوب العربية كلها والشعب المصرى بصـفة خاصة ومحاولة القضاء على الزعيم ودفنـه حيا بين جنوده . ويكون الحداد شاملا والحزن عميقا . وفجأة بعد أن يتأكد لدى الناس أنها الهزيمة ، وأن القتال سـوف يستمر بأسلحة أخرى يعلن أن

الزعيم لم ينهزم ، وانما هى غلطة من غلطات الزعيم — الذى لا يخطىء — انه كان عميق الثقة بأعز اصدقائه . ويتجه الناس الى الصديق الخائن .. فالصداقة من الممكن أن تـؤدى الى الخيانة ، أى من الممكن أن يخونك اقرب الناس اليك .. ومن الممكن أن تعميك الثقة بالصديق ، وأن يعميك الصديق عن أن ترى الحقيقة .. حقيقة الصديق وحقيقة الواقع .. وهكذا يؤدى كشف الغطاء عن الحقيقة الى انهيار الأخلاق ايضا .. ويصبح الانهيار تاما : عسكريا واخـلاقيا واجتماعيا واقتصاديا .

وفى مواجهة هـذا الضـياع المفاجىء لابـد من التلويح بأطـواق النجاة . ومن احق الناس بأن يكون « نوح » الجديد غير الزعيم .. انه زعيم الحرب زعيم السـلام .. انه هو الـذى هدمنا ، وهو الـذى سوف يبنينا .. وهو الذى أماتنا وسـوف يحيينا ، وهو الذى مسح بنا الأرض ، وسوف يمسح بنا السماء .. انه وانه — ولحسن الحظ لم يحـدث كل ذلك . وانما حـدث استعراض ركيك لفن مسرحى هزيل جدا . عندما حشد الزعيم رجاله يطبلون ويزمرون ويطالبون بعودته : ولا يهمك الهزيمة ولا الف هزيمة يا ريس .. اركب يا ريس .. خدودنا مداس يا ريس .. وضربك لنا بالجزمة شرف يا ريس !

وكل هـذا لا يهم ، سواء كان تطبيقا ناجحا او فاشلا ، لنظرية ادارة الأزمات ، ولكن الأخطر ، ولا يزال خطيرا ، هو اننا لم ندرس لم نفهم لم نحلل ماذا حـدث فى مصر بعد هزيمة سنة ١٩٦٧ وبعد انتصارنا سنة ١٩٧٣ ؟ .. فكما كانت الهزيمة فالنصر كان ازمة أيضا . فقـد خلقت موقفا معقداً . وقـد تضاعفت العقد وكبت بعضها البعض ، حتى أصبح من العسير علينا أن نعرف البداية والنهاية .. وأن نعرف اين نحن واين كنا والى اين .

وكما أن هناك أجهزة للرادار فى الطائرات ترسم شكل الجو .. شكل السحب ومواقع المطبات الهوائية والشحنات الكهربائية .. فيستعد الطيار .. والركاب بربط الحزام وعدم الحركة .. أو بالدعاء والصلاة .. فهناك موقف آخر للطيار نفسه .. كيف يدخل المطب وكيف يخرج منه .. ويكون اتجاه الريح معاكسا ، ويكون اتجاه الريح مناسبا .. وتكون الطائرة فى قلب الأعصار .. فى عين الأعصار .. نحن احـد اطرافه .. هل يعلو الطيار فـوق الأعصار .. هل يهبط تحته ، هل يقتحمه .. هل يخاطر ..

وكلها حسابات دقيقة . فما هـذا الذى حدث ويحدث فى هـذا الوقت القصير وبهذه السرعة الكبيرة وعلى هـذا الارتفاع الشاهق وبهذا العدد الكبير من المسافرين .

انها ازمة .. انتظار للأزمة .. دخول فى الأزمة .. تلاحم مع الأزمة.. احتواء لها .. خروج منهـا وانتصـار للعلم والعقل والأعصاب ونجاح لصناعة وفن الطيران والرحـلات بين القارات .. وعودة الى ركوب الطائرات من كل نـوع فى اى وقت !

وماذا تحدثه البراكين والفيضانات والسـيول والجفاف والحرائق والسحب السامة والاشعاعات النووية .. وكلها مقدمات لأزمة وأزمة وحل لكل مشاكلها بعد ذلك !

فما الذى انتهينا اليه فى مصر — اقصد دراويش الرئيس عبد الناصر : ان الهزيمة حدثت فى غيابه .. وأن النصر ايضا حدث فى غيابه .. فاذا غاب انهزمنا ، واذا غاب انتصرنا .

اى انه انهزم حيا ، وانتصر ميتا — كيف ؟!

ماذا حدث فى عالم الأدب والفن ؟

كيف كانت الهزيمة .. كيف تلقينـا كل ذلك .. كم من اشعاعاتها السامة امتصتها أرضـنا وسماؤنا واجسادنا وأقلامنا .. كيف واجه المفكر والأديب والفنان والمدرس وخطيب المسجد هـذا الـذى حدث .. ماذا قلنا لبعضـنا البعض .. ما الذى قاله الأب للابن .. وما يقوله الابن الذى هو فى العشرينات الآن .. وماذا سيقوله هو ايضا لابنه .. وهل ابن العشرين يـكن أى احترام لوالـده .. وهل يتصـور أن ابنه سوف يحترمه هو ايضا .. ولمـاذا انعدام الاحترام بين الجميع .. فما هـذا الذى لم نعد نحترمه . اننا وقعنا فى الـذى حرص الأمريكان الا يقعوا فيه بعد فيتنام . أن تغرق الدولة والشـعب فى بحـور الكذب .. الكل يكذب .. ولا أحد يصـدق أحدا . واذا كنت أنت لا تصدقنى فما الذى يدعونى الى الـكلام .. واذا كنت كلما فتحت فمى بـكلمة ، فتحت فمك بتثاؤب .. فاذا تثاءبت انسدت أذناك .

دخلت مصر مرحلة التثاؤب الطويل . الكل يتكلم والكل يتثاءب .. الكل يتكلم والكل لا يسمع . ما اسم هـذا الحوار بيننا ؟ . ما معنى هذا

الاصرار على الكلام والصمم .. ما معنى الأفواه التى فتحناها والآذان التى سـددناها ..

ان روحا من « الهزل » قد أغرقت مصر بعد الهزيمة العسكرية .. الكل يهذى ويهزل .. أو الكل يهزل فهو هذيان ، أو الكل يهذى فهو هزل !

ليس بالضبط كذلك . ولكن الأصح أن نقول اننا دخلنا فى حالة من « العبث » ـ اى اللعب فى موقف الجد . والجد فى مقام اللعب .

فالعبث معناه الفلسفى : فقدان المعنى .. فقدان المنطق .. فقدان دلالة الألفاظ .. تماما كما تمتلىء جيوبك بعملات ورقية كانت لها قيمة .. ولسبب ما الغيت .. فأصـبحت ورقا لا تساوى وزنها ترابا .. وكذلك الكلمات أصبحت بلا عائد بلا مدلول .. بلا معنى .. فالكلمات أصوات .. وليس غريبا ان نقابل هذه الأصوات بلا اذن..هن ..حق.. ها .. بها .. شوها ـ مثل هـذه الأصـوات تخرج من الصحف ومن الاذاعة ليـلا ونهارا . من يطلقها يعلم أنه لا يقول شيئا ، ومن يسمعها يعلم أنه لا شىء .. ولكن هناك اصرارا على أن يقال ، وعلى أن يسمع !

وقد تنبأ الرئيس جمـال عبد الناصر بحالة العبث هـذه فى كتابه « فلسفة الثورة » . فقد أشار الى نفسه وزملائه الثـوار كأنهم شخصيات فى مسرحية الـكاتب الايطـالى بيراند للو ـ المسرحية اسـمها « ست شخصيات تبحث عن مؤلف » . يريد الرئيس عبد الناصر أن يقـول من الفهم البسـيط لعنوان المسرحية ـ هو يسـميها (رواية) ؟! انهم كانوا حائرين بأفكارهم واشخاصهم يبحثون عن واحد ينظم لهم أفكارهم واهدافهم أو يضـعهم فى النص الصحيح ويطلقهم على المسرح ادوارا فى الحياة !

هذا هو الفهم العابر البسـيط لعنـوان المسرحية التى لم يقرأها الرئيس قطعا .. ولكن المعنى الـذى قصـده المؤلف الـذى اصدر هذه المسرحية عندما كان الرئيس فى الثالثة من عمره ، فهو شىء آخر تماما .. فالمسرحية تصور مجموعة من الممثلين يقومون ببروفات لاحدى المسرحيات . وفجأة ظهر ستة أشخاص يقتحمون المسرح ويواجهون المخرج ويقـولون له : ان مؤلفا قد اخترعنا جميعا . فكل واحـد يعرف اسـمه ورسمه ومكانه فى الحياة . ولـكن المؤلف لم يشأ أن يكملنا .. فكل واحد منا هو حقيقة الا قليلا . ونحن نريد أن تؤدى أدوارنا التى خلقنا لها ..

وهى مفاجأة كبرى للمخرج وللممثلين الآخرين .. فنحن أمام شخصيات لها قــوة الواقع . وأمام ممثلين يحاولون أن تكون لهم قــوة .. وممثلين يحاولون أن يقوموا بأدوار هذه الشخصيات .. وهؤلاء الممثلون لايستطيعون أن يؤدوا أدوار الشخصـيات .. لأن الشخصيات « تعيش » أدوارها .. بينما هؤلاء الممثلون « يؤدون » أدوار الشخصيات ..

أى أن هناك واقعا ووهما .. والشخصية لها واقع أدبى ، ولكنه واقع قوى .. والممثلون لهم واقع مسرحى ، وهو واقع وهمى ..

فالمؤلف بيراندللو يريد أن يقول أن كل شىء وهم .. وكل شىء وهمى بدرجات متفاوتة ..

واعتقد أن الرئيس جمال عبد الناصر قد استراح الى هذا المعنى لأنه فعلا لم يكن يدرى بالضبط ما الـذى يفعله بنفسه وزملائه وبلده .. فلا عنده نظرية ولا مذهب سياسى . ولا كان مؤهـلا لكل ما حـدث بعد ذلك .. وهـذا واضح فى الأسـماء المختلفة التى أعطاها لنفسه ولزملائه الثوار .. قالوا : الحركة المباركة .. وقالوا الانقلاب .. وبعد ذلك قالوا : الثورة .. وواضـح أنهم كانوا يبحثون عن المؤلف .. ووجدوه .. فراح يصوغهم ويصوغ افكارهم .. ويجرجر وراءهم الشعب المصرى والعرب من المحيط الى الخليج ..

والشيخ أحمد حسن الباقورى فى كتابه « بقايا ذكريات » فزع من النشيد الذى كان يتردد فى الخمسينات :

من المحيط الهادر

الى الخليج الثائر

لبيك عبد الناصر !

كأنه لا زعماء ولا رؤساء ولا ملـوك .. هو فقط .. وهو أيضا يقال له : لبيك .. لبيك !

وبعد ذلك كان عبد الناصر يستمع الى من يقول له : انه استطاع أن يوحد بين العرب كما لم يستطع الرسـول عليه السـلام ؟! — اقرأ مذكرات الشيخ أحمد حسن الباقورى !

ولم يكن يضيق بذلك .. بل ان هـذا هو المعنى العميق الدفين .. هذا المعنى لم ينطلق الا مع رصاص حادث المنشـية .. فقد كان يصرخ ويقول : ان تقتلونى فقد قتل عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان .. ولكننى اذا قتلت يجب أن يتذكر المواطنون اننى منحتهم الحرية والعزة والكرامة .. سيبنى يا شيخ احمد — يقصد الشيخ احمد حسن الباقورى !

ولم يعترض عبد الناصر عندما أعلن بعد ذلك احد محافظى الصعيد انه نبى .. أو كأنه نبى .. أو انه من أهل البيت !

اذكر اننى كنت اتناول طعام العشاء مع الأمير احمد فـؤاد وزوجته الاميرة فضـيلة فى باريس .. والأمير فـؤاد او الملك السابق لمصر شاب طيب بسـيط محب لمصر . ومنتهى امله أن يكون عنده جواز سفر دبلوماسى ليدخل ويخرج من مصر كأى مواطن مصرى .. والأمير فؤاد طبعاً لا يعرف ماذا حـدث له ولمصر .. فهو ولد يـوم حريق القاهرة .. ولد ملكا (سابقا) .. وخلع من الملك وهو لا يدرى .. فكنت اداعبه واقوله : انها غلطة والدك .. فقد هوشـه على ماهر .. فخاف ابوك مع أن ضباط الثـورة كانوا أكثر خوفا منه .. ولو صـبر ابوك قليلا ، لكنت ماتزال ملكا لمصر .. ولا سـتحال على واحـد مثلى أن يتنـاول العشاء معك الآن !

وكان يضحك هو وزوجته ..

ولما سقط الملك نهض الضـباط الشـبان ودارت رءوسـهم ودرنا حولهم .. لا نحن عارفون ولا هم .. هم يبحثون عن مؤلف ونحن نبحث عن مخرج .. وكان ما كان .

ولكن الذى تنبأ به الرئيس عبد الناصر قبل الثورة ، قد وقع بعدها . وكان ذلك هو الطبيعى والمنطقى . فبعـد هزيمة سـنة ١٩٦٧ وقبلها بقليل ، كانت مصر تهيأت تماما لقبول « العبث » كواقع حقيقى صادق .. لقبول المعنى الغائب واللفظ الحاضر على انه حقيقة الشعور المتبادل بين الكاتب والقارىء .. فقد غاب من هوائنا الأوكسجين ، وانحسرت عن الفاظنا المعانى .. وكانت الصحوة مثل الدوخة تماما .. والـذى فى يده زجاجة حبر كالـذى فى يـده كأس .. ولم نعد نعـرف اذا ذهبنا الى المسرح ان كانت الستارة امامنا او وراءنا .. ان كان الممثلون فوق أو هم

تحت .. أو كنا نحن الممثلين والمؤلفين والمخرجين معا .. أو أن الـــذى تراه ليس الا حلما وهميا .. فنحن أيضا نبحث عن مؤلف ومخرج ونص ومسرح .. فكله تمثيل فى تمثيل .. كذب فى كذب .. وهم فى داخل حقيقة فى قلب وهم .. ضاع الناس من الناس .. وضاعت الدنيا من العين ، والصدى من الأذن .. والمستقبل من الحاضر !

وكان من الطبيعى أن تظهر مسرحيات « العبث » فى مصر وظهرت . وترجمنا . وتحمسنا . ظهرت مسرحيات يونسكو واداموف وبيكت .. وقبلها مسرحيات برشـــت .. وبعدها مسرحيات توفيق الحــكيم : يا طالع الشجرة هات لى معاك بقرة تحلب وتسقينى بالملعقة الصـــينى .. فكما ترى طالع الشجرة سيجد فوقها بقـــرة ، والبقرة تدر لبنا واللبن تشربه بملعقة صينى .. وترى كل ذلك معقولا مقبولا . فكلنا نطلع الشجرة ، ونتخيل ذلك ، ونجد أبقارا حقيقية تـــدر لبنا وهميا لنشرب بملعقة ذهبية صينية خشـــبية ؟!

مجانين نحن ؟ نعم ولكن بعضنا عقـــلاء .. ولكن العقلاء اذا تكلموا لم يستمع اليهم احد . والحل ؟ لقد وجـــد توفيق الحــكيم الحل أيضا فى حكايته عن « نهر الجنـــون » .. الناس شربوا من هـــذا النهر فكانوا مجانين .. ولكن ظل الملك وحاشيته عقلاء .. ولكنهم عاجزون عن التفاهم مع المجانين .. والحل هو أن يصيروا مجانين فشربوا من نهر الجنون وصاروا .. والجنون فنون — أى الجنون أشكال والوان .. ومن الجنون أن نبقى عقلاء والأغلبية مجنونة ، ومن العقل أن نصبح مجانين كالأغلبية !

فماذا كان يقول مسرح العبث فى الستينات فى مصر ؟

يكرر ما قاله مسرح العبث فى أوروبا كلها : ان الكلمات لا معنى لها .. وان الاتصال بيننا مستحيل .. لأن اللغة هى وسيلة الاتصال بيننا .. وحيث لا توجد لغة ، فلا صلة .. ولا اتصال .. ولا توصيل .. ولا تواصل بين المـــاضى والحاضر والمســـتقبل .. وانما نحن فى حالة الغيبوبة — التى هى حاضر باهت لمـــاض غامض ومستقبل أكثر غموضا ..

وفى مسرحيات الكاتب الفرنسى الرومانى الأصل « يونسكو » نجد ممثلين على المسرح يتحركون ويقدمون المقاعد والطعام والشراب لأناس لا وجود لهم .. ومطلوب من المتفرج أن يشاهد وأن يصدق .. يصدق هذا الكذب .. هذا الوهم .. هذه الخرافة .. أى يصدق أن هناك أناسا

او عليه أن يتخيل ذلك .. دون أن يكون هناك معنى .. وليس من حق المشاهد أن يطلب من الممثل أن يكون منطقيا .. ولو فعل لنزل الممثل وصفعه ثلاثة اقـــلام على خده الأيمن والأيسر وعلى قفاه وهو يقول له : وهل أنت منطقى ؟ . وهل أنت عاقل ؟ فكيف أكون أنا ؟

وقد اعتاد يونسكو على أن يجــد مسرحيته المسماه « الكراسى » بلا جمهور .. أى أن الســـتار ينفتح على عـــدد هائل من الكراسى .. فعلى خشبة المسرح عدد من الكراسى الخالية وفى الصالة اضعاف هذا العدد من الكراسى الخالية .

يقول يونسكو : فعلا المسرح مرآة الواقع .. فأعظم تحية للمؤلف أن يواجه الجمهـــور هـــذه الكراسى الخالية على المسرح بأضعافها من الكراسى الخالية فى الصالة !!

فبالذمة لمـــاذا هـــذه المسرحية ؟ . .ولمـــاذا المسرح اذا كان المؤلف لا يهمه أن يذهب الناس ؟ بل يســـعده ألا يذهبوا ؟ اليس هـــذا هزلا ــ انه فعلا عبث ولكن ليس من حقك أن تسأل عن المعنى لأننا اتفقنا على أنه لا معنى .. وليس من حقك أن تسخر منه ، لأنك يجب أن تقدم له معنى يقبله هو لكلمة السخرية ..

وهذا ما حدث فى مصر : ما الـــذى يمكن أن نقوله للناس عن البطل والنصر القريب والهزيمة المؤكدة ؟ . أين الهام البطل الملهم والزعيم الخالد .. وأين المحيط الهادر والخليج الثائر لبيك عبد القاهر والظافر ؟!

هل يقول للناس أنهم لا يفهمون فى الحرب فكيف تناقشون النصر والهزيمة ؟ وأنتم لا تفهمون فى الاستراتيجية والتكتيكفكيف تناقشون فى العروبة والاســـلام والفرعونية والوطنية ؟ ثم أن هـــذه الكلمات التى تستخدمونها قد تغيرت معانيها ؟ وقواعد اللعبة السياسية والعسكرية والأخلاقية قد تغيرت قواعدها ــ ولـــكن دون اخطار سابق .. ولكنها تغيرت والسلام !

يعنى تغيرت ولكن ليس من الضرورى اخطار الناس بذلك ــ لأنه لا معنى للنـــاس وقيمـــة للنـــاس وما شـــأن الناس بشئونهم وحياتهم والأفكار والقرار ؟!

وأحس المصريون فى ذلك الوقت أنهم فى أواسط أفريقيا .. وأنه حدث لهم ما يحدث للناس السذج هناك .. ففى أواسط أفريقيا قبائل تغير اسمها كل يوم .. ويقوم كل فرد بتغيير اسمه . فتناديه باسمه الذى كان معروفا به بالأمس فلا يرد .. وتظل تحاول ولكنه لا يرد .. لأنه قد غير اسمه دون أن يخطرك .. فاذا حاولت أن تهتدى ، فانه لا يساعدك .. فكأنه غير اسمه حتى لا يناديه أحد ، فلماذا الاسم ؟ فكأنه جعل لنفسه اسما لا يعرفه سواه .. مع أنك لست فى حاجة الى اسم لكى تنادى به نفسك .. وانما هذا الاسم ليناديك به غيرك ويميزك عن الآخرين .. فالدولة والقيادة والزعيم هو هذا الذى يغير اسمه واسم القبيلة والطعام والشراب وقواعد السلوك ، دون أن يجد من الضرورى أو اللائق أن يخطر بذلك أحدا — لأنه لا أحد سواه !

وانسحبت مسرحيات « العبث » من دور العرض . وانتقلت المسرحيات الى الكتب .. أى أن العبث المسرحى الذى هو صورة للعبث السياسى ، قد قبع فى الكتب .. انتقل الى التاريخ الأدبى !

* * *

والعبث مايزال موجودا ولكن بصورة أخرى ..

فالعبث معناه : أنه لا فائدة من شىء .. لا جدوى ..

وانتشار المسارح الهزلية فى مصر الآن ، ليس الا « العبث » ولكن بأسلوب آخر .. فكل هذه المسرحيات تسخر من الواقع ومن الناس .. وتسخر من التمثيل والممثلين انفسهم . وقد تحولت المسارح الى حياة مسرحية يشارك فيها الممثل والمتفرج فى الضحك والتضاحك والزغزغة .. الممثل يزغزغ المتفرج والمتفرج يزغزغ الممثل .. والكل يضحك . والمعنى: ان المسرح هو الزغزغة اليومية لكل الناس وكل القادة والوزراء .. والناس يضحكون ضحكا شاملا . والمعنى هو انه على الرغم من النقد لكل شىء وكل أحد ، فلا خوف على الممثل ولا على المتفرج . لأنه لا معنى لكل هذا النقد . فلن يأخذ به احد . ولا يخيف أحدا .. فكأنه لا مسرح ولا نقد ولا رأى .وانما غيبوبة من الضحك .. وغيبوبة المعانى والأهداف .. لأنه لا معنى لهذا المسرح ولهذا النقد !

واذا كان المفهوم التقليدى للمسرح الضاحك هو أن المتفرج يضحك

على عيوبه .. وينفضح أمام نفسه وغيره ، وعن طريق هـذه الفضيحة الضاحكة او الضحكات الفاضحة ، يصلح نفسه بنفسه ، فان مسرح العبث الضاحك معناه : اضحك ولا يهمك .. اضحك ولا تصدق كلمة واحدة مما تقول .. فلا نحن نعنى ما نقول ، ولا أنت تصدق ما نقول .. ونحن هازلون وانت أيضا . فلا كأننا قلنا ، ولا كأنك سمعت .

فالعبث الأول كان عبث الهزيمة .. عبث الغيبوبة الحزينة ..

والعبث الثانى هو عبث النصر .. عبث النشوة السعيدة ..

فالناس بعد الهزيمة كلامهم رمز وهمز ولمز .. وهمس ..

والناس بعد النصر كلامهم زعيق وصراحة وقباحة ووقاحة ..

وعبث الهزيمة : يأس !

وعبث النصر : اكثر يأسا !

* * *

دعنى أضرب لك مثلا آخر ..

افرض انك دخلت احد المستشفيات وتنقلت بين ممراته ولم تسمع صوتا لواحد يقول : آه .. ولا رايت عربة اسعاف .. ولا رايت غرفة عمليات .. ولا وجدت صيدلية فى هذا المستشفى .. فالمعنى الذى يخطر على بالك : أن الناس جميعا فى صحة جيدة . لا مرض . ومادام لا مرض فلا حاجة الى دواء .. ولا عمليات جراحية .. انه مستشفى الصحة والعافية ..

ونفرض انك دخلت مستشفى مجاورا فوجدت الصرخات والصيحات والناس داخلون خارجون . والصيدليات فى كل مكان والأطباء يهرولون وغرف العمليات تتفتح .. هيصة وفوضى .. وأمراض واوبئة كثيرة !

وملاحظتك خاطئة فى الحالتين : فالمستشفى الأول قد صدرت له تعليمات قاطعة الا يفتح المريض فمه ويقول : آه .. ولا كلمة ولا نفس . فالهدوء اضطرارى والصمت قهرى واختفاء الطبيب اجبارى !

كذلك كانت مصر قبل الهزيمة وبعدها .

والمستشفى الأخير عادى جدا . طبيعى أن يقول المريض : آه وان

يقولها طويلة وقصيرة وأن يسأل عن الدواء ويجده .. وأن يفزع الأطباء واهالى المريض .. وأن يلعن الناس المرضات .. والدواء المغشوش والأجور المرتفعة .. فالضوضاء هنا ليست فوضى .. ولكنها الحرية فى مواجهة الأزمات العادية فى حياة الناس . وكذلك كان الناس فى عصر السادات .. يقولون ويصرخون .. وتتعالى اصوات الراى والآراء الأخرى وتكون أبواب ونوافذ ومداخل ومخارج وتنفتح مصر على الدنيا ، والدنيا عليها !

* * *

ولكن « العبث » ما يزال نصا واخراجا وفرجة .. فكما ان المسرح العبثى كان خاليا من الممثلين ، وكانت الصالة خالية من المشاهدين ، فكذلك مسرح العبث اليوم .. المسرح مليان بالناس الواقفين ، والصالة ايضا قد غصت بالواقفين ، لأن المقاعد قد ضاقت عنهم .

ومن اهم معالم مسرح العبث القديم انه لا يوجد « بطل » واحد طويل عملاق والناس حوله أقزام .. أو واحد طرزان يقفز بين الأشجار وينتصر على الحيوانات ويقتلها دون أن يصاب بسوء .. لا أحد كذلك فى الواقع . ويجب الا يكون احد من مثل ذلك على المسرح .. لأن الأبطال هم الأنبياء بلا كتب مقدسة .. أو هم الأنبياء فى غيبة الأنبياء ..

اما السبب فهو أن الحضارة الغربية قد أصابتها الكوارث بسبب الزعماء الأنبياء .. بسبب هؤلاء الأبطال الذين يمشى وراءهم الناس عميانا لا يفكرون ولا يدبرون . ثم كانت المصائب الكبرى .. مصائب هتلر وموسولينى وستالين وفرانكو .. والشعوب تنظر الى الأبطال نظرتها الى الأشخاص الأفذاذ القادرين على انقاذ البشرية من ويلاتها وعثراتها .. ولكن الشعوب من الممكن أن تقتل أبطالها . اذا الأبطال خانوا الشعوب ..

فالبطل الذى يجعل الناس تستسلم له تماما ، وتترك له الأفكار والقرار ، اذا هو سقط .. أو انهار .. أو ضعف فان الشعوب تشعر انه غدر بها .. أنه صدمها فى عزيز لديها .. وانه اذا كان سبب العظمة ، فقد أصبح أساس الهوان .. وينسون ما كان لهم على يديه ، ولا يذكرون الا ما أصابهم بسببه .. فيقتلونه .. يقتلون الخائن الغادر . ولا يدركون انه هو القاهر الظافر الأمين ..

وكان من الممكن أن يغتال عبد الناصر أقرب الناس اليه .. وأحبهم

ايضا ــ اى اكثرهم حبا له .. ولنفس هــذه الأسباب . تماما كما تفعل المرأة العاشقة اذا خانها العاشق .. فان انتقامها رهيب والشعوب ايضا !

ولذلك كان اغتيال السادات منطقيا .. ان يقتله ضــابط فى يوم عيد الضباط والجنود . لمــاذا ؟

لأن السادات قد غير قواعد اللعبة السياسية والاقتصادية والاجتماعية دون اخطار سابق .. دون أن يتهيــأ الناس لهــذا التغيير العظيم فى كل نظراتنا وطرقاتنا ومستقبلنا ..

كان الناس قد اعتادوا على البكاء واليأس والضياع .. واعتادوا على انه انتهى كل شىء .. لا أمل فى شىء .. لا أمل فى أحد .. الكل يكذب والكل يعلم ذلك ..

وجاء السادات وحقق النصر .. وكان الناس قد اعتادوا الهزيمة . واستراحوا اليها لأنه ليس بعدها عمل أو أمل .. فكأن النصر دليلا على سخافة عقول الناس . وعلى بلادتهم ، وعلى ســوء تقديرهم لأنفســهم ولغيرهم ، يعنى اننا جهلاء أغبياء لا نعرف قدرنا ..

وكان النصر معناه أن نضــحك وأن نرفع رؤوساء انكسرت وأن نثبت اقداما ارتعشــت .. وان نحرص على النصر .. والا نكتفى .. وان نستثمره .. أى نبيعه فى ســوق السياسة الدولية .. اى أن نقف وننهض ونعمل ونكسب فى الحرب وفى السياسة وفى التجارة ..

وكنا اعتدنا أن نقف عند قناة السويس ونقول : كده رضا .. فلا نذهب الى الشاطىء الآخر نسترد أرضا .. فالحدود العسكرية ليست الا حدودا سياسية .. وحدود وقف اطلاق النار ليست الا حدودا وطنية.. ابدا..بل النصر هو البداية .. وبعد ذلك نستأنف المسيرة .. اى يجب أن نصحو وننهض ونعمل .. ولم نكن نريد ذلك ولا نتوقعه .. اذن هــذا الرجل السادات قد أزعج المصريين والعرب واخرجهم من أحلى نومة .. انه اثبت للمصريين وللعرب ان هناك أمــلا . انه يستطيع ، وان النصر ممكن . وان الحرب ليست هى الأسلوب الوحيد . وأن الحوار أسلوب آخر . وأن الدول كلها بعد الحروب فعلت ذلك . وأنه استطاع أن يصل الى أعز أمانينا دون حرب جديدة .. وانه اولا وقبل كل شىء رئيس دولة فقيرة تواجه دولة صــغيرة قوية وقوتها أعظم لأنها تقف على كتفى أمريكا الى

الأبد . وما دمنا نريد السلام والسلامة ، فلابد أن نؤكد للعالم اننا جديرون بذلك .. أحرار يتعاملون مع أحرار وأن الحرية أبواب مفتوحة ونوافذ يدخل منها ويخرج الهواء والناس والفلوس والسلع تروح وتجيء .

وبسرعة تغير كل شيء . وبسرعة تغير أناس ومازال آخرون نائمين ، ويريدون أن يبقوا كذلك !

ولأن الناس استراحوا الى اليأس والنوم والى رفض الحرب ورفض السلام ورفض أى تغير فقد أذهلهم السادات بما جاء به من مضايقات ومزعجات .. وبمليون « مسحراتى » أطلقهم على كل الناس : يا عباد الله قوموا .. يا عباد الله اصحوا .. يا عباد الله اعملوا شيئا من أجل انفسكم وبلادكم .. النجاة ممكنة والنجاح ممكن !

فكان لابد من اسكاته .. وسكت !

* * *

انها مشكلة « النهر الأعظم » الذى كان يبحث عنه أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز . يقال انه عندما تولى الخلافة صادر أموال الأسرة المالكة لصالح الشعب . فبعثوا اليه بعمته تطلب منه الرحمة . ولكنه قال لها عبارته المشهورة التى معناها : ان الله سبحانه وتعالى بعث محمدا عليه السلام رحمة ولم يبعثه عذابا .. ثم مات الرسول وترك نهرا يشرب منه كل الناس دون تمييز بينهم . وجاء ابو بكر فترك النهر على حاله . وجاء عمر فترك النهر على حاله .. فلما جاء عثمان فانه شق من النهر الأعظم نهرا آخر . وجاء من بعده معاوية فشق أنهارا كثيرة وجاء من بعده يزيد ومروان وعبد الملك والوليد وسليمان وكلهم يشقون أنهارا من الأنهار .. حتى جئت أنا وكان النهر الأعظم يابسا . ولن يرتوى أصحاب النهر من أنهارهم هذه الا اذا عادت الأنهار كلها وصارت النهر الأعظم !

وعادت عمته تقول لأفراد أسرته : انها غلطتكم لأنكم تزوجتم من أسرة عمر بن الخطاب !

فهو عمر بن عبد العزيز وأمه بنت عاصم بن عمر بن الخطاب !

وكان السادات يحاول أن يعيد الأنهار الصغيرة الى نهر أعظم يفى بكل احتياجات الناس !

* * *

واعتقد أننا فى مرحلة انحســـار للعبث الضاحك .. وان الضـــيق بالعبث قد بـــدأ عند بعض الممثلين والمؤلفين .. فبعض الممثلين يحاول ان يكون متفلسفا أو « منظرا » أى يخرج من ثـــوب البهلوان ويدخل فى مسوح الرهبان ــ الزاهد فى الحياة الضاحكة والداعى الى الجد والنظر الى مآسى الحياة .. ومن مآسيها : ان المسرح لم يعد هو « المصحة » لاستشفاء الشعوب .. وان المسرح ليس الا غرفة عمليات بها احسن الأطباء، ولكن أدواتهم غير معقمة .. أى انها سامة .. قاتلة .. فالأطبـــاء اذا مجرمون ــ لأنهم يقومون باجراء عملية تنجح ، ولكن المريض يموت !

□□□

نهاية كرة الندم...
بداية كرة القدم..!

عزيزي "أنيس منصور"

مقالك "نموذج" يجب أن يوضع تحت أعين من يمارسون "النقد" والنقد أحيانا أصعب من التأليف. لأن التأليف ذاتي يعتمد في الأغلب على ذات المؤلف وشخصيته ومواهبه.. أما النقد فهو ذاتي وموضوعي والموضوعية فيه أن الناقد الحق لا ينظر إلى المؤلف نفسه فقط، بل هو يحيط بالعالم الثقافي كله الذي يعيش فيه... ويجب أن يكون في رأسه وذاكرته نوع من "الأرشيف" يحوي الملف الكامل لأعمال المؤلف الذي يتناوله ونقده... وكذلك ملفات الآخرين الذين يعيشون ويتحركون معه في نفس المحيط الزمني لبلده والبلاد الأخرى.. هذا هو الأهم وهو: التكوين الثقافي والفكري المتين.. ولقد كان لك أيها العزيز "أنيس منصور" هذا التكوين ببدايتك بالفلسفة دراسة وتدريسا.. ومن هنا كان تعلقك بالعقاد... وإن كان العقاد قد غلب التفكير عنده على الأسلوب. أما أنت فقد امتزت بالأسلوب الرشيق...

ولأعد إلى مقالك الذي وصفتني فيه بجملة واحدة هي العنوان: "توفيق الحكيم ينظر وراءه راضيا وأمامه بائسا".. وهذا صحيح وحده. استطاعت نظرتك الثاقبة أن تكتشفه في الحال.. وربما استطعت أنا أيضا في جملة أن أوضح السبب وهو: "كانت البطولة عندنا في الماضي هي بطولة "القلم" أما بطولاتنا اليوم فهي بطولة "القدم".. وكانت "الكرة" في الماضي هي "الأفكار".. أما اليوم فهي في "الأرجل"!..."

ولك الشكر والتهنئة بالجائزة العالمية التي تستحقها عن جدارة...

توفيق الحكيم ١٨ يناير ١٩٨٤

نهاية كرة الندم ...
بداية كرة القدم .. !

« توفيق الحكيم ينظر وراءه راضيا وامامه باشا » ... وهذا صحيح وجيه ، استطاعت طرفتك الساخرة ان تكشفه فى الحال .. وربما استطعت انا ايضا فى جملة ان اوضح السبب وهو : « كانت البطولة عندنا فى الماضى هى بطولة « القلم » اما بطولاتنا اليوم فهى بطولة « القدم » .. وكانت « الكرة » فى الماضى هى « الافكار » .. أما اليوم وغدا فهى فى « الأجوال » ! ...

وإليك الشكر والتهنئة بالجائزة العالمية التى تستحقها عن جدارة ...

توفيق الحكيم

١٨ يناير ١٩٨٤

قال امير الشعراء احمد شوقى :

نحـــن الكشافة فى الوادى
جبريل الروح لنـــا حادى
يا رب بعيسى والهـــــادى
وبموسى خذ بين الوطن !

* * *

فى الســـــهل ترف رياحينـــا
ونجـــوب الصخر شياطينا
نبنـــى الأبـــدان وتبنينـــا
والهمة فى الجسم المرن !

* * *

الرياضة اصبحت حقدا وعنفا ودما وسفالة — انها حرب لا ينقصها الا الديناميت !

* * *

الله مع الفريق الذى عنده احسن مدرب !

* * *

لم أجد رياضية واحدة تقول انها قادرة على شغل البيت !

* * *

مصارعة الثيران يكرهها الناس لا لأن فيها تعذيبا للثيران ، وانما لأن فيها تعذيبا للانسان !

* * *

الفرق بين الرياضة والحب ان الرياضة تتوقف عندما تظلم الدنيا !

* * *

أعظم رياضة الآن : الفلوس !

* * *

عندما يقتل الانسان نمرا فهى رياضة ، عندما يقتله النمر فهى وحشية!

* * *

وهذا هو المعنى التربوى الأخلاقى الوطنى للرياضة : صحة وعافية وعمل وبناء . وظل هذا هو المعنى للرياضة والألعاب الرياضية الى وقت قريب جدا .. اما بعد ذلك فقد فسدت الرياضة واصبحت تجارة وشطارة .

مع ان الرياضة هى أعظم هروب من متاعب الحياة اليومية . فأنت الى عملك تذهب وتتزاحم وتجلس وتقع الضغوط على دماغك .. وتركز على الذى امام عينيك وفى يدك .. ومن الشد والجذب والتوتر والضغط عليك والضغط على غيرك يكون التعب والارهاق والعجز عن العمل والمشاركة والانتاج . هنا تجىء الرياضة فتنقلك من حالة من الوعى الى حالة أخرى .. ومن تركيز الى تركيز من نوع آخر .

وتكون الرياضة مثل هروبات اخرى مختلفة : الجنس والمخدرات والخمور .. فهى تنقل الانسان الى درجات اخرى من الوعى وشبه الوعى واللا وعى .

والفارق بين الرياضة وبين هذه الهروبات المختلفة ان الرياضة ليست لها مضاعفات جانبية .. فالذى يتعاطى الرياضة ليس كالذى يتعاطى الخمر او الحشيش يصاب بالدوخة او الصداع او التقلصات المعوية والمعدية ..

والرياضة نشاط انسانى ليس له فائدة مادية .. والذى يلعب ليس كالذى يزرع الأرض او يصنع الزجاجات .. او يزيد مساحة الأرض المزروعة .. وانما الانسان يلعب ، لأن اللعب متعة . ولأن هذه المتعة تقضى على متاعب اخرى .. فهو يلعب لأن اللعب غاية .. هدف .

ثم ان الرياضة تطلق خيال الانسان وتجعله يعيش فى عالم آخر .. ليس هذيان المخمور او المسطول .. وانما ان تذهب الى الملعب وتجلس بين المتفرجين .. وأمامك حدود وسدود .. لك حدود لا تخرج عنها . واللاعبون قد رسمت لهم على الأرض حدود .. هذه الحدود من الرمال ومن الطباشير .. حدود يمكنك أن تمسحها بجزمتك .. ولكن هذه الحدود لها قوة القانون .. انت لا تدخلها واللاعبون لا يخرجون منها .. وهذه الحدود لها قوانين . هذه القوانين لها قوة كل انواع القوانين .. والحكم قاض لا راد لقضائه .. فالقاضى له ضميره . ونحن نتركه لضميره . حتى لو اخطأ . فلا استئناف لحكمه . واللاعبون كأنهم معتقلون .. معتقلون بارادتهم .. فالناس بين العلامات البيضاء لهم عالمهم .. دنياهم .. فقد حبسناهم مع القاضى فى محاكم علنية .. هم يلعبون والقاضى قد انفرد بهم .. ونحن نتفرج ونصرخ وكأنهم لا يسمعوننا .. وهم يلعبون وكأنهم لا يروننا .

والفرجة على اللاعبين تستغرقنا .. تغرقنا فى حماس وبهجة ومتعة.

ونحن المتفرجين قد ساوت الرياضة بيننا .. فأنت لا تنظر الى جارك من هو ولا ماذا يعمل ولا ماذا يرتدى ولا ماذا يقول .. وقد يصرخ ويبكى وقد ينفجر فيك صارخا أو شاكيا .. وقد يشتم ويلعن .. وقد يكون واحد من المشتومين اخاك او ابنك .. وانت لا ترى فى ذلك اهانة شخصية .. وانما هذه الاهانة هى من شروط اللعبة .. اللاعب يقبلها .. والمتفرج يقبل عليها .. وكما ان اللاعب يرضى مقدما أن ينكسر وان يقع على الأرض .. واذا طال وقوعه على الأرض فان الجماهير تطالب باخراجه حتى لا يتوقف اللعب .. فاللعب اهم من اللاعب .. والمتعة والاثارة هما الهدف .

فاللاعب المكسور على الأرض يفسد هذه المتعة . وقد يكون اللاعب المكسور هو مصدر المتعة .. هو الذى احرز هدفا بعد هدف .. ولو ..

ولكنه فى هذه اللحظة يوقف مسار الاثارة .. ولذلك يجب ان يخرج .. هذه القسوة من المتفرجين يقبلها اللاعبون ، كما يقبلون الاهـانة والبهدلة من المتفرجين .. انها شروط اللعبة . واللاعب قد وافق عليها قبل ان ينزل الى ما بين العلامات البيضاء .. التى هى حدود ذلك العالم المثير الذى يشعل النار فى خيال اللاعب والمتفرج .

والرياضة تحتاج من اللاعب الى البراعة والذكاء والمقامرة والتركيز على الأهداف .. هذه هى الرياضة . جوهرا وشكلا وأسلوبا وغاية .

والرياضة لا تساهم مثلا فى صراع الانسان من اجل السيطرة على قوى الطبيعة : الشمس والماء والهواء والجوع والمرض والجهل والظلم . لا شأن لها برفاهية المجتمع أو تنظيم النسل أو سعادة الأسرة .. لا شىء من ذلك ! فالرياضة نشاط بلا فائدة مادية .

ولذلك استحقت الرياضة بكل أنواعها عداء رجال الاصلاح الاجتماعى والسياسى والدينى . لأنها تشغل الناس عن الانتاج . ولأنها لهو . ولأنها مضيعة للوقت والطاقة والمال . ولأنها تضع أمام الناس نماذج لا قيمة لها. وانها تغرى الناس بان يلعبوا وان يهربوا .

ويقال ان الرياضة هى من مظاهر الترف عند الأغنيـاء هم الذين يلعبون . فليسوا فى حاجة الى زراعة الأرض أو صناعة الطعام — فعندهم من يقوم بهذا العمل . والأغنياء هم الذين ساعدوا على بقاء الرياضة . لأنهم قد اكلوا وشربوا وناموا وقاموا يكملون المتعة بالفرجة على اللاعبين .

وكان ذلك هو جوهر النقد الذى وجهه المصلحون الى اللهو الرياضى.. وعندما ظهرت الاشتراكية راى الاشتراكيون ان الاقطاعيين والرأسماليين يشجعون الرياضة لأنهم يشجعون الحرب والدمار وتسخير الشعوب من اجل اطماعهم التوسعية . فالرياضة ليست الا نوعا من العسكرية .. من الانتظام والالتزام والعنف والهجـوم والدفاع .. وليست الا تشجيعا على الصراع والخـلاف والأزمات .. والتعصب للفريق وللوطن .. وليست الا نوعا من التفرقة العنصرية .. وذلك بتمجيد الرجال والرجولة وفى ذلك عداء للمراة .. اى ان الملاعب هى المصنع الحقيقى لكل الأحقـاد واثارة الغرائز من اجل القتل والحرب والموت .

وفى العصر الحديث ، وفى الدولة النازية الشـمولية كان الشـعار الهتلرى : القوة عن طريق المرح .. اى القوة العسكرية عن طريق اللعب

واللهو .. فقد شحنت المانيا كل أطفالها وشبابها جيوشا تحت التمرين الى ان تجيء لحظة الحرب . وجاءت . وكان وقودها ملايين الشبان الأصحاء ..

ولم تختلف النظريات الماركسية والنازية عن الرأسمالية أيضا . فكلها تنظر الى الرياضة على انها وسيلة لتحقيق القوة والصحة والجمال والحرب.

فالرئيس كنيدى مثلا انشأ مجلسا اسمه « مجلس اللياقة الشبابية » يقول فى برنامجه : ان نعومة الشباب وطراوته المتزايدة ، خطر فادح على الأمن القومى !

أو بعبارة اخرى : هناك فرق بين اللاعب والمتفرج .. بين الشاب النشيط المتحفز والمتفرج المسترخى . فاذا استعار اللاعب سلبية المتفرج فهذا هو الخطر . وهو نقد عنيف للمتفرجين ايضا . وتهمة كبيرة أن يوصف اللاعب بأنه متفرج .. أو كأنه يتفرج على اللعب ولا يشارك فيه !

وفى سنة ١٩٦٧ أعلنت حكومة كوبا الماركسية : ان التربية والثقافة والصحة والدفاع والسعادة وتنمية الشعب كلها حلقات فى سلسلة واحدة : الرياضة !

وفى سنة ١٩٢٥ أعلنت اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى : ان الرياضة يجب أن تستخدم كوسيلة للتجمع الجماهيرى من العمال والفلاحين فى نشاط اجتماعى واحد ..

والدول الماركسية ضد تمجيد الفرد ، وان كانت كثيراً ما تقع هى فى ذلك .. والا فلماذا قداسة لينين ونجاسة ستالين ؟!

ولذلك كثيرا ما رأينا فى تاريخ الماركسية انهم نزعوا البطولة من الأفراد وجعلوا البطولة للمتظاهرين .. الوف الناس الذين لا نعرف لهم ملامح .. الا انهم حشد يتدفق كأنهم موج .. طوفان .. حريق .. اعصار . او بطولة المدن .. المدينة هى البطل .. الحائط .. الكوبرى هو البطل .. او القلق هو البطل .. أو الصبر .. او الجليد .. اى شيء وأى نشاط الا ان يكون فردا محددا .. وكذلك الرياضة هى البطل أو مصدر الفساد .. ليس واحدا من اللاعبين . وانما تجمع اللاعبين .

ولكنّ لحسن حظ الرياضة والقيم الفنية والجمالية ، أن قاوم كثير من الشعوب فرض هذه القوالب الحديدية على اللعب .. على متعة الفرجة..

ومتعة الكفاح على ارض الملاعب .. كفاح على ارض الملعب وداخل علاماته البيضاء من الطباشير والرمال .. فقط فى داخل العلامات لا من اجل ان يفوز لاعب بكرة .. او بالشبكة .. او الاستيلاء على الملعب .. على النادى..على البلد .. ابدا كل شىء بين العلامات البيضاء .. يبدأ داخلها وينتهى داخلها وهذه العلامات على الأرض كأنها جدران من الكريستال .. ترى منها ولا تذهب الى ما بعدها .. هذه هى الحدود والأصول والقواعد.. ارتضيناها لاعبين ومتفرجين .

وليس صحيحا أن يقال ان المتفرج سلبى . انه ايجابى جدا . ولكن بصورة أخرى .. أى بالصورة المسموح بها قانونا .. فهو يجىء ويدفع ويجلس ويتحمس ويصرخ ويشترى ويدفع ويأكل ويشرب وهو يحل مشاكله كلها جالسا واقفا صارخا وهو الذى يقوم بتمويل النشاط الرياضى . وهو المسئول عن اتساع الملاعب ورواج صناعة الرياضة .. فالرياضة علوم وفنون وصناعة وتجارة . والمتفرج هو أكبر قوة استهلاكية لكل ذلك !

***

وفى مواجهة الأزمات الكبرى والهزات العنيفة تختلط الأشياء والعلاقات بين الناس . ونحن فى قلب الطوفان أو قلب البركان لا نعرف من أين جاء الماء أو جاءت النار والدخان .. نحاول ولكننا لا نعرف .. ولن نعرف الا بعد أن ينحسر الماء وينقشع الدخان وتخمد النار ، وتسكن الأرض وتستقر عيوننا فى محاجرها والسنتنا فى حلوقنا .. ورءوسنا فوق أعناقنا وقلوبنا فى ضلوعنا وكل ذلك يحتاج الى وقت .. والآن ليس اوانه .. وانما يجب أن نبعد كثيرا وطويلا من مكان الكارثة .. نبعد فى المكان وفى الزمان لنرى اوضح ونسمع أعمق ، ونكون أكثر حرية وأمانا . والمفكر الفرنسى مالرو يقول : اننا فى حاجة الى مائتى سنة لكى نحسن رؤية الثورة الفرنسية .

أى فى العالم القادم — أى ١٩٨٩ — يمكن لأى مفكر أن يقول بوضوح كل ما كان غامضا على المعاصرين للثورة وأحقادها والخائفين منها والخائفين عليها .

ولكن قبل ذلك لا نملك الا ان نشير بأصبع فى الكف .. أو الكف كلها او الذراع .. وليست هذه اشارة كافية . ولكن هذا هو الممكن لكل مائتى سنة.

وبعد الهزيمة العسكرية فى مصر ارتبكت النظرة وتعمقت الحسرة .. والتفت الناس يسألون : ما الخبر ؟ من فعلها ؟ من أين جاءنا الطوفان من أين تفجر البركان .. من الذى ركب سحابا ، ونطق رعدا ، وامتشق برقا، وهزم الانسان .. ارادة الانسان ، كبرياء الانسان .

لم نترك احدا او شيئا لم نجعله مجرما .. الا المجرم .. الا المجرمين حقا !

ولم يكن صعبا على الناس ان يدركوا ان هناك علاقة بين الرياضة والعسكرية .. بين الرياضة التى افسدها العسكريون ، أو العسكريون الذين افسدتهم الرياضة .. حتى اذا ذهبوا الى القتال : راحوا يلعبون .. وكانت الهزيمة .

فكأن العسكريين كانوا مهزومين قبل ان يحاربوا .. انهزموا فى الملاعب قبل ان يلعبوا فى الميدان .. فلأنهم استغرقوا فى اللعب عندما ذهبوا الى القتال ، استمروا فى اللعب .

أو لأنهم عسكريون فاشلون فلم يفلحوا فى تحويل الرياضة الى معسكرات الى جيوش تحقق النصر فى النهاية ..

اى ان العسكريين انهزموا مرتين : مرة فى الملاعب ومرة فى الميدان .. وكان الناس يقصدون :

الفريق اول مرتجى رئيس النادى الاهلى ..

والفريق أول سليمان عزت رئيس نادى الاوليمبى ..

والفريق أول صدقى محمود رئيس نادى الطيران ..

وكان المشير عبد الحكيم عامر رئيس اتحاد الكرة ..

فاما انهم افسدوا الرياضة ..

واما ان الرياضة افسدتهم ..

والنتيجة انهم لم يصبحوا عسكريين ولا رياضيين ..

ولم يكن فى استطاعة الناس ان يحاكموا كل هؤلاء .. وكل الذى استطاعه الناس هو ادانة الرياضة .. ادانة كرة القدم ..

أذكر اننى كتبت بعد الهزيمة العسكرية مقالا فى الصفحة الأخيرة لأخبار اليوم بعنوان : كرة الندم !

وفى هذا المقال كنت الوم على الناس انهم حملوا الكرة والرياضة ما لاتطيق .. فلا الكرة ولا رياضة كرة القدم .. وانما هو الجهل بالعدو والاستخفاف بالحرب .. وضياع المسئولية بين الزعيم الكبير والمشير الأسير . بل لو اننا أتقنا الكرة وتذوقنا علوم الرياضة ، لكنا فى الحرب احسن . ولكانت أعصاب المقاتلين والمتفرجين اهدأ .. ولكن دخلنا الرياضة محاربين ، ودخلنا الحرب لاعبين .. فلا أصبنا هدفا ولا استعدنا موقعا .

وفعلنا ما تمليه النكتة الشهيرة : ان رجلا ضبط زوجته مع رجل فى فراشه ، فباع السرير .

نحن اوقفنا المباريات الكبيرة فى كرة القدم اربع سنوات .. خمس سنوات .. خجلا من هزيمتنا .. وخجلا من عجزنا عن الاشارة الى المجرم والمجرمين .. بعنا السرير .. أو اقفلنا نوافذ غرفة النوم حتى لا يرى أحد مسرح الخيانة .

ومادمنا قد انهزمنا فى الملعب وفى الميدان ، فنحن اذن قد انهزمنا فى كل شىء .. والمواطن المصرى ليس له الا وصف واحد : انسان مهزوم — منتهى القسوة على انفسنا لأننا قد بلغنا اقصى درجات الندم !

وجاء علينا وقت كنا نندم عند الضحك .. ونرى ان الضحك لا يليق بنا ، وانما الذى يليق هو البكاء والحداد ..

ولذلك ظهرت فى أفراحنا فرق موسيقية تردد الأناشيد الوطنية .. لا لأن الناس يريدون ذلك .. ولكن لأن هناك شعورا بالندم . هذا الشعور يجعلنا عاجزين عن الاستغراق فى البهجة .. والاستغراق فى اللعب . فكان الفنان محمد نوح يهز الأفراح بأغنيات : شدى حيلك يا بلد .. وكانت لمحة ندم .. وخزة الم .. وكان الناس يرددون معه ووراءه وبعد ذلك ينصرفون الى الراقصة .. ويصفقون لها بنفس الحماس . وبقيت الراقصة وذهب محمد نوح ، فلم نكن جادين عندما ارتضينا محمد نوح بعض الوقت .. ولا استرحنا الى ذلك .. وانما نحن فى حالة من الاستسلام لأى انسان يصفعنا على الخد الأيمن فنعطيه الأيسر وقفانا ايضا ..

وظهر عندنا مسلسل تليفزيونى اسمه « فرافيرو » .. وهو لا يختلف

كثيرا عن السوبر مان او عن توم وجيرى .. وهاجمته الأقلام ، التى هاجمت الرياضة ، لأن فرافيرو هو المسئول عن تعميق الشعور بالخرافة عند الأطفال والأدباء .. لأن فرافيرو هذا صانع المعجزات . ومن شأن الايمان بالمعجزة ان يشعر الانسان أنه صغير تافه .. وانه فى حاجة الى قوة أكبر .. ومادام لا يملك هذه القوة ، فسوف يظل عاجزا .. كسولا .. فى انتظار المعجزة التى لا تجىء . !

وان فرافيرو هو المسئول عن ارتكاب الناس للجرائم .. كأن الشر والقتل والسيطرة والطمع من اختراعات التليفزيون .. فأين كان هذا التليفزيون يوم ارتكبت أول جريمة على الأرض..يوم قتل قابيل أخاه هابيل.

وقبلها قيل ان أم كلثوم هى التى أشاعت الذل والهوان وانتشار الحشيش فى مصر .. بسبب أغانيها الرومانسية للشاعر احمد رامى ..

ان الرومانسية فى فرنسا لم تمنع قيام الثورة الفرنسية .. ثم ان الصينيين الذين زرعوا الأفيون ودوخوا العالم كله معه ثم شنقوا كل من يزرعه أو يدخنه ، لم يسمعوا أم كلثوم !

ولكننا نتخبط فى البحث عن المجرم .. وانتهينا الى اننا جميعا مجرمون. فلا احد برىء . فقد شاهدنا وشاركنا وسكتنا . فالجريمة عامة . والادانة شاملة — اصابعنا يجب ان ندبها فى أحشائنا ، ففى احشائنا يكمن المجرم الذى صفق وطبل وزمر وهتف بالروح بالدم نفديك يا جمال .. يا سادات .. يا مبارك .. وكلنا بنحبك ناصر . ومن قبل الثورة كنا عارفينك . وقولوا لعين الشمس ماتحماشى لاحسن حبيب القلب راجع ماشى .. مهزوما من الجبهة !

ومن الثورة الصناعية وتطور أدوات الانتاج وقيامها بكل العمل اليدوى .. وقف الانسان امام الآلة يساعدها ويراقبها ويستعير منها اسلوبها فى الانتظام والانضباط والصلابة .. فهو الذى اخترع الآلة ، واصبح آلة .. هى التى تضغط عليه . وهى التى تتدخل فى تشكيله النفسى والاجتماعى.. والانسان ايضا مثل الآلة : قطع غيار .. اذا ضعف أو « نعم » كان لابد من ابداله .. لأن الآلة .. لأن المصنع يجب ان يمضى فى الانتاج .

والمثل الأعلى فى المجتمعات الصناعية هو : صلابة وبرودة وانضباط الآلة !

ولذلك أصبحت الحياة « آلية » .. رتيبة .. مملة . ولهذا كان لابد للانسان أن يفلت من قبضة الآلة .. ان يهرب من الرتابة .. من الملل .. اى أنه فى حاجة الى شىء يهزه .. يثيره .. يعصف به .. يشيله ويهبده .. يغرقه ويستغرقه .. ويدوخه .. اى يهرب به من ضجيج المصانع الى صراخ الملاعب .. ومن الانضباط الى الانفلات والانطلاق .. والاقتلاع والانخلاع .. وكانت الرياضة هى الملجأ والمهرب الوحيد .. فاليها هرب وفى أحضانها ارتمى ، ولشروطها استسلم .. فالعمل الممل بلا متعة فيه .. العمل المنضبط لا اثارة فيه .. ولذلك كانت الرياضة هى العلاج لكل متاعب العمل .

والمثل الأعلى للعمال هو : البلادة .. اى لا يهتز ولا ينفعل . وانما يستمر .. يمضى .. يروح ويجىء كأنه آلة .. أو بعبارة أخرى : مت عاطفيا لكى تعيش !

بينما الرياضة تقول : تنفعل اكثر تعيش أطول !

ولكن الآلات لا تنفعل .. وكذلك يجب ان يكون العامل والموظف والفلاح !

وكل مواصفات الرياضة مرفوضة تماما فى المصانع . فاللاعب يقامر ويخاطر ويضحى ثم ان اللاعب يقلق والمتفرج يقلق .. وكلها صفات وحالات مرفوضة فى المصانع . فلا مقامرة .. فكل شىء دقيق ومنظم . ولا يصح أن يتدخل فيه الانسان .

ولكن ظهور الانتاج بالجملة فى المصانع ادى الى ان المستهلك أصبح قوة عظيمة .. اى المتفرجون قوة . وهى قوة لا غنى عنها فى الملاعب . قوة لها دور . ودورها هو ان يشعر بها اللاعب . يشعر بوجودها عندما يرى ألوانها واعلامها فى المدرجات . ويعتز بصراخها . ويرى ان شروط اللعب الجيد هو وجودها ..

ولذلك نحن نقول فى وصف المباريات ان جمهور الأهلى يلعب على ارضه ووسط جمهوره . اى انه مادام يلعب على أرضه ، فهذه قوة ، وبين جمهوره فهذه قوة أعظم . وعلى ذلك فلا عذر له اذا لم ينتصر .. فأقصى ما يمكن أن نقدمه له : أرضه ومشجعيه .. واذا لم يلعب النادى على أرضه أو بين جمهوره ، فنحن نتوقع الا ينتصر !

ومعنى ذلك ان الجمهور قوة . وان تدخل الجمهور شرط للعب .. او شرط لاصابة الاهداف .. فنحن هنا قد اقتطعنا جزءا من قوة اللاعبين واعطيناها للمتفرجين !

اكثر من ذلك ادى الى افساد روح الرياضة : ان اللاعبين أيضا يستعرضون براعتهم أو يبالغون فى اصابتهم .. لأن الكاميرا تتابعهم . فهم يلعبون للكاميرا .. ويلعبون للجمهور .. وكلما ظهرت صورهم ارتفعت أجورهم .

والشعار الذى يتردد فى العالم كله هو : الكرة اجوال !

اى ان اهم أهداف اللعب هو أن تكون هناك اجوال .. فمن أجل الجول يهون كل شىء ، وندوس كل قيمة وكل مبدأ وكل أحد .. فلم يعد اللعب لمجرد اللعب .. لم يعد اللعب الجيد هدفا .. لأنه ليس اسهل من أن تقول : ولكن ما الفائدة ؟ . اى ما فائدة ان تلعب دون أن تهز شبكة .. كيف نعرف اننا انتصرنا اذا لم نحرز اهدافا .. ودون أن نكش الملك .

انتهى زمن اللعب فن .. والفن للفن . وانما اللعب اجوال .. والهدف هو الكسب أو المكسب أو الانتصار ..

وبدلا من ان يكون اللعب . « لعبا » اى نشاطا بارعا ذكيا فيه طفولة وبراءة أصبح فى اللعب عنف المراهقة وغلظة الرجولة ، وخشونة الملاعب ، وجفاف الرمل . وبدلا من أن تكون الروح الرياضية معناها : التسامح والمساواة بين كل الناس أيا كان لون الفالنة ــ الفانلة خطأ ــ أيا كان البلد .. أيا كان الدين واللون .. أصبح اللاعب والمتفرج يتعصب للون والدين والجنس والبلد .

واصبح من أهم عيوب اللاعبين احساسهم بالجمهور وليس باللاعبين معهم وضدهم .. فالجمهور هو القوة والكاميرا هى طاقة القدر .. وكذلك الجمهور لم يعد يهتم باللاعبين وانما بالكاميرا ايضا يضحك لها ويصرخ ويرفع الاعلام من أجلها . انه هو الآخر يستعرض قوته .. واللاعبون كذلك .. فاللعب أصبح استعراضا تمثيليا !

والاحساس بالجمهور هو اهم مشاعر الممثل والمطرب .

ولذلك فهناك فرق بين الأغنية التى يسـجلها المطرب فى الاستديو ، والأغنية التى يسجلها فى احدى الحفلات .. الفرق هو الجمهور يشـعر بالمطرب ، والمطرب يشعر به ..

وصـارت شركات الاسطوانات تضـيف الى الأغنيـة المسجلة فى الاستديو صوت الجماهير وتصفيقها مأخوذا من الحفلات العامة .. كوسيلة لاقناع الجمهور انه موجود .. أنه كان هناك او ان هذه الأغنيـة قد لقيت حماسا جماهيريا .. وهذا الحماس التسجيلى يشعل حماس المستمع ويؤثر عليه ..

وكذلك هناك فرق بين « التمثيلية » المسجلة فى الاستديو .. والمسرحية .. المسرحية هى « التمثيلية » أمام الجمهـور ، والتمثيلية هى المسرحية بلا جمهور .. فالتمثيلية تشبه الفيلم تماما .. تم تمثيله وتسجيله أمام عدد من المصورين وموظفى الاستديو ، اعتادوا على مثل هذه المناظر ، فهم أقل الناس حماسا لها ، وأكثر الناس قرفا من الكذب الفنى الذى يعيشون به وعليه ليلا ونهارا .

ولذلك أكبر عقوبة لأحد الأندية الرياضية ان يلعب بلا جمهور !

وأكبر صدمة يتلقاها الجمهور هى عندما يذهب الى الملعب يشـجع الفريق الذى يحبه ثم ينهزم الفريق .. هنا يشعر الجمهور ان اللاعبين قد خانوه .. فقد أوهموا المتفرجين انهم اذا جاءوا فسوف ينتصرون . أى أن شرط النصر ان يجىء المتفرجون . وصدق المتفرجون ذلك . فذهبـوا . وكانت الهزيمة !

ولذلك ينقض المتفرجون على اللاعبين الذين ضحكوا عليهم وخدعوهم .. فاللاعبون قد استعدوا نفسيا وتهيأوا وتخيلوا المباراة ، وتخيلوا الأهداف وتخيلوا النصر والخروج الى الشوارع والمظاهرات .. وتخيلوا ما سوف يقولونه للخصوم .. وتخيلوا الولائم والنكت والسخرية بالخصوم وفجـأة انهدم الخيال كله . والسبب هو اللاعبون . والسبب انهم صدقوهم .. فكذبوا عليهم وجعلوهم أضحوكة للخصوم ولكل الناس . وبعض المشجعين يتوارى فى بيته ولا يذهب الى العمل .. أو ينهار .. أو يصاب بأزمة قلبية .. أو يموت .. أو ينتحـر .. كأنه راهن بكل ما يملك ، وخسر كل شىء ..

وجاء التليفزيون وزاد عدد المتفرجين .. نشر الوعى بالرياضة ، ولكنه لم ينشر قيم الرياضة او تذوقها .. ولذلك كان هدف متفرجى التليفزيون هو العنف والاثارة .

حتى الرياضة دخلتها النظريات : الهواية والاحتراف .

أيهما افضل لفن الكرة . ان يكون اللاعب هاويا . يلعب لانه يحب اللعب . ولا يهمه المكسب المادى .

أو يلعب لانه يعيش فى اللعب .. فاذا لم يلعب مات .. ولذلك فهو يتفنن لكى يعيش افضل .. بالكسب الكثير .

اختلف علماء الرياضة .. ولكن أحدا لا يفكر ، لم يعد يفكر ، فى ان يتفرج فقط .. وأن يجد فى ذلك متعة .

انتهى ذلك الزمان الذى كان المتفرج يظل متفرجا لا يتدخل .. يرى ويسمع ويقول فى نفسه : الله .. تماما كالذين يتفرجون على التمثيل المسرحى أو الغناء المسرحى او الموسيقى السمفونية .. فقط أن يصفق فى النهاية ، ولكنه لا يتنفس ولا يتدخل أثناء العزف ..

ولكن تقاليد المسرح هى الأخرى قد انهارت .. فكان المثلون يظهرون على المسرح ويعيشون حياتهم الفنية .. ونحن نتفرج فقط .. كأنهم لا يشعرون بنا .. وكأننا لا نعايشهم .

اما الآن فمسرح العبث جعل من حق الممثل أن ينزل الى مقاعد المتفرجين .. ومن حق المتفرج أن يصعد الى المسرح ويضرب الممثل قلما .. او يدخل معه فى قافية .. ويدور حوار خارج عن النص .. او بالاتفاق مع المؤلف او الممثل .. تماما كما يحدث فى الملاعب .. اللاعب عينه على المدرجات ، والمدرجات عينها على الكاميرا .. ولا احد ينظر الى اللعب أو اللاعبين .. فلم يعد اللعب للعب ، او الفن للفن .. وانما كل شيء من أجل الاستعراض والمكسب !

لقد فسدت الرياضة نهائيا .. لم يعد لها ذلك البريق .. ذلك السحر .. لم تعد لها تلك الطقوس الدينية : المتفرج قد احتشد نفسيا وعقليا واجتماعيا أيضا . وذهب يتمتع فى استغراق .. واللاعب عينه على الكرة وعلى زملائه .. وكل همه هو ان يبدع وان يتفنن . انتهى كل شيء .. اما الأهداف ، ان جاءت ، فليست هى الهدف !

وجمهـور التليفزيون الجالس فى بيتـه يريد من الجميع أن يقوموا بالتسلية .. أصبحت الرياضة تسلية .. مثل أعمال السيرك .. فالكاميرا عندما تتسكع بين المدرجات فلكى تبحث عن شىء غريب شـاذ .. يجعل المتفرج يضحك .. واللاعب عندما يتشقلب او يتهجم على اللاعبين او الحكام، فانه يساهم فى العنف والاثارة التى يتعطش اليها المتفرجون !

حتى ملاعب التنس ، التى هى رياضة ارستقراطية ، تجد الجمهور يصرخ ويقلق ويشتم ، ونسمع الحكم ينبه المتفرجين الى الهدوء والأدب !

ويحدث الآن ما كان يحدث فى القرن التاسع عشر . ففى القرن الماضى كان المصلحون يستنكرون الرياضة لانها تدعو الى الفوضى والى تعـاطى الخمور .. والخمور من شأنها ان تطلق سراح الناس على الناس .. ولذلك لعنوا الرياضة التى تجعل الناس يفقدون عقولهم مرتين : مرة بالحماس ومرة بالخمر .

والآن فى كثير من الملاعب يمنعون تعاطى الخمور .. بل يمنعون كل من شربها قبل دخول الملعب .. والسبب هو حماية اللاعبين والمتفرجين من العنف والتدمير .

والرجل الذى أنشأ الدورة الأوليمبية واسمه بير دى كوبرتان له عبارة مشهورة قال : اننى معجب بانجلترا لأنها جعلت الهدف من الرياضة هـو بناء الشخصية المتكاملة !

وماتت هذه العبارة معه فلم يعد ذلك هو هدف الرياضة من اى نوع. ضاعت الأهداف . وفسدت السبل .. أفسـدها اللاعبـون والجمهـور والمعلقون والأندية وشركات الكرة !

* * *

طبيعى ان يقول رجـل مثل الجنـرال ماكارثر : ان بذور النصر فى الحرب كانت هناك فى الملاعب !

ولا أعرف ما الذى قاله يوم انهزمت أمريكا فى موقعة بيرل هاربور .

قالوا الكثير . ولـكن ليس من بين الذى قـالوه : انها الملاعب التى انهزمت فيها أمريكا أمام امريكا قبل ان تهزمها اليابان .

والسبب ان هناك انواعا مختلفة من الملاعب .. ملاعب الرياضة وملاعب القتال .. وان كانت أمريكا ، بتقدمها الصناعى الهائل ، قد أفسدت الرياضة بكل انواعها فأصبحت تجارة .. ولكن عندما هددت السياسة بافساد الدورة الاوليمبية أعلنت كل دول العالم ان السياسة لا علاقة لها بروعة الشباب وجماله وبطولته .. ولا يحق للسياسة ان تفسد ما تبقى من ملذات الناس ، فتقضى على الملاعب ايضا .. وامتنعت دول عن المشاركة فى الدورة الاوليمبية الأمريكية .. وامتنعت ايضا دول عن الدورة الاوليمبية فى كوريا الجنوبية : كوبا والبانيا واثيوبيا وكوريا الشمالية .. ولكن الأغلبية المطلقة ترى ان الرياضة يجب ان تبقى ، بعيدة عن السياسة وان تحتفظ لها بمبادئها القوية فى ازالة الفوارق بين الناس .. وفى الابقاء على المعادلة الصعبة بين التنافس والتعاون .. أى ان يتعاون الفريق الواحد فى تنافسه مع فريق آخر .. ودولة أخرى . وان تكون الرياضة استعراضا لأعظم ما بلغه الشباب .. مثل مهرجانات الأغنية والمسرحية والأفلام .. ومعارض الكتب .. كلها اسواق للدعاية والابداع .

وفى الحرب العالمية الثانية كانت قوات الحلفاء فى مصر .. يلعبون ويرقصون .. ولكن رأينا اعظم ما ابدع العقل الانسانى : مئات الوف الكتب فى طبعات صغيرة ورخيصة .. كل الشعر والمسرح والفلسفة والعلوم والروايات .. كلها على ارصفة مصر وفوق عرباتها الكارو وعلى سور الأزبكية .. فقد كانت هناك حرب ورياضة وقراءة .

وهذا هو التعادل والعدل .. والتوازن والانسجام بين اللعب والجد — مع أن اللعب هو الآخر جد فى جد .. لأن له قواعد وأصولا واعرافا وقضاة ثم ان محاكمات اللعب كلها علنية .. ونحن جميعا نحترم قانون اللعب وقدسية القضاء ونضرب دماغنا فى الحائط .. ولا نقترب من الحائط الوهمى المرسوم على الأرض بالطباشير .. لأن هذا الحائط الوهمى حقيقة مؤكدة .. حقيقة القانون وقوته واستقلاله .

ولن نتقدم فى الرياضة مالم نحقق التوازن والانسجام بين اللعب والجد بين التنافس والتعاون والتسامح بين القدم والقلم — كما قال لنا توفيق الحكيم .

ولابد اننا الآن نخجل من انفسنا عندما القينا على كرة القدم كل اللوم

فى هزيمتنا العسكرية .. ولكننا مع الاسف مانزال نلعب بكرتين : كرة القدم وكرة الندم .

ولم نعد نحن بدعا فى ذلك .

فالاتحاد السوفييتى الذى لعن ستالين واحرقه أيام خروشوف ، أعاد نبش قبره بأصابع جورباتشوف ليبصق المواطنون (٢٧٠ مليونا) على رفاته .. أو ترابه . لانه كان مجرما . ويجب ان يكون هذا القرار نهائيا. فلا أسف ولا ندم على ذلك .. ولا ادانة للملايين .. فهو المجـــرم وهم الضحايا . فلا يلوم احد نفسه .. وانما اللوم على معاصريه الذين استسلموا والذين أركبوه عقولهم وقلوبهم وارادتهم .. وعليه وحده !

لقد أوقف جورباتشوف كرة الندم ، ليتفرغ الى كرة القدم فى أوروبا وأمريكا !

□□□

لا أدخلكم الله

هذه "البوابة السوداء"!



لا أدخلكم الله هذه "البوابة السوداء"!

□ السجون والمعتقلات والمحاكم ورجال الأمن ، عددهم جميعا لا يكفى لتنفيذ قانون لا يتفق مع الدين !

□ من الممكن أن تكون حكومة بلا قانون ، مستحيل أن يكون قانون بلا حكومة !

□ القانون المصرى يشبه سيدة أجهضوها كثيرا ، حتى أصبحت سيئة السمعة !

□ اذا اعتدت الدولة على القانون ، خلقت فى الناس الاحتقار لها وللقانون !

□ ارتفاع نسبة الجريمة دليل على أن ذراع القانون أصبحت قصيرة .. أو أصبحت اطول مما يجب !

□ يزعجنا : الناس فى السجون ، والناس الذين لم يدخلوها ، والذين كان يجب أن يدخلوها !

□ اول اعتداء على حرية الانسان ان يتدخل البوليس فى هذا الحديث الذى بينى وبينك !

□ نحن لم نولد متساوين ، القانون جعلنا كذلك !

□ اكثر الناس قلقا فى داخل السجون : حراسها !

□ السجون هى علامات الاستفهام ، والمعتقلات هى علامات التعجب فى كتاب الحضارة !

ان اول خوف كبير فى حياتى يوم استدعوا والدى مساء لسبب لا اعرفه . فقد كنت صغيرا . ولكن ظلت أمى تبكى ونحن حولها ، وطلع نهار ولم يظهر أبى . وطلع نهار ولم يعد أبى . وجاء اناس يسألون ولم تنطق أمى . وتهامس الناس ولم نسمع ، فقد كانت حريصة على أن ننام مبكرا حتى لا نراها تبكى . هل كانت مريضة ؟ هل تظاهرت بالمرض .. ثم عاد أبى ونحن وكلاب الحراسة نتعلق بملابسه .. هل الحصان الذى كان يركبه فى طول السماء وعرضها ؟ كنا نراه كذلك ؟ ! هل البندقية التى على كتفه فى طول النخلة ؟ ! هل صحيح انه قتل بها ألفا من رجال البوليس، وفى مقدمتهم المأمور ؟ .. ان أمى هى التى تقول ذلك .

وكنت احكى لزملائى فى مدرسة أبى حمص الابتدائية أنهم وضعونى فى السجن ووضعوا السلاسل فى يدى وقدمى وأدخلوا الصراصير فى صدرى والنمل فى أذنى . لأننى اعتديت على المأمور بالضرب . وسمعتنى أمى وأنا أتخيل هذه القصة وأقسم على صحتها فطلبت منى أن أكف ما دام والدى قد عاد سالما ، وكدت أصدق هذه القصة التى اخترعتها انتقاما من المأمور اى مأمور.. أو من السلطة التى سجنت والدى ، مع أن شيئا لم يصب والدى !

وفى سنة ١٩٥٢ ولسبب غامض شجعت زملائى على أن نرى السجون فى ولاية بافاريا الألمانية وكنا جميعا مدرسين فى الجامعة : د. عبد العزيز حجازى ود. عبد المنعم البنا ود. حسن عثمان ، والرائد حسنى نجيب ود. مراد كامل ، وكان استاذ اللغات السامية فى جامعة القاهرة ، والذى رشح نفسه بعد ذلك ليكون بطريرك الأقباط . ولم تكن السجون فى برنامج

الزيارة . وذهبنا ومعنا وزير العدل .. وكانت لدى رغبة عميقة فى معرفة شىء ما .. هل كنت فى ذلك الوقت أفكر فى أن اتفرغ لدراسة الفلسفة : للقراءة والتأليف . وأن اقضى حياتى فى أحد الأديرة فى احدى الصوامع : سجن انفرادى أنيق من أجل البحث عن الحقيقة ؟ أظن كانت هذه آمالى. ولكن الأب قنواتى شفاه الله ، واحد الرهبان فى الدير الدومنيكى بالقاهرة نبهنى الى أن هذا ممكن .. ولكن كيف أعيش وكانت أمى مريضة ومات أبى ؟ ولم اكن قد فكرت فى ذلك .. هل كنت أعرف السجن الذى قد دخله والدى بسبب وشاية سياسية ؟ .. هل الفلاسفة هم وحدهم الذين لا يضيقون بالسجون ؟ هل الخوف من البرد والزكام هو الذى ابعدنى عن هذه الفكرة الجنونية ؟ ! لم أكن قد حسمت كل هذه المعانى عندما رأيت السـجن فى بافاريا : المبنى فخم ضخم .. وزير العدل الألمانى يتقدمنا جميعا .. ثم يقول لأحد مديرى السجن : استأذن السـجين ان كان يحب أن يرى هـؤلاء السادة الأجانب !

يقول : استأذن السجين ؟

ودق باب احدى الزنزانات وانفتح الباب ، الغرفة صغيرة أرضـها وجدرانها وسقفها من الخشب ، السرير صغير نظيف .. ومنضدة عليها بعض الكتب والورود ، نهض السجين واقفا وصافحنا ، وسأله الوزير ان كانت له رغبة فى شىء . فهز رأسه شاكرا .. أما جريمته فهى الاهمـال الذى أدى الى قتل أحد المشاة بسيارته ! وسجين طبيب ، وسجين ضابط ، وسجين تاجر وكل الغرف ــ الزنازين ــ نظيفة أنيقة .. وقيل لنا بوضوح شديد : السجن معناه أن يفقد السجين حرية الحركة فقط .. فلا يخرج من هذا المكان ولكن كل الذى يريده من طعام أو شراب أو كتب أو الاستماع الى الموسيقى والرياضة . كل ذلك ممكن وحقه كمواطن فى دولة متحضرة !

ولم أعرف بالضبط ما هى مزايا هذه السجون عن السجون فى مصر مثلا ؟ بعد ذلك عرفت بشهور قليلة عندما تحدثت الى الزميل اسماعيل حسين مدير مكتب أخبار اليوم بالاسكندرية ، وشاء الصدفة أن يذهب الى بافاريا وأن يزور هذا السجن مع المرحوم عز العرب عبد الناصر ، شقيق الرئيس جمال عبد الناصر ، وعاد مبهورا . يروى نوادر حياة السجون فى المانيا . وكيف انها أمنية أى مواطن مصرى . ثم هذه الغلطة الفظيعة . لقد ردد اسماعيل حسين عبارة عن شقيق الرئيس أن المصريين كلاب لا يستحقون الا ضرب الكرباج لا سجونا من هذا النوع الفاخر !

واختفى اسماعيل حسين فى سجن القلعة .. ولم يره أقرب الناس اليه الا وهم يقفلون عليه باب قبره ، حتى لا يعرف أحد مدى التعذيب الذى أصابه والتشويه فى وجهه وبشرته وكل عضو فى جسمه ، نعم كل عضـــو وليس أحد فى العالم العربى لم يقرأ ما كتبه الكاتب الكبير مصطفى أمين عن الهوان الذى اصاب ملك الصحافة ظلما له وحقدا عليه . ولم يصـــدق أحد أن كل الـــذى أصـــاب مصطفى أمين من هوان وتعديب وتحقير قد حدث ـــ لأنه أكثر من أن يحتمله انسان ولكنه حدث ولتسع سنوات !

ولو كان الذى أصاب مصطفى امين والوفا من الاخوان المسلمين ومن الشيوعيين ، تعذيبا لشخص واحـــد من الخمسين مليونا لهان الأمر .. ولتوارثه أولاده وأحفاده ، ولكنه عذاب لمئات الألوف ، عذاب لشعب .. ولذلك فهذا العذاب لا يمكن أن يموت . وانما سوف يتوارثه الناس جيلا بعد جيل .. بقعة سوداء تتسع حتى تكون عارا قوميا .. لعل الذى حدث لا يتكرر ، ولعله اذا تكرر أن يكون أقل امتهانا لانسانية المواطن .

ولذلك يجب ألا نمل الحديث عن ذلك حتى لا يقع مرة أخرى !

* * *

واذا نحن ضقنا بذلك ، فان المعذبين لا يضيقون . كيف يمل من فقئت عينه ، وبترت ساقه ، وقطعت ذراعه ، وأهين فى عرضه فى سبيل الله ؟ !

أحدث هذه المذكرات الرائعة المروعة ما صدر للأستاذ أحمد رائف : « البوابة السوداء — من منشورات الزهراء للاعلام العربى فى ٥٩٧ صفحة » .

والمؤلف اديب شاعر مسلم ، وجريمته انه ليس من الاخوان المسلمين ، وان كان له اصدقاء كثيرون ، وان بعض الأصدقاء متهمون بقلب نظام الحكم فى سنة ١٩٦٥ ، فاعتقلوه ليلا وهو يقرأ رواية « عن الفئران والنـــاس » للأديب الأمريكى جون اشتاينبيك . ومنذ تلك الليلة لم يعد من الناس ، وانما أصبح من الفئران حتى أفرج عنه بعد وفاة الرئيس عبدالناصر بستة شهور !

* * *

« ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون انمـــا يؤخرهم ليـــوم تشخص فيه الأبصار . مهطعين مقنعى رءوسهم لايرتد اليهم طرفهم وأفئدتهم هواء . وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا الى

اجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال . وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال . وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وان كان مكرهم لتزول منه الجبال . فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله ان الله عزيز ذو انتقام . يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار . وترى المجرمين يومئذ مقرنين فى الأصفاد . سرأبيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار . ليجزى الله كل نفس ما كسبت ان الله سريع الحساب . هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا انما هو اله واحد وليذكر اولو الألباب » سورة ابراهيم .

(صدق الله العظيم)

وقد قدم لهذه المذكرات السيد حسن التل رئيس تحرير دار اللواء بقوله — وهو على حق تماما :

« انها وثيقة اتهام لا تدين نظاما بعينه ، بل تدين جيلا بأكمله ، لأن النظام لم يقو على ارتكاب كل هذه الفظائع الا بعد أن استخف بالانسان على الخريطة العربية !

وتبدأ ملحمة العذاب فى داخل المعتقلات والسجون .

وفى تاريخ العذاب يستطيع المؤلف أن يميز بين درجات العذاب .. فالعذاب فى المباحث العامة فيه براعة ، والعذاب فى السجن الحربى فيه خشونة .

والعذاب يبدأ بالاهانة والصفع والضرب بالعصا والهراوة .. ثم ان يتولى السجناء ضرب بعضهم البعض وبمنتهى الشدة .. ثم بالزحف على أربع ، واطلاق أصوات الأغنام .. ثم السير عراة حفاة على الواح بها مسامير ، ثم كنس الأرض من الزجاج بأيديهم العارية .. فاذا أصيب أحد بجروح وصديد ، تركوه فى العراء حتى يجف دمه .

والمطلوب أن يعترف بما لم يفعل والا .. عاد العذاب بنفس القوة والقسوة من البداية .. وبلا نهاية .

وجاء من يقول له :

ـ قبل أن تموت ماذا تريد ؟

ـ أن أصلى ركعتين استعدادا للقاء الله .

ـ وماذا تفيد صلاتك ؟

ـ اننى استأذنه سبحانه وتعالى فى المثول بين يديه ..

ـ لا صلاة !

وكان معصوب العينين واقفا على حافة هاوية . وقيل له :

ـ اقفز !

ـ لا أقــدر .

ـ اقفــز .

ـ ادفعنى انت !

ـ اقفز هذه أوامر المشير عبد الحكيم عامر .. لابد من اعدام خمسين أنت أولهم !

وكانت الصرخات حوله فى كل مكان . وهو لا يدرى . انه فى غيبوبة. ثم قيل له : لقد تأجل حكم الاعدام ! هل عندك معلومات تريد أن تقولها ؟ !

ـ لا .

ـ هل لديك رغبة فى شىء ؟ !

ـ لا .

ـ تكتب اعترافاتك الآن ؟ !

ـ ليس عندى ما أقوله .

ـ عندى أنا .. أنا أملى عليك وأنت تكتب !

ـ حاضر يا سعادة البيه .

وكتب بخط يده : أنا شاركت فى مؤامرة لقلب نظام الحكم فى مصر !

واحرقوا بالولاعة اماكن مختلفة فى جسمه .. ومرغوه فى الأرض .

وسجنوه مع خمسين فى غرفة تسع عشرة اشخاص..وشربوا البول.

وحاول ان يفلسف عذابه .. ويقول لنفسه : ليس الألم الا فكرة يمكن طردها بفكرة اخرى . هذه الفكرة الأخرى : اننى اقوى من الألم ، واعظم من الالم . تماما على الطريقة البوذية . ولكنه فشل تماما ، فلم يكن الألم فكرة وانما كان جسما ملتهبا محترقا مشوها . فاحترقت فكرة مقاومة الالم فى فرن العذاب البدنى !

واعلن الرئيس جمال عبد الناصر فى موسكو فى ٣١ اغسطس سنة ١٩٦٥ فى احد اندية الشباب ان البوليس قد ضبط مؤامرة للاخوان المسلمين لقلب نظام الحكم وانه كان قد عفا عنهم فى سنة ١٩٥٤ . ولكن هذه المرة لن يفلتوا . وكان ذلك تصريحا جديدا بمضاعفة العذاب لهم فى المعتقلات والسجون .

قال احد الضباط لأحمد رائف : سوف تعترف . لا تحاول أن تهرب . ان الله نفسه لا يستطيع أن ينقذك .. ان الله لا يدخل هذا المكان وسوف ترى ؟ !

وتنقلوا بالسلاسل والقيود مثل اسرى الجيوش الرومانية . أو مثل العبيد ينقلونهم الى حقول القصب والقطن من افريقيا الى امريكا .. أو مثل اليهود الذين اعتقلهم الجستابو فى عهد هتلر .

وقال أحد الضباط : من جاء الى هنـــا يجب أن يكون عبدا لجمـــال عبد الناصر . اعرفوها وافهموها !

واستسلم لحكم الله وقضائه وقدره .. وتذكر ابياتا صوفية تقول :

لا تدبر لك أمرا

فأولو التدبير هلكى

سلم الأمر تجدنا

نحن أولى بك منكا

ورأى الحاجة زينب الغزالى يصفعونها ويجلدونها .

وقابل الشهيد سيد قطب العالم الجليل مفسر القرآن الكريم المريض الشيخ الذى لم يشفع له شىء من كل ذلك فأعدموه ؟

سأل سيد قطب :

ـ ماذا تنتظر ؟

ـ الوفود على ربى !

وفى السجن الف مسرحية . قام فيها شكرى مصطفى الذى أصبح أميرا لجماعة « التكفير والهجرة » بدور الطالب العبيط المدلل من ابيـه المعلم الجاهل . المسرحية اسمها « اشمونى أفندى » .

وأشيع فى السجن انهم اذا قدموا التماسا أو طلبا للعفو ، فسوف يعفو عنهم .. وواحد منهم كتب لشادية ونجاة الصغيرة ،وبعض الراقصات، فقد قيل فى السجن انهن وحدهن القادرات على كل شىء .

ويوم حاصر الفريق محمد فوزى بدباباته وعشرين الفا من الجنود كرداسة بحثا عن المتآمرين ، نقلوا الى السجن الفا من الرجال والنساء . واشترطوا لدخولهم : ان يبرك الرجال على الأرض وان يحملوا النساء على ظهورهم !

* * *

وكانت هناك لحظات تأمل خاطفة فى حاله وحال الناس ، وهو ينظر من القلعة الى القاهرة وتخيل شاهين بك الذى هرب بحصانه من «مذبحة» محمد على ..

وهناك لحظات يحس فيها بأنه فى السجن أمان تام فليس هناك أسوأ من الذى أصابه ، وليس قلقا على شىء ، ولا خائفا من شىء أو من أحد .. فهنا القاع الذى لا شىء بعده .. بل حتى اذا جاء الموت ، كان الراحـة العظمى من هذا الهوان الأعظم !

اما الفزع الأكبر فهو المؤتمر الصحفى الذى عقده الرئيس عبد الناصر (٤٩ سنة) قبل النكسة . وسخر من أنتونى ايدن ووصفه بأنه « خرع » ولم تعرف وكالات الأنباء العالمية أن تترجم هذه الكلمة الى اية لغة أجنبية.. وكان ايدن مريضا . ولكن هذا المريض مات بعد عبد الناصر بسبع سنوات، واعلن عبد الناصر أنه قادر على أن يحارب أمريكا نفسها !

وكانت الفرحة الكبرى يوم النكسة .. شماتة فى الرجل ، وحزنا على مصر وخوفا من ان يؤدى ذلك الى مزيد من التعذيب !

واعلن الرئيس عبد الناصر : كان الغرض هو اسقاط النظام . والنظام لم يسقط . اما الجيش فلا يهم ، سوف يكون لنا جيش آخر .

ثم اعلن : انا المسئول عن كل ما حدث !

وصفق الناس وطبلوا وزمروا سعداء بذلك . كأن النكسة كانت مطلبا قوميا !

وفى داخل السجن قال لهم عبد الفتاح حسن باشا : نحن فى حاجة الى خمسين عاما من الاصلاح لكى نصل الى الفساد الذى كنافيه قبل ثورة يوليو . لقد قضى عبد الناصر على اى امل فى الاصلاح لأجيال قادمة . لقد أفسد أخلاق الناس ... فيهم الشهامة والمروءة والمثل الأعلى .

* * *

ثم غادر الأستاذ أحمد رائف المعتقل بعد أن سمع قائد المعتقل يسب الزعيم ويصفه بوضاعة الأصل ، وأنه ضيع الوطن وسرق الثورة من السلطان العظيم انور السادات القائد الحقيقى للثورة المباركة ، ولكن الله يمهل ولا يهمل ! .

□□□

هل عاد ذو الوجه الكئيب؟



هل عاد ذو الوجه الكئيب؟

هذه القصيدة كتبها صديقى الشاعر صلاح عبد الصبور ، وقال لى وللآخرين أيضا انها عن الرئيس جمال عبد الناصر .

هل عاد ذو الوجه الكئيب ؟
ذو النظرة البكماء والأنف المقوس والندوب
هل عاد ذو الظفر الخضيب
ذو المشية التياهة الخيلاء تنقر فى الدروب
لحنا من الاذلال والكذب المرتش والنعيب
ومدينتى معقودة الزنار
عمياء ترقص فى الظلام
ويصفر الدجال والقواد والقراد والحاوى الطروب
فى عرس ذى الوجه الكئيب

* * *

من اين جاء ؟
ويقول سادتنا الأماجد حين يزوون الجبين
شأن الثقاة العارفين
من الســـماء ...
من أين جاء ؟
ويظل أهل الفضل فينا حائرين
ويتمتمون على مسابحهم وهم يتلاغطون
هذا ابتلاء الله ! هذا من تدابير القضاء
من أين جاء ؟
ويقول أصحابى وهم كالزعزع النكباء قوه
العزم يلمع فى عيونهم وتجرى فى عروقهم الفتوه
من الجحيم
وكيف جاء ؟
هذا « أبو الهول » المخيف
نصب السرادق عند باب مدينتى للقادمين
وللعـــائدين
والهاربين الى الفضاء
والوالجين الى البناء
لا ! لم يدع أحدا ...
الا والقى دونه هذا السؤال
من خالق الدنيا ؟
الملتحون تهللوا ، وأجاب رائدهم بصوت مستفيض :
الله خالقها .. ! وهذا لا يصح به سؤال
وعوى ابو الهول المخيف ، وقلب الوجه الكئيب الى اليسار
ورمى بجمع الملتحين الى الدمار
والأمر دون تأملوا ، وأجاب رائدهم بصوت مستفيض :
لا نستطيع ! بل نحن نعرف ! انه قدم الطبيعة

وعوى أبو الهول المخيف ، وقلب الوجه الكئيب الى اليسار
ورمى بجمع الأمردين الى الدمار
وتقدم الدجال والقواد والقراد والحاوى الطروب
وتضعضعوا ! قالوا معاذك ! انت خالقها ، اجل ...
انت الزمان
انت المكان
أنت الذى كان
انت الذى سيكون فى آتى الأوان
وعوى أبو الهول المخيف وقلب الوجه الكئيب الى اليمين
واشار ، ثم تواثبوا فوق الارائك جالسين

* * *

سيظل ذو الوجه الكئيب وانفه ونيوبه ...
وخطاه تنقر فى حوائطنا الخراب
الا اذا ...
الا اذا مات
سيموت ذو الوجه الكئيب
سيموت مختنقا بما يلقيه من عفن على وجه السماء
فى ذلك اليوم الحبيب
ومدينتى معقودة الزنار مبصرة سترقص فى الضياء
فى موت ذى الوجه الكئيب

□□□

كتب للمؤلف

١ ـ دراسات

١ ـ وحدى مع الآخرين	الطبعة الثانية
٢ ـ عذاب كل يوم	الطبعة الثانية
٣ ـ طريق العـــذاب	الطبعة الرابعة
٤ ـ مع الآخرين	الطدمه الثالثة
٥ ـ الوجـــودية	الطبعة الثانية
٦ ـ يسقط الحائط الرابع	الطبعة الرابعة
٧ ـ كرسى على الشمال	الطبعة الثانية
٨ ـ ساعات بلا عقارب	الطبعة الثالثة
٩ ـ قالوا	الطبعة السادسة
١٠ ـ وداعا أيها الملل	الطبعة الرابعة
١١ ـ ألوان من الحب	الطبعة الثالثة

١٢ ـ مدرسة الحب	الطبعة الثالثة
١٣ ـ من نفسى	الطبعة الثالثة
١٤ ـ شارع التنهدات	
١٥ ـ الخبز والقبلات	الطبعة الثالثة
١٦ ـ الحائط والدموع	الطبعة الخامسة
١٧ ـ الذين هبطوا من السماء	الطبعة السادسة
١٨ ـ يوم بيوم	الطبعة الثالثة
١٩ ـ يا من كنت حبيبى	الطبعة الثالثة
٢٠ ـ من أول نظرة	الطبعة الثالثة
٢١ ـ وكانت الصحة هى الثمن	الطبعة الثانية
٢٢ ـ أرواح واشباح	الطبعة الثالثة
٢٣ ـ الذين عادوا الى السماء	الطبعة الثانية
٢٤ ـ قلوب صغيرة	الطبعة الثالثة
٢٥ ـ شيء من الفكر	الطبعة الثالثة

٢ ـ قصص

٢٦ ـ بقايا كل شيء	الطبعة الثالثة
٢٧ ـ عزيزى فلان	الطبعة الثالثة
٢٨ ـ هى وغيرها	الطبعة الثالثة

٣ ـ رحلات

٢٩ ـ حول العالم فى ٢٠٠ يوم	الطبعة الثالثة عشر
٣٠ ـ اليمن .. ذلك المجهول	الطبعة الثانية
٣١ ـ بلاد الله .. خلق الله	الطبعة الثالثة
٣٢ ـ أطيب تحياتى من موسكو	الطبعة الثانية
٣٣ ـ أعجب الرحلات فى التاريخ	الطبعة الثالثة

٣٤ ــ غريب فى بلاد غريبة
٣٥ ــ لعنة الفراعنة — الطبعة الثانية
٣٦ ــ أوراق على شجر

٤ ــ مسرحيات

٣٧ ــ الأحياء المجاورة !
٣٨ ــ حلمك .. يا شيخ علام !
٣٩ ــ مين قتل مين ؟
٤٠ ــ جمعية كل واشكر !
٤١ ــ كلام لك يا جارة

٥ ــ مترجمات

٤٢ ــ الامبراطور جونز اونيل
٤٣ ــ رومولوس العظيم (ديرنمات)
٤٤ ــ هبط الملاك فى بابل (ديرنمات)
٤٥ ــ أمير الأراضى البور لماكس فريش
٤٦ ــ فــوق الكهف (تنسى وليامز)
٤٧ ــ بعد السقوط (اثر ميللر)
٤٨ ــ هى .. وعشاقها (أربع مسرحيات) لديرنمات
٤٩ ــ الشهاب (ديرنمات)
٥٠ ــ سواد عينيها (جيردو)

الفهرس

صفحة

رقم الايداع بدار الكتب ٥٧٤٠ / ١٩٨٨

الترقيم الدولى ٧ــ٧٨ــ١٣٦٠ــ٩٧٧ ISBN

مطابع الأهرام التجارية - قليوب - مصر

عبد الناصر

المفترى عليه والمفترى علينا !

اللهم اجعل دمي لعنة عليه إلى يوم القيامة . . اللهم إنى في دينك ، وفى سبيلك ، وأموت عليه . . اللهم هذا الطاغوت تكبر وتجبر . . اللهم رحمتك وجنتك ياأرحم الراحمين . . وإنا لله وإنا إليه راجعون ! !

لقد كان - يرحمه الله - طويلا شاحبا . . يتساند على جلاديه . . لم يكن خائفا . وإنما كان مريضا . . لم يكن خائرا ، وإنما كان شيخا لم يكن ثقيل الخطى ، وإنما كان علما وقرآنا . . لم يكن بشرا لقد كان جبلا من الايمان والصبر واليقين . .

بحثت عن يدى ألطم بهما خدى . . لم أجدهما . . ما الذى انتابنى . . ما الذى أصابنى فأرى سيد قطب العالم الجليل والشهيد الكريم ، صديقى فى حب الأستاذ العقاد والاعجاب به ، أحد الأنوار الكاشفة للايمان والغضب النبيل من أجل الله وفى سبيله . . هل هو فرن ذلك الذى وقفنا به ؟ . . فكل شىء لونه أحمر . . الجدران . . الأرض . . الوجوه الجامدة . . هل انفتحت جهنم جديدة : حمراء باردة . . هل حمراء ملتهبة ولكن الأعصاب هربت . . نزعوها جعلوها حبالا يتدلى منها سيد قطب ؟ ! هل هو عندما دخل . . نزل . . مشى . . سحب أرواحنا . . فأصبحنا أشباحا . . موتى وهو الحى الحقيقى . . هل هذا الجسم الهزيل الشاحب قد جمع كل قواه وقوانا وحشدها فى حنجرته فزلزل بها المكان : **لا إله إلا الله . . والله أكبر . . ولا حول ولا قوة إلا بالله . . لبيك اللهم لبيك . . اللهم أن الموت حق . . وإنك أنت الحق . . لبيك اللهم لبيك . .**

هل كان هذا صوته . . أو صوت الجدران والأبواب والنوافذ . . هل استولى على حناجرنا . . هل قفز إلى قلبه قلوبنا وانضمت إلى صدره صدورنا . . وبحثت عن رأسى لم أجده . . ذراعى أمدهما . . أسحبه بعيدا عن الحبل . . هل رأيت دموعا فى عينيه . . أو أنها دموعى . . هل سمعت عويلا حولى . . هل حقا ما حدث . . لاحول ولا قوة إلا بالله . .

أنيس منصور

مطابع الأهرام التجارية - قليوب - مصر